الطائفية في الوطن العربي

أسبابها ومظاهرها ـ العراق نموذجًا

د. موسى الحسيني

الكتاب : الطائفية في الوطن العربي

المؤلف : د. موسى الحسيني

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع : ١٩٥٣٩ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي : 2 - 289 - 493 - 977 - 978 : I.S.B.N

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٢٩٧٠٠٢٣٩ (٠٢) ، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



الطائفية في الوطن العربي

أسبابها ومظاهرها

(العراق نموذجًا)

د. موسى الحسيني

محتويات الكتاب

مقدمة

لا يحتاج المتابع لما يجري من صراعات ونزاعات طائفية في الوطن العربي لكثير من الفطنة والذكاء ليتعرف على أغرب ظاهرة في جوهر هذه الصراعات التي يفترض أن تكون نتاج خلافات فقهية مذهبية بين الأطراف المختلفة آرائها، ضمن الدين الواحد، أو خلافات عقائدية بين الأديان المختلفة.

إلا أنها في مظاهرها ومساراتها تكشفُ عن نفسها وطبيعتها في ألا دخل لهذه الخلافات الفقهية أو العقائدية بما يجري من صراعات حادة، هي حالة هستيريا جماعية تعود لأسباب في الغالب نفسية – سيكولوجية – نتجت عن حالات الاضطراب الاقتصادي / السياسي التي تعيشها البلدان العربية، وما ترتب عليها من فشل وإحباط متعمد أحياناً لعمليات التنمية ، للخروج من مأزق التبعية والتخلف، وانعكاسات هذه المظاهر على الوضع الاجتماعي العربي ككل، وما تخلفه من اضطرابات انفعالية نفسية قلقة في تركيبة الفرد السيكولوجية، كالكآبة ، الإحباط، تصاعد مشاعر الحرمان النسبي، بعض من مظاهر البارانويا ، الإحساس بالنقص والدونية، انخفاض مستوى تقدير الذات وغيرها من مظاهر الاضطرابات النفسية التي تعزز غُلبة الهلاوس والأوهام على الواقع، وتلغي ملكة التفكير والتأمل عند الفرد.

كأي حالات مرضية أو اضطرابات فإن الإنسان ينكر الإقرار بوجودها، لكنها من القوة والاستمرارية ما لا ينفع لتهدئتها بما عُرف بالميكانزيمات الدفاعية اللاشعورية، تغلفها الشخصية المضطربة بما تضفيه عليها من معتقدات دينية، لتبرير المعاناة التي يعيشها الإنسان بتأثير ضغوطاتها الانفعالية، فتغدو هذه الاضطرابات والهلاوس الناتجة عنها من المقدسات التي لا تحتمل النقاش أو المراجعة.

ضخَّم انتشار وسائل الاتصال والمواصلات من تجسيد هذه الأحاسيس، بكل ما تعتمله في نفس الإنسان من مقارنات؛ بين ما وصل له العالم من تقدم وتطور ورفاهية وما يعانيه العربي من تخلف وانعدام الشعور بالأمن؛ مرة من أجهزة حكوماته القمعية ، وأخرى من طوارئ الدنيا كالمرض والفقر ، وثالثة من التهديدات والعدوانات الخارجية، وأخيرة من نكد زوجته التي صارت تحاججه بحقوقها الشرعية وفقاً لقانون حقوق الإنسان وعصر العولمة، والدين أيضًا.. ما يجعل الشخصية العربية شخصية مستفزة تتهم الآخر ومن تختلف معه بالرؤى بأنه السبب وراء معاناته، فيعزو لها كل ما يقع عليه من حرمان ومشاعر قلقة، ويجعلها هدف لعدوانيته.

لا شك أن هناك مؤسسات معنية بالشأن العربي، تفهم وتدرك أكثر منا نحن العرب ما نعيشه ، فتعد الخطط الكفيلة بتأجيج هذه المشاعر وتوجيهها نحو الآخر في نفس المجتمع. يدعم عملها بقصد أو دون قصد مؤسسات وتجار ومحترفي الطائفية من أولئك الذي خبروا حجم الرفاهية (أموال وقصور في أغلب عواصم أوروبا وحتى نساء، جاه ووجاهة وإعلام) التي تدرها عليهم تصاعد حدة التوجهات الطائفية. سواءً كانوا يعملون لصالحهم الخاص أو بالتعاون مع المؤسسات إياها ، يروجون تجارتهم بالتصريحات والأحاديث والشعارات الجارحة تعمدًا لاستثارة الطرف الآخر ، ولإعطاء تجار الطرف الآخر العذر في حشد أتباعهم وتأجيج مشاعر العداء المضادة.

لذلك فالطائفية كاتجاه يتلبس بالمعتقدات الدينية، بحاجة أكثر ما تكون للدراسات النفسية، لتعريف الفرد بما يعيشه من اضطرابات وتفسير حقيقتها وتأثيرها عليه ، لتحويل تلك الانفعالات والمشاعر من حالتها اللاشعورية إلى حالة شعورية، أي تجريدها من شحناتها النفسية العاطفية اللاشعورية، وتحويلها إلى مشكلات تلزم الفرد السليم العقل بالتعامل معها كمشكلات خاصة بروية وعقلانية.

لاحظتُ هذه الظاهرة مبكرًا منذ عام ١٩٨٣، بل قبلها بكثير، وكتبت فيها بحثًا صغيرًا أو (اسي) لنيل شهادة الدبلوم العالي في علم النفس الاجتماعي من مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية في جامعة لندن، بأمل أن أطوره، إلا أني كنت قد غيرت توجهي لإكمال الدكتوراة بالسياسة الدولية، ولم تتهيأ لي الفرصة لمتابعة الموضوع، رغم أني لم أتوقف عن متابعته وكتابة مقالات صغيرة نشرتها على الإنترنت؛ لكنها لم تتطور إلى بحث أو دراسة مفصلة، ما زلت آمل أن أنجزها.

لا أُنكر أن الحافز لهذه الدراسة، ما أراه ويراه كل مواطن حريص على أمته ووطنه، من مؤامرات تحاك ضد وجود الأمة العربية، وتدمير أي إمكانية لوحدتها أو حتى تطورها في أقطارها القائمة، عسى أن أسهم بشكل أو آخر في صدم العقل العربي المغيب ليعود إلى صحوته، لذلك قررت أن أكتب في الفرضية الأولية: أن الصراع الطائفي الذي نراه لا علاقة له لا بالاختلافات المذهبية ولا العقائدية، بل هو حالة هستيريا جماعية وتلوث أصاب العقل العربي وضيعه في خضم من الأساطير والخرافات والهلاوس المرضية.

جلست كطالب الشهادة الثانوية في الشهر الأخير ما قبل الامتحانات لمدة ٧ أسابيع، بمعدل لا يقل عن ٦-٨ ساعات عمل يومي؛ لأنجز الجزء الأول من البحث، مع مراجعة بعض من كتاباتي السابقة التي كتبتها تعليقًا أو تحليلاً لبعض الظاهرات الطائفية، أجريت عليها شيء طفيف من التعديلات، فهي تقدم نموذج لصناعة الطائفية وسلوكيات تجارها ومحترفيها، ما يؤكد فرضيتي الأولية التي ناقشتها في الباب الأول، فموضوعات هذه المقالات تمثل مراحل مختلفة من تطور الصراع، جميعها تمَّ نشرها على عدة مواقع وصحف على الإنترنت، وصل عدد الناشرين لبعضها إلى ٤٦ موقع وصحيفة، وأقلها ١٤ موقع وصحيفة... شكرًا لمن ساهم بالنشر، أمتنع عن ذكر الناشرين لكثرة العناوين، ومخافة أن يفوتني ذكر واحد منها، فيكون موضوعًا للغيظ.

في عام ٢٠٠٥ كرَّمني الدكتور خير الدين حسيب رئيس مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت ، برسالة يقول بها ، رغم إنه لم يحصل بتاريخ مجلة المستقبل العربي خلال أعوامها التي تمتد لربع قرن أن نشرت شيئًا سبق نشره، إلا أنه يعيد نشر مقالتي "تبت أياديهم إنهم يقتلون الشيعة على الهوية" في العدد ٣١١ من المجلة، تلك شهادة أعتز بها من مفكر قدير، كما أفخر بأن مقالتي تلك أوقفت عمليات القتل والاستفزاز التي كانت جارية، بعد نشرها مباشرة بأيام.

قبل ذلك بشهر؛ وفي ٢٠٠٤/١١/٢٢، عرضت الجزيرة مناظرة بين من كان يقدم نفسه على أنه الناطق الرسمي باسم المرجعية، الدكتور علي الدباغ، مع ممثل هيئة علماء المسلمين الدكتور مثنى حارث الضاري ، عرض ممثل المرجعية قصة الدوريات التي تعترض زوار الإمام الحسين، وتقتلهم (موضوع مقالتي: تبت أياديهم إنهم يقتلون الشيعة على الهوية) ، أجابه مثنى حارث الضاري: أن الدكتور موسى الحسيني كتب بالموضوع وأظهر حقيقة من يقف وراء تلك العمليات، وانتهى الموضوع، تلعثم ممثل المرجعية وانتقل لموضوع آخر.

لكن المناظرة فتحت علي أبواب جهنم.. خصصت المواقع الطائفية أبوابًا خاصة لشتمي، ففتحت كل من شبكة الثقافة العراقية (وهي ملك لمجموعة من الشيعة المتطرفين من الكويتين)، وشبكة هجر الثقافية؛ أبواب تحت عنوان "تبت أياديهم إنهم لا يقتلون الشيعة على الهوية"، ظلت تتابع مقالاتي وطلعاتي على شاشات التلفزيون لمدة أربع سنوات متواصلة بشكل يومي، لتثبت أني مرتد ، عميل لحارث الضاري، بعثي مستتر.. وغيرها من التهم، التي أكثر ما يثير الغرابة والدهشة في هذه الحملات أن أنشط من كان يعززها هو أخي الأصغر المتسمي ب "نصير المهدي"، ولولا أنه أصغر مني بست سنوات؛ كان يمكن أن أصدقه وأشك بنفسي في أني لست إلا لقيط تبناني أباه وأرضعتني أمه عطفًا! قال فيّ

ما لم يقله عدو بقاتل أبيه، سامحه الله.. مَن يدري، ممكن؟! لكني أملك القناعة التامة أن أكون لقيط يعتز بوطنه وهويته العربية؛ خير من أن أكون خائن أصيل بسلسلة نسب طويلة.

قبل ذلك في أواسط شهر حزيران/ جون ٢٠٠٢، حضرت مناظرة مع الكادر المتقدم في حزب الدعوة الأستاذ سامي العسكري، طرحت فكرة: أني وأنا من أقدم المعارضين لصدام؛ مستعد لأن أكون أول المتطوعين معكم لإسقاط النظام القمعي إذا كنتم تمتلكون برنامج وطني مستقل لإسقاطه، لكن سأنسى ويلات النظام وما عانيت منه إذا كان إسقاطه سيتم من خلال تعاونكم مع قوة أو تدخل أجنبي، سواء كانت أمريكا أو غيرها، عندها سأقف جندي حارس في باب صدام أدافع عنه ضدكم حتى الموت، عندما أضمن حمايته من عدوان خارجي؛ لا تستغرب أن أوجه طلقتي الأخيرة لرأسه انتقامًا منه لخيانته للقضية العربية وتفضيله لمصالحه الخاصة على مصلحة الأمة والعراق منها.

في حدود الساعة الثانية عشرة أو أكثر قليلاً من نفس الليلة؛ اتصل بي مشكورًا الأستاذ سامي ناصحًا بقوله:

- سيد ترى أنت راح تضيع المشيتين، لا السُنَّة سيقبلونك بسبب خلفياتك العائلية، ولا الشيعة يتحملون منك أطروحاتك.

كان جوابي:

- أنا تكلمت بقناعاتي الوطنية التي تتناسب مع مستوى معرفتي، لا يهمني قبول أو رفض هذا الطرف أو ذاك.

فعلاً كنت من أقوى وأشد المدافعين عن استقلال العراق، وحرية شعبه بعد وقوع الاحتلال... دفعت ثمن مواقفي بخسائر معنوية ومادية كثيرة، فزوجتي وبعد عِشرة ١٥ سنة، وأربع أطفال، اكتشفت صدفة (بتحريض من هؤلاء الجبناء)، أني مرتدٌ علماني، رغم أنها كانت تسمعني أردد المصطلح ولا تبالي، وتُخفي عني جهلها بالمفهوم، إلى أن سألتني يومًا:

- أنت تكثر من الحديث عن العلمانية، شنو يعني العلمانية؟

كنت لا ألومها على طائفيتها ، فهي نتيجة لما تعرَّض له أخوها وخالها من أحكام إعدام من قبل نظام صدام حسين... في أحد ليالي شهر مارس ٢٠١٠، اتصل بي أحد المشايخ من الأصدقاء وتكلمنا طويلاً عن الوضع في العراق، فتأكد لها صحة ما كانت تسمعه عني كوني مرتد وعميل للسنة وبعثي مستتر، فافتعلت في صباح اليوم التالي مشكلة وعراك وقفزت (المؤمنة بالله وقيم آل البيت للتليفون) تستنجد بالشرطة لإنقاذها مني، لأني أريد قتلها.

الحمد لله أن دورية الشرطة تفهمت الموضوع، فوضعوا بأيديها هي، لا أنا، القيود؛ ليأخذوننا للتحقيق في مركز الشرطة، خرجت لا شك غاضب من الحالة التي وصلت لها شريكة العمر لأجدها أخذت الأولاد وذهبت لبيت أمها (المؤمنة أيضًا والمتعصبة جدًا للولاء لآل البيت)... أردت ترك الأمر إلى أن تهدأ النفوس، لأكتشف أنها بعد ثلاثة أيام أخذت أطفالي الأربعة وهربت إلى ألمانيا، وهي تعرف أني لا أمتلك وقتها وثيقة سفر.

أرسلت لي بعد أيام ورقة خلع من تلك التي تقدمها بعض مراكز النصب والاحتيال التي تسمى مراكز إسلامية مقابل ٥٠ يورو، الغريب يبدو أن مراكز الشيعة لم توافق على إعطائها هكذا ورقة، فراحت هي المتعصبة بالولاء لآل البيت إلى مركز سُنّي... راجعتُ فقه الإمام مالك وأبو حنيفة، ورسائل فقهاء الشيعة حول شروط الخلع الشرعية، فوجدت أن الورقة التي أرسلتها لا تتوافق مع فقه هؤلاء ولا أولئك... خلعتها هي وخلعها كما يخلع الحذاء القديم، لأن الشيخ الذي نظم هذا الخلع اعترف برسالة خطية بخطأه وأنه وقع ضحية شكواها مني بالظلم وشرب الخمر (مع أن ثلاثة من إخوانها يشربون الخمر بحب الحسين، وربما حزنًا وألمًا على مصيبته ومظلوميته)، من يدري لعلها تزوجت الآن بهذا الخلع غير الشرعي، فأبو عبد الله الحسين صار يبيح كل شيء حتى الزنا، حِب الحسين واعمل ما شئت، يغفر الله لك!!

الأغرب أن أهلها وعشيرتها التي تتصارخ بالطائفية والافتخار والتبجح بأنهم أبناء شيوخ عشائر آل بو سلطان، ويتنافخون بشوارب غليظة بنسبهم، إلا أني ما وجدت فيهم رجلاً ليقول لها ققي بأي حق تسلبي الرجل - الذي التقطك من مزبلة الحجيرة في السيدة زينب، لتركبي مارسيدس حديثة بسائق وخادم وخادمة- حقه. تعلمت هي وإخوانها يغلقون فم من يتكلم بكم دولار، إخوانها يدعون أنهم أشرف الناس ولا يفوتون فرصة في عاشوراء وصفر دون أن يطبخوا القيمة ثوابًا وتقرب لفاطمة الزهراء وبعلها وبنيها، يحرضونها على أن تسلبني أملاكًا سجلتها باسمها، هي تحويشة العمر كله، لعدم توفر أوراق الإقامة عندي في حينها، ولم أكن أمتلك حتى جواز عراقي، وهي تمتلك الإقامة والجواز، فتشاركوا باسم الله وباسم فاطمة الزهراء والحسين، شقتين في لندن وبيت في العراق (تقدر قيمتها في حينها بمبلغ مليون و٧٠٠ ألف جنيه استرليني) من هذا المرتد، فقط إنهم يريدون التقرب بالله وطلبًا لمرضاته، أسمع بين الفترة والأخرى أنها مواظبة على زيارة مراقد الأئمة في العراق كل صفر بأموال سحت مسروقة.

مع ذلك ما انكسرت؛ فالفقر مع القناعة وحرية الرأي والموقف، هو الغنى الحقيقي، بل أشعر أني الأقوى بالتزاماتي بقناعاتي ومواقفي، صريح أقول قولة الحق لا أحسب حساب لرضى هذا الطرف أو غضبه، لا أدعي معرفة ما لا يعرفه الغير ولا فهم الحقيقة المطلقة، فأنا بشر خطاء، لكن التفكير والتأمل والقراءة والمتابعة والملاحظة بنظرة موضوعية لمجريات الواقع والصدق مع الذات، ومعها أولاً وأخيرًا، يجعلني أعتقد أني الأقرب من الفهم الواضح للأحداث وما يجري من وقائع حولنا، أتمنى ألا أكون أخطأت.

هناك ملاحظة أخيرة أود ذكرها، قد يتصور البعض وأنا أتعرض لشخصية ملك الملوك العرب معاوية بن أبي سفيان، في الفصل الخامس، أني أكره معاوية، أو أني أنحاز ضده لصالح الإمام علي.

أنا أعتز بملك ملوك العرب معاوية؛ الذي أرسى قواعد أول دولة قومية بالتاريخ بشهادة كل منظري الدولة القومية والحركة القومية في العالم.. لكن وللحقيقة التاريخية هناك فرق بين الحديث عن معاوية كخليفة أو صحابي، وبين معاوية ملك الملوك للعرب.. معاوية كان من الطلقاء، أسلم هو وأبيه أبو سفيان تحت حد السيف، أي أنه بالمنطق السليم لا تنطبق عليه لا شروط الخلافة ولا الصحبة، تلك مشكلة صعب فهمها في عقول تحجرت على معادلة إما مع أو ضد.

على كل حال أعرف أن أطروحاتي ستسبب لي الكثير من المشكلات والانتقادات من الطرفين، لما ناقشت من أطروحات قد يعتبرها البعض من المقدسات التي لا تقبل النقاش، لكن منهجي في الكتابة ومنذ أن بدأت أمارسها كوظيفة وطنية يرتكز على حقيقة أن ليس هناك ما هو أقدس من العقل والمصلحة الوطنية، مع ذلك أنا هنا استعرض وأناقش روايات متداولة بالتاريخ العربي، ليست من وضعي ولا صنعي، لست مسؤولاً عنها، وقديمًا قالت العرب: "ناقل الكفر ليس بكافر"، لذلك حرصت جدًا على ذكر المصادر، ودار النشر وتاريخه مخافة أن يكون هناك اختلاف في الطبعات المتعددة.. أما تعليقاتي وتحليلاتي لتلك الروايات فهي حق يمنحني إياه عصر العولمة وحقوق الإنسان كما هم دُعاة إسلام الصهيونية المعولم، وكثيرًا ما سمعت المعممين وأصحاب اللحى عند الاختلاف فيما بينهم يحتكمون للدستور الذي وضعه نوح فيلدمان وفرضه عليهم بريمر.. وشريعتهم هذه تضمن حرية الرأي وحق التعبير لي كما هو لهم.

د. موسى الحسيني
٢٣ تموز ٢٠١٧ / برايتون – بريطانيا
drmalhussain@gmail.com

الجُزء الأول

الطائفية في الوطن العربي

أسبابها، طبيعتها، مظاهرها

العراق نموذجًا

الفصل الأول

طائفية العولمة والاحتلال

فوضى المفاهيم وانتفاضات النرجسية المريضة

لو وضعنا جانبًا ، ولأغراض الدراسة ؛ الحديث عن أنهار الدم الجارية في العراق من شبابنا من أبناء الطائفتين الراكضين وراء أوهام وأساطير اندسَّت بفعل عوامل الخوف وفقدان الشعور بالأمن والإحباط، وتفسخ مفاهيم اعتبار أو تقدير الذات ، في عقولهم عن الجنة والحوريات وأنهار الخمر ، فراحوا في عملية انفصام سيكولوجية ينشغلون عن هموم حياتهم بالعيش في حدود ربع القرن الهجري الأول ، أي بهموم من عاشوا من الأجداد قبل حوالي ١٤٠٠ ، ومن هو الأحق بالحكم ؛ آل البيت أو الصحابة ، غير ذلك من دوافع عمليات القتل والقتل المضاد ، وتخريب وتدمير بنى الدولة ، وتبذير الجهود والأموال العامة ، لا لتحسين شروط خدمات الصحة ، أو التعليم والسكن وغيرها من الأمور الدنيوية السخيفة الزائلة، كما يعتقدون.

إن المتحاربين غير معنيين بمغريات هذه الحياة الفانية ، غايتهم القصوى وما يبغونه هو تصميم كل طرف ليثبت للآخرين أنه يحمل التفسير الأفضل للدين ، وأنه هو الأقرب لإرادة الله ورضوانه ، أما الآخر ليس إلا كافرًا ، جاحدًا بما سينعم به الله على المؤمنين من جنات نعيم ، حور عين ، وولدان مخلدون ، وأنهار خمر ، يغدو قتله تعجيلاً لإرساله للجحيم هو ما يستحقه من عقاب ، ما سيفتح للقاتل بابًا من أبواب الجنة ، ومن يمكن أن يكون قد أخطأ في تقديره فذاك اجتهاد يكفي أنه سيؤجر عليه بحسنة واحدة.. لذلك سيغدو القتل هواية المؤمنين المغرمين بجمع آحاد الحسنات ، لعل ذلك ما يفسِّر سلوكية أعضاء داعش بقطع الرؤوس وتعليقها افتخارًا على أعمدة سياجات بعض الحدائق ، أو

رفعها باليد عاليًا ، افتخارًا وتباهي بكسب الحسنات ، لنضع هموم هؤلاء المؤمنين المتسابقين لكسب رضوان الخالق بالقتل وتدمير وهدم منازل المسلمين جانبًا الآن، هم وجهلهم وما يعيشونه من أساطير وخرافات.

سنجد أن قيادات الطائفيين من الطرفين هم الأكثر انسجامًا عقليًا ونفسيًا مع الأدوار المكلفين بها ، أو التي اختاروها هم كوسائل للعيش برغد ورفاهية وحيازة نِعم الجنة في الدنيا قبل الآخرة، فحورية باليد خير من ألف حورية بالآخرة، وقصور في كل عواصم أوروبا إضافة لقصر في المنطقة الخضراء أو ما حولها خير ألف مرة من قصور معلقة بالسماء، و"موت يا حمار".

إن متابعة علاقات وسيرة الطائفتين، أو قيادات ورموز الطائفتين تعكس حالة انسجام كلي فيما بينهم، وئام وألفة في ظل نظام العراق الجديد، كل يعرف دوره تمامًا، يؤديه بأمانة، يفتعلون الخلافات البينية بين الحين والآخر لتكتمل اللعبة لتظهر بإخراج محكم، إن أهل هوليود هم الأقدر وأكثر خبرة بمثل هذه اللعبات، يحركونهم كل حسب ما يناط به من مهام في عملية تدمير العراق، دولة وأرض وشعب، كما سنأتي في مجرى الدراسة في الفصول التالية.

إلا أن هناك ملاحظات أولية، وأسئلة تظل تلح وتطغى على عقل المتابع، لا يحتاج الإنسان لدرجة عالية من الذكاء، أو مستوى مميز من الإدراك ليشخصها ، فهي من الوضوح بحيث تكشف عن نفسها كما هي الشمس في يوم من أيام الصحو الخالية من الغبار أو الغيوم.

إن متابعة مسار وسلوكية رموز الطائفية في العراق؛ تشير إلى أن لا دخل للولاء للمذاهب أو الدين والإسلام بتوجهاتهم، ولا علاقة لما يجري من أحداث ومذابح وصراعات ومهاترات يدفع ثمنها شباب هم بحكم الأحداث، مستلبة عقولهم، يبحثون عن الخلاص من مشكلاتهم النفسية والاقتصادية والوجودية في متاهات يرسمها لهم من يستغلهم من نخب أو جماعات محكومة بأهدافها الخاصة، أو بما مكلفة بها من أدوار عليها أدائها مقابل ما يتمتعون به من

امتيازات خاصة ما كانوا يحلمون بها، ولا يمتلكون أصلاً الكفاءة أو الخبرات التي يمكن أن توصلهم لما كسبوا من تجارتهم بالطائفية.

لا يتردد الإنسان بمواجهة ما يراه من سلوكيات المتنافخين بالطائفية من القول: قد لا يكون الأخوين النجيفي، أو صالح المطلق وغيرهم من ممثلي السُنَّة في التركيبة السياسية العراقية الحالية، يعرفون حتى وقت وقوع الاحتلال الأمريكي للعراق ما إذا كانوا هم سنة على مذهب أبو حنيفة النعمان، أو أحمد بن حنبل أو أنس بن مالك أو الشافعي؟! فتلك بالنسبة لهم كانت خرافات مضى عليها الزمن، وقد لا يعرف أحد منهم حتى بعد تموضعه للعب الدور الطائفي المناط به ما الفرق بين اجتهادات أهل الرأي وأهل الحديث، أو على ماذا اختلف الإمام أبو حنيفة النعمان مع أنس بن مالك أو أحمد بن حنبل وغيره من أئمة المذاهب الأخرى.

إنهم بلا مذاهب، بل حتى بدون دين، يتلمس الإنسان سلوكياتهم اليومية في مضيهم في الإعداد والتحريض للفتن والمجازر اليومية، والاعتماد في كسب معيشتهم على التحريض على قتل الآخرين من المسلمين، وموقفهم من أكل أموال السحت، أموال المسلمين من أبناء طوائفهم. فهم يكذبون وينكثون العهود والمواثيق حسب الظرف والمصلحة وما يستلمون من أوامر وتعليمات، الباحث عندهم عن مفاهيم مثل تقوى الله، والعمل على مرضاته، أو الخوف منه، أو أي مؤشر ذا دلالة على أنهم يحسبون للآخرة أي حساب، كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش بحجم أرض العراق.

لذلك نجدهم لا يتورعون عن اتهام حتى من ينتمي لمذهبهم بالطائفية أو الخروج على المذهب والدين ما دام يعترض على الاحتلال ويعلن رفضه له، أو يمكن أن يشكل تهديدًا لمواقعهم ومصالحهم، كما حصل للشيخ حارث الضاري، الذي اتهموه بالطائفية العمياء... دعا لنبذه حتى أشد زعماء الطائفة تطرفًا وترويجًا للفرقة، عدنان الدليمي بكل توجهاته الطائفية المريضة التي تتحول من شدتها

إلى حركات ارتعاشية تهز رأسه وبدنه بقوة، إلا أن عدنان الدليمي، وأولاد النجيفي ومن على شاكلته لا يتورعون عن خدمة الاحتلال مقابل بعض الامتيازات التي يقدمها لهم المُحتل، كل ذلك طلبًا لمرضاة الله وتقوى من غضبه.. لم يترددوا في تركيب القصص ودبلجة الاتهامات بالطائفية والإرهاب للشيخ حارث الضاري الذي لم يُخفي رفضه قولاً وعملاً لقبول الاحتلال.

ومن قبله تعرض لنفس الاتهامات الشيخ أحمد الكبيسي لأنه كان يقود التظاهرات الضخمة من جامع أبو حنيفة في الأعظمية خلال الأسابيع الأولى من الاحتلال، رافعة لشعار (وحدة – وحدة وطنية – لا شيعية ولا سنية)، فتلك الوحدة التي يطالب بها تهدد مشروع شارون – ايتان بالفشل، وتحبط الجهود الكبيرة التي قدمتها إدارة اليمين المسيحي في عهد بوش الأب، وبوش الابن لتدمير العراق وتقسيمه.

لا ينطبق القول على الحزب الإسلامي الذي قام أصلاً على أساس وجهة نظر سنية أو إسلامية للحكم، تستند لفقه واجتهادات الإمام أبو حنيفة، بعيدًا عن أي توجهات طائفية تعصبية، حتى إن الحزب كان قد قدم طلب إجازة ترخيصه للعمل العلني عام ١٩٦٠ باسم المرجع الشيعي في حينها محسن الحكيم، لذلك نجده أقل ضجيجًا وصراخًا طائفيًا من الآخرين دون أن يعني هذا غياب التوجهات الطائفية كليًا من مواقف قياداته، لكنها تظل أقل حدة وقوة... كما سيأتي الحديث في حينه حول الحزب[١].

١- إن الكراس المطبوع بشكل ملف الذي نشره أحد كوادر الحزب الإسلامي، باسم إبراهيم الأعظمي تحت عنوان "الحزب الإسلامي، تاريخ عز" ؛ يكشف عن محطات كثيرة من تعاون الحزب ودعمه لنشاطات مشتركة مع مراجع شيعية، كما يكشف عن توجهات إسلامية لا طائفية، تجسدت بالعمل المشترك بين الشيخ محمد الخالصي، والشيخ عبد العزيز الدوري في عهد حكم عبد الكريم قاسم، كواحدة من محطات التقارب الشيعي – السني، عندما يكون الإسلام مهددًا من قبل قوى علمانية أو لا دينية، تحرك الحزب لتنظيم نشاطات مختلفة للضغط على عبد الكريم قاسم لرفع الحجز عليهما.

عند النظر بالاتجاه الآخر المقابل الذي لا يمكن أن تكتمل خطة تدمير العراق وتنفيذ المشروع الصهيوني المعروف بمشروع شارون – ايتان أو ما عُرفَ ب (استراتيجية إسرائيل لثمانينات وتسعينات القرن العشرين)، إلا به.

لا يتورع الإنسان عندها عن القول بإن بعض المعممين في الجانب الشيعي هم أبعد الناس عن التشيع، فقهًا أو تأسيًا بسيرة أئمتهم، وخُلق وقيم الإمام علي الذي يتشدقون ويتظاهرون بأنهم الأكثر تمسكًا بسيرته ومواقفه، وأحقيته بالحكم، إذا كان عمار الحكيم يلعب بمهارة الدور الشعوبي المرسوم له، فذاك يُحسب بحكم الوفاء لآبائه وجده من قبله، فالشعوبية مهنتهم ومصدر كل النعيم الذي يعيشه وعاشه آباؤه من قبله، وعلاقة العائلة بأمريكا تعود لعام ١٩٦١، عندما زار السفير الأمريكي في العراق محسن الحكيم ليشكره على فتواه ضد الشيوعية[١].

يعتقد الدكتور هيثم الناهي أن ارتباط باقر الحكيم بالأمريكان بدأ منذ ذلك الوقت، فلم ينسَ جورج بوش الأب تلك الخدمة التي قدمها محسن الحكيم للأمريكان في نزاعهم على مصالحهم في العراق مع الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة، فيصرح علانية بعد العدوان على العراق عام ١٩٩١، في كلمة له في جامعة جورج واشنطن: "عندما أردنا محاربة الشيوعية في الشرق العربي، استنجدنا بأصدقائنا من علماء الشيعة"[٢].

١- سبق أن نشر على الإنترنت مجموعة من المقالات حول انحراف آل الحكيم عن فقه آل البيت، تم نشرها على عشرات المواقع.. موضحًا فيها كيفية استخدامهم للطائفية كتجارة ووسيلة للعيش وكسب الأموال وبقية ملذات الدنيا، لعل أهم تلك المقالات هو المقالة المعنونة "آل الحكيم: شعوبية، وانحطاط أخلاقي وانحراف عن فقه آل البيت"، يمكن الإطلاع عليه على الرابط التالي: http://daroussia.com حول زيارة السفير الأميركي لمحسن الحكيم بعد نشر فتواه ضد الشيوعية، راجع: عادل رؤوف، أنبياء وأصنام، دمشق: المركز العراقي للإعلام والدراسات، ٢٠٠٩، ط٢، ص: ١٥٢.

٢- د.هيثم الناهي، خيانة النص، لندن: الدار الأندلسية، ٢٠٠٢، ص: ٣١٠.

لا أحد مثلاً يمكن أن يقول لنا ولو باسم واحد من عائلة عمار حتى جده الثاني مهدي عطار الأعشاب، والد محسن الطبطبائي الأصفهاني (هكذا كنا نرى لقبه كما يكتب تحت صوره في نهايات الخمسينات وحتى بداية الستينات من القرن الماضي، قبل أن يتحول للحكيم فقط)، اجتهد محسن الطبطبائي الأصفهاني على ما يبدو حسب فقه آل البيت بأن بيع الأعشاب الطبية هي جزء من الحكمة أو الحكامة، فأطلق اللقب على أبيه ونفسه، باستثناء الجد مهدي عطار الأعشاب، لم نسمع يومًا أن أحد من آل الحكيم اشتغل يومًا بمهنة أو حرفة عاملاً، تاجرًا، مقاولاً، مزارعًا، نجارًا مثلاً، حتى يرث عمار كل هذه الأموال التي يبني بها قاعة بكلفة تتجاوز عشرات الملايين، مزخرفة بأزهى ألوان الزخرفة العربية، كمقر يلتقي به مع زواره وتابعيه من شيعة علي بن أبي طالب، ويحدثهم عن زهد الإمام علي وعدله وكيف أنه مات وهو الخليفة لا يملك غير ٧٠٠ درهم كان قد وفرها ليشتري بها خادمًا[١]، يبدو أن غاية عمار من هذا البذخ في قاعاته وقصوره يريد بها تذكير من يأتيه من الزوار المارّين بطريقهم بالكوفة لزيارة بيت الإمام علي، ليتعرفوا بذلك على مظلومية الإمام علي الذي قضى فترة خلافته بذلك البيت البسيط.

إن من المفارقات أو الطرائف والنِكات المثيرة للضحك والأسى، النكتة التي يغيبونها عن العقل الشيعي المستلب ويبعده عن تذكرها، مع أنها ليست بعيدة العهد، ما لم ينتبه له الكثير أن عمار حفيد محسن الحكيم هذا الذي ينصب نفسه أو نصبه راسمي اللعبة الطائفية واحدًا من ممثلي شيعة العراق، كل بضاعته أنه حفيد محسن الحكيم، فهو لم يقدم للعراق أو شيعته يومًا أي خدمة أو حتى بحث أو دراسة في فقه آل البيت، حتى خدمته العسكرية الإلزامية قضاها في الجيش الإيراني باعتباره مواطن إيراني الجنسية والأصل، إن الوقائع تكشف أنه هو وأبوه عزيز كانوا من أوائل من تمردوا على اجتهادات محسن الحكيم الفقهية

١- طه حسين، الفتنة الكبرى: عثمان، القاهرة: دار المعارف، ط١٢، بدون تاريخ، ص: ١٥٤.

الذي كان قد أفتى بتحريم الصلاة في الأراضي التي قدمها الإصلاح الزراعي للفلاحين عام ١٩٥٩ ، باعتبارها أراضي مغتصبة تبطل أو لا تجوز شرعًا الصلاة فيها... وعزيز ومن بعده ابنه يعيشان منذ بدايات الاحتلال في بيوت وأراضي مغصوبة، أي تبطل الصلاة فيها ولا تقبل وفقًا لاجتهادات وفتاوى الجد محسن الحكيم، ما يعني أن الأب عزيز الحكيم وابنه لا يصليان أصلاً إلا نفاقًا.

سبق أن كتبت عن القضية في موضوعات ما زالت موجودة على الإنترنت في جوجل... أُشيع بعد أن كتبت ذلك بأسابيع قليلة أن عمار أرسل تعويضًا لعائلة طارق عزيز عن دارهم التي اغتصبها، إذا افترضنا أن عائلة طارق عزيز قد تقبلت هذا التعويض مجبرة، لا ينفي هذا صفة الاغتصاب، يبقى السؤال قائمًا بنفس المعنى عن الدور المجاورة الأخرى، وعن شرعية الصلاة في القاعة التي شيدها، حتى إذا افترضنا أنها أراضي حكومية أو مجهولة المالك، أين هي الحكومة الشرعية التي تمتلك الحق الشرعي بمنح عمار هذه الأراضي، إضافة للأملاك الحكومية المهدمة في مركز مدينة النجف، (بناية المحافظة، مديرية المرور الملعب الرياضي) التي اشتراها بسعر ١٠٠٠ دينار للمتر (كان الدولار وقتها يساوي أكثر من ٢٥٠٠ دينار) مع أن المتر حتى في ذلك الوقت لا تقل قيمته عن الألف دولار.

لم ينفرد محسن الحكيم بتحريم الصلاة أو بطلانها في أرض مغتصبة؛ بل يشاركه بذلك كل فقهاء الشيعة الآخرين.. يتفق كل فقهاء الشيعة ببطلان وعدم جواز الصلاة على أرض مغصوبة، أو أرض الغير دون أخذ موافقة أصحاب الأرض، بما فيهم خامنئي نفسه ولي أمر أبناء الحكيم ومرجعهم الأول[١]، يذهب السيد محمد باقر الصدر إلى مدى أبعد من ذلك "إذا كان المكان مشتركًا بين

١- السيد علي الحسيني الخامنئي، أجوبة الاستفتاءات، بيروت: دار الحق، ١٩٩٥، ص:١١٤.

شخصين، فلا يسوغ لأحدهما أن يتصرف فيه بدون إذن شريكه، ولو صلى وسجد عليه بدون إِذن كانت صلاته باطلة".[1]

ما يعني وبإجماع مجتهدي الشيعة وفقهائهم أن عزيز الحكيم وابنه عمار وكل عائلتهم، لا يؤدون الصلوات الخمسة المفروضة إلا نفاق وتظاهر كاذب أمام الناس، لعنة الله على المنافقين.

لا يختص هذا الحكم بعمار الحكيم وحده، بل ينطبق على كل سكان المنطقة الخضراء... وقبل عام أو أكثر قليلاً رأيت شريط فيديو لخطبة إمام صلاة الجماعة التابع لآل الحكيم، صدر الدين القبانجي يقول فيها إن باقر الحكيم جاءه بالحلم يشتكي له من ضيق قبره ويتوسل بشيعة آل البيت أن النجدة بتوسيع القبر.

ما يتذكره الإنسان أن التفجير الذي تعرض له باقر الحكيم كان من القوة بحيث لم يعثروا على أي أثر لجثته غير إصبع واحد قالوا إنهم وجدوه، بنوا للإصبع قبرًا على مساحة تمتد لآلاف الأمتار، على بعض أرض الملعب الرياضي لمدينة النجف الذي ادعى عمار أنه اشتراه، إضافة للضريح هناك قاعات كبيرة ودور ضيافة، كل تلك البنايات ضاقت بالإصبع فيطلب باقر الحكيم توسيع قبره. لا شك أنها لعبة جديدة للاستيلاء على مباني أو أراضي مجاورة للملعب، بالمناسبة إن الصلاة في القبر والبنايات المحيطة فيه باطلة، فتلك أرض ملك عام اغتصبها عمار من أموال المسلمين بعقود مزورة.

مات الإمام علي وكل تركته كما قال الحسن كانت ٧٠٠ درهم، ويفترض بمن يدعي أنه يمثل فقه علي واجتهاداته، أن يكون عارفًا أن الإمام علي "حدد مبلغًا

١- محمد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة وفقًا لفتاوى آل البيت، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ط ٨,١٩٨٦.

معيناً هو أربعة آلاف درهم ليكون احتياطًا لدى الفرد يأمن خطر الحاجة، ما عدا ذلك فهو كنز محرم يؤدي إلى البطر والطغيان"[1].

هل يمكن، وإلى أي مدى يمكن أن نصدق أن عمار الحكيم ممثل شيعة علي، هو شيعي فعلاً، يتأسى بأخلاق وفضائل الإمام علي، ويلتزم باجتهاداته وسلوكه؟! من يدرينا كم من يهود إيران ومجوسيها اندسوا علينا تحت غطاء المجيء للدراسة الدينية في النجف، مع أن بلدهم إيران لا تقل أهمية علمية عن النجف، فلماذا هذا الإصرار على المجيء والاستقرار في النجف؟!

الظاهرة السلوكية الغريبة في توجهات واجتهادات عمار الحكيم ممثل الشيعة في العراق، يبدو أنه اجتهد وفقًا لفقه آل البيت في زمن العولمة والاحتلال، أن يكون نصف حضور مؤتمراته، لقاءاته وما شابهها من نشاطات؛ هم من النساء... لا أحد يدري بمن تأسى عمار لسنّ هذه البدعة، إن من تمتنع عن حضور هذه المراسيم العلوية – الحسينية، من المؤكد سيُقطع عنها أو عن ولي أمرها المعونات والمساعدات والحماية التي يقدمها مجلس عمار لهم، وستتهم وولي أمرها بالخروج عن خط آل البيت، ولربما بالردة والكفر.

لنكن واقعيين، وبصراحة كعراقيين نعرف جيدًا أن مثل هذه التجمعات يمكن أن تكون غطاء للمفاسد والهروب من رقابة الأهل عند بعض النساء غير الملتزمات، ومناسبة للقاء مع الحبيب بعد انفضاض اللقاء، لا يُفهم من إصرار عمار على هذه البدعة غير توجهات شعوبية للمساهمة في إفساد المرأة الشيعية من عرب العراق وتخريبها، ودعم تمردها على ولي أمرها، أي تخريب بنية وتماسك العائلة العربية العراقية.

عند متابعة سلوكيات قائد الجناح الآخر في قيادة الطائفة، والأكثر اعتدالاً، جناح الصدر؛ فإن سلوكية قائد التيار الصدري مقتدى، هو الآخر تُظهر بأنه

١- الدكتور علي الوردي، وعاظ السلاطين، لندن: دار كوفان، ١٩٨٣.

أكثر الناس بُعدًا عن سيرة ومواقف أبيه محمد صادق الصدر ، نعم هو نفسه مقتدى الصدر قائد التيار الصدري الذي لم يقدم يومًا خدمة مميزة للطائفة، أو يكتب رأيًا ما يميزه عن بقية رجال الدين ، كل بضاعته هو كونه ابن محمد صادق الصدر ، إن متابعة مسيرة مقتدى مقارنة باجتهادات أبيه وسلوكياته تظهر أن أكثر الناس انحرافًا عن اجتهادات صادق الصدر هو ابنه مقتدى الصدر.

كان مقتدى قد بلغ سن الخامسة والعشرين عند مقتل أبيه، في عز سن الرشد، ما يفترض أنه يتذكر جيدًا أن الصراعات العلنية المريرة بين أبيه وعائلتي الحكيم والخوئي كانت بسبب رفض السيد محمد صادق الصدر لفكرة أن يرث أبناء المراجع أموال المرجعية وممتلكاتها ونفوذها[1]، والسؤال لمقتدى: بأي حق له وفقًا لاجتهادات أبيه أن يدعي لنفسه ما كان يرفضه أبوه ويستنكره من أبناء غيره من المجتهدين ، فبأي حق يموضع مقتدى نفسه بمكان أبيه وهو يجحد بالوقت نفسه اجتهاداته.

في عرض على اليوتيوب لموكب مقتدى الصدر حاولت أن أحسب عدد السيارات المرافقة لموكبه؛ وصل العدد لعشرين سيارة مصفحة، رباعية الدفع لا تقل كلفة إحداها عن ٢٠٠ ألف دولار ، يتبعها أجور ورواتب الحراسات، وكل سيارة تنقل أربعة أشخاص، إضافة إلى كلفة الصيانة والوقود، ما يعني أن الموكب الواحد يكلف مئات الآلاف من الدولارات.

إلى حد ٣ أو ٤ سنوات خلت استلمت صورًا لمدارس في قرى العمارة (وهي قرى شيعية) مبنية من الطين والبردي، لا تتوفر فيها أماكن للحمامات، أو أي من وسائل التدفئة أو التبريد، في بعضها لا يتوفر العدد الكافي من الكراسي ما

١- حول صراعات السيد محمد صادق الصدر مع أولاد المراجع السابقين لاحظ: عباس الزيدي المياحي، السفير الخامس، بيروت: ممثلية المرجع الشهيد السيد محمد الصدر، ٢٠٠١، خاصة ص:٧٧-١١٠.

يضطر غالبية الطلاب للجلوس على الأرض، في حين أن بناء مدرسة عصرية قد لا يكلف أكثر من نصف ثمن أو الكلفة الشهرية لإدامة سيارة واحدة من السيارات المرافقة لموكب مقتدى ونفقات ركابها من المرافقين والسائقين، مقتدى أحد زعماء الطائفة الشيعية الذي جاء ليرفع عن الشيعة مظلوميتهم، كم مدرسة أو مستشفى أو بيت لواحد من فقراء الشيعة، أسس أو شيد بما عنده من أموال المرجعية؟.

لم تتوقف أو تنقطع أخبار القصور التي يشيدها أتباعه ممن نعرفهم ويعرفهم الناس أنهم كانوا بالكاد يتدبرون معيشتهم، ومن كان منهم يعيش في بلدان اللجوء كان يعتمد في عيشه على المساعدات الاجتماعية التي تقدمها البلديات للفقراء والعاطلين عن العمل، وتلك المساعدات الأخرى التي تُقدم للمختلين عقليًا، فأغلبهم كان يدعي أنه مصاب بكآبة حادة تعيقه عن التعايش مع الواقع والمجتمع، باسم محمد صادق الصدر ومقتدى الصدر تحولوا في ليلة وضحاها إلى أثرياء من أصحاب المليارات.

مرة في شهر كانون الثاني أو شباط ٢٠١١، كنت أُعاني من أنفلونزا وحمى مرتفعة شديدة (للأسف) ومع ذلك كنت مضطرًا لمراجعة فرع بنك باركليز في منطقة ايلنك برود وي في لندن، وقفت أنتظر بالدور مشغولاً بالسيلانات التي تنزل من أنفي، كان أمامي شخص بحقيبة كبيرة، فهمت أن فيها ٦٥٠ ألف باون، يريد صاحبها أن يودعها بحسابه، وتجادل مع الموظفة التي امتنعت عن قبولها لأنه لا يمتلك شهادة تثبت مصدرها... عندما همَّ بالانصراف تعرفت عليه، وأعرف جيدًا أنه ممن كان يعيش على صدقات البلدية، وهو أيضًا يعرفني، حاول الهروب بعد أن انتبه لوجودي، إلا أني تعمدت التنازل عن دوري لمن هو بعدي، وقلت له أريد أن أراه وأني فقدت رقمه موبايله الخاص، فكتبه لي، لأكتشف فيما بعد أنه رقم وهمي... إنه واحد من قيادات التيار

الصدري الذي انتقل بقدرة قادر من عاجز غير مؤهل للعمل في بريطانيا إلى وزير.

إن مبلغ ٦٥٠ ألف باون، حتى بحسابات مستويات المعيشة في بريطانيا مبلغ كبير، يمكن أن يحصل به الإنسان على بيتين بثلاث غرف في المناطق الشعبية في لندن، صاحبها كان أحد رموز التيار الصدري وقياداته الأكثر تشددًا وتباهيًا بالطائفية، وتظاهرًا بالحرص على حقوق الطائفة.. الحديث طويل عن هذين التيارين الرئيسين في تجمعات الطرف الشيعي.

إذا كان حزب الدعوة يتصرف متأثرًا بردات الفعل تجاه ما تعرض له من قمع خلال عهد البعث، تحكمه شروط المنافسة مع تياري الحكيم والصدر على قيادة الطائفة بعد الاحتلال، فإنه لو كان قد تخلص من ردات الفعل وشروط المنافسة هذه، يمكن أن يكون أبعد الأطراف عن اللعبة الطائفية، كان هذا الاتجاه واضحًا في مسيرة الحزب من خلال ما كان يروج له من وجود واحد أو أكثر من الشخصيات السُنّية في قيادته، سواء كانت هذه الرواية التي يشيعها الحزب تمثل واقع الحال فعلاً، أو هي مجرد محاولة ليثبت بها ابتعاده عن لعبة الطائفية.

لعل "بيان التفاهم" الذي أصدره الحزب في بداية ثمانينات القرن الماضي يعكس استعداده للتعايش في دولة ديمقراطية حقيقة مع الآخرين متدينين أو علمانيين[١]، كما أن حضوره للقاءات الإسلاميين والقوميين في سوريا كان مؤشرًا آخر على استعداده لتهدئة اللعبة الطائفية، إلا أن بعض قياداته أدركت على ما يبدو ضرورة المساهمة باللعبة لتحصل على قطعة من الكعكة العراقية، فراحت

١- وزع حزب الدعوة عام ١٩٨٢ أو١٩٨٣، كراس ب٥٨ صفحة من الحجم الصغير بعنوان: بيان التفاهم الصادر من حزب الدعوة الإسلامية إلى الأمة في العراق، منشورات حزب الدعوة الإسلامية – الإعلام المركزي، بلا تاريخ. توجه البيان بالنداء لكافة القوى الشيوعية والقومية والليبرالية، ومختلف الأديان والطوائف للتعاون في عمل جبهوي لإسقاط نظام البعث، تلك كانت المبادرة الأولى للحزب لينفتح على غيره من القوى الأخرى.

تندفع باللعبة وتتسابق مع الآخرين في تمريرها على أبناء الطائفة المستلبة عقولهم وإراداتهم.

ليس تبرئة للمالكي، يكفيه إدانة أنه شارك بقوة في العملية السياسية التي فرضها الاحتلال على العراق، الموقف المرفوض أخلاقيًا ودينيًا ووطنيًا.. لكن ما سنذكر هو في مجرى متابعة اللعبة الطائفية، وتوجهاتها.. لم تثر تلك الضجة أو الحملة عليه في السنة الأخيرة من حكمه لأنه فعلاً كان طائفيًا، فتلك تهمة لا ينفيها هو، ولا الأمر الواقع الذي أوصله لسدة رئاسة الوزارة، هو لم يأتِ كممثل لتيار قومي، أو يساري، أو ليبرالي، هو وصل إلى منصب رئيس الوزراء ممثلاً لشيعة العراق، أين التهمة، أين التهمة إذًا؟!، وأغلب من اتهموه أو غمزوا لاتهامه بالطائفية هما جماعة عمار وجماعة مقتدى! هما لا يمثلان حزبًا أو توجهًا قوميًا أو يساريًا أو ليبراليًا؛ بل هما يحتلان مراكزهما كممثلين للطائفة الشيعية، فهل هما بريئان من الطائفية التي عابوها على المالكي؟!.

يُفهم من مراقبة سلوك المالكي، أنه أراد أن يلعب لعبة الرجل القوي، يحرر قراره من ضغوطات مراكز القوى الشيعية في الداخل، ويتمرد على النفوذ الإيراني، والهيمنة الأمريكية، يبدو أنه قصر في العطاءات لمراكز القوى هذه، فأشاعوا عنه الاتهامات بالطائفية والفساد، وكأن الآخرين كانوا حمامات سلام بريئة من أكل أموال السحت وسرقة الأموال العامة.

إن الحديث لا يكتمل عن فوضى المفاهيم الطائفية التي غابت أو تغيبت بضباب الصراعات والتنافس على مفاتن الدنيا بين تجار الفتنة الطائفية، دون التطرق أو التذكير بدور السستاني، ومرجعيته المصنعة في دوائر المخابرات الغربية، لا أريد أن أكرر هنا ما كنت قد كتبته في حزيران ٢٠٠٦ ونُشر بحلقات في جريدة القدس من كتاب امتنعت بعض دور النشر عن طبعه، كان الجزء الأول منه بعنوان "المرجعية الشيعية والسياسة في العراق"، والجزء الثاني بعنوان "مرجعية السستاني والاحتلال: قراءة وطنية في مذكرات بريمر".

لكن ما نريد التذكير به هنا أن السستاني زعيم الطائفة الشيعية، كان وما يزال أبعد الناس عن التعصب لمذهب آل البيت، بل هو نموذج للانحراف عنه، هو أولاً لم يصل لمرتبة المجتهد بعلمه أو فقهه، وما يشترطه فقهاء الشيعة من إلزامية أن يقدم المجتهد أو يكتب رسالة يسمونها "الرسالة العلمية" وأن يقر بعلميتها اثنان من المجتهدين السابقين،[1] ليكون مجتهدًا، أما المرجعية فتعني أن يكون المرجع هو أعلم المجتهدين الموجودين في الساحة، المعروف أن السستاني أخذ رسالة أبو القاسم الخوئي وقال إنه يؤيد كل ما جاء فيها بعد أن أجرى عليها تعديل واحد مهم؛ وهو إسقاط فريضة الجهاد من بين الفرائض التي يقول بها كل من سبقه من مجتهدي ومراجع الشيعة، الذين يقسمون الاجتهاد إلى نوعين:

الأول: جهاد بدائي: أي أن يقوم المسلمين بغزو أراضي أو بلدان غير المسلمين بهدف نشر الإسلام هناك، وعندهم أنه لا يجوز إلا تحت راية إمام معصوم، أي أنه غير جائز بغيبة الإمام الثاني عشر أو المهدي المنتظر.

الثاني: جهاد دفاعي: أي مقاومة أي غزو أجنبي لقوات غير المسلمين لبلاد أو أراضي إسلامية، على هذا الأساس نظم علماء الشيعة ومجتهديهم ما عرف بحركة الجهاد أو المجاهدين للدفاع عن الدولة العثمانية التي كانت تضطهد الشيعة عند وصول القوات البريطانية للبصرة إبان الحرب العالمية الأولى، وعلى نفس المبدأ أفتوا بوجوب التطوع للذهاب إلى ليبيا لمقاومة الاحتلال الإيطالي لها في أيلول ١٩١١.[2] نفس المبدأ أو القاعدة الفقهية تنطبق على الاحتلال الأمريكي للعراق؛ كونه يلزم كل مسلم ومسلمة بالجهاد الدفاعي، إلا أن السستاني تصرَّف تصرُف الأخرس، الأطرش، الذي لا يفقه شيئًا، بل راح

١- حول شروط الاجتهاد والرسالة العلمية للمجتهد عند الشيعة، راجع: محمد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ١٩٨٣، ص: ٨٧-٩٩.

٢- الدكتور علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٣، لندن: دار كوفان، ١٩٩٢، ص:١٨٨.

يدعم الاحتلال، ويفتي بما يقوله بريمر. عندما اشتكى بريمر من الفدائيين أو المتطوعين أو الإرهابيين الذين يأتون من البلدان العربية المجاورة، وخصص سوريا من بينها؛ أفتى السستاني باليوم التالي بضرورة الحرص على حماية الحدود من المخربين الذين يأتون من البلدان المجاورة، وعندما كان العراقيون يشتكون من انقطاع الكهرباء؛ أفتى السستاني موصيًا بضرورة الاعتدال باستخدام الكهرباء غير الموجودة أصلاً.

عندما طرحت موضوع الانتخابات وثار الجدل حول توقيتها، طالب السستاني كوفي عنان والأمم المتحدة (وليس الإمام المهدي الذي يُشيع أتباع السستاني أنه كان يجتمع به دوريًا) بضرورة إعطاء الرأي والإشراف على الانتخابات وتحديد ميعادها، وكما ذكرت في أعلاه كنت قد كتبت بالتفصيل في حينها عن الخدمات الجليلة التي قدمها السستاني للاحتلال، باسم الولاء لآل البيت، يبدو أن جلالة هذه الخدمات تشابه تلك الخدمات الجليلة التي قدمتها السعودية للعراق ما ألزم عزة الدوري أن يشكرها عليها في أول خطاب له بعد ظهوره من غيبته الصغرى طيلة فترة التواجد الفعلي المكثف للقوات الأمريكية في العراق، وحتى إعلان انسحابها منه.

أولئك هم رموز وقادة الطائفية في العراق اليوم، لا هَمَّ لهم ولا علاقة باختلاف الخلفاء الراشدين حول الأحقية بالخلافة، كما لا علاقة لهم بفقه أبو حنيفة أو الإمام الصادق، هم طائفيون متشددون بحماس لمصالحهم الشخصية، تحكمهم النرجسية المريضة بأنا مضخمة، التي لن تتحقق نزعاتها المريضة على ما يبدو إلا بأن يُقتل عرب العراق وتدمر بلادهم، فهم شعوبيون لا دين لهم ولا مذهب، يفتقدون لأي حس وطني أو عاطفة أخلاقية أو إنسانية، حتى حيال الطوائف التي يدعون أنهم يتنافسون ويتصارعون على سرقة الأموال العامة دفاعًا عنها، شعوبية سُنّة وشيعة لا همَّ لهم ولا دين ولا طائفة إلا أن يُقتل العرب.

- **خلاصة القول:**

يعيش العراق أزمة حقيقية ، ويعاني من مشكلات عدة اقتصادية ، سياسية ، وحتى تربوية أخلاقية، ونحن نعيش في معمعة أحاديث وشعارات أكل الدهر عليها وشرب، يحاصرنا بها الطائفيين، هذا يقول قال علي، وقال المهدي، قال أبي، وذاك لا يتوقف عن أن يردد: قال أبو هريرة، وكان عمر، لكن لا أبو هريرة ولا أباه قدم لنا حلاً لأزمة الكهرباء والماء التي يعاني منه العراقي منذ أكثر من ١٤ عام.

حالة غياب حقيقية لأي برامج سياسية، اقتصادية أو أي تصور لأي حلول أو برامج عقلانية يمكن أن تحقق للإنسان العراقي مستوى مقبول من العيش الآمن ، ويوفر له حاجاته الأساسية بدون هرولة وركض يومي بحثًا عن متطلبات العيش اليومية الأساسية، علينا أن ندفع ثمن صراعات أو عداوات آل الحكيم مع آل الصدر ، وعراك ممثلي الشيعة مع ممثلي السُنَّة على مقاعد البرلمان ، وتسابقهم على نهب ثروات البلد وخيراته لينعموا بها هم وأولادهم بقصور ، ومعامل وشركات في أوروبا أو تركيا والإمارات المتحدة، وعلى المواطن أن ينتظر سعادة ولذات الدنيا الآخرة من حور عين، قيل إنها سبعين، وكل واحدة عندها من الوصيفات سبعين، ونومة الليلة الواحدة مع كل واحدة، تعادل سبعين سنة من تقديرات زمن الدنيا الفانية.

يفتعلون المشكلات ، أو هم يصارعون بعضهم على الحصص المنهوبة من أموال الدولة، ويتهم بعضهم بعض بأنه السبب في ما هو حاصل من أزمات، فلو أقر هذا بحق آل البيت بالحكم، أو لو رضي الآخر بقبول الصحابة بالحكم، وسمع أقوال أبو هريرة، لما حصل الذي حصل.

لا يحتاج هذا المواطن المُستلبة إنسانيته غير العودة للقرآن ليجد كل الحلول لمعاناته، فهو كتاب الله الحاوي على كل شيء، وكل ما يصلح لكل العصور ، لكن مشكلة المواطن المسكين أنه ابتعد عن الشريعة وظل يركض وراء ملذات

الدنيا الزائلة، رغيف خبز، وطبقة بيض، وكيس بطاطا، والله لا يغير ما بقوم ما لم يغيروا ما بأنفسهم، وإلا فسيسلط عليهم من لا يرحم من شرهم.

يسأل المواطن المسكين:

- من هم هؤلاء الأشرار؟!

الجواب المفحم جاهز عند نخب النهب والسلب والسرقة، سيرد:

- إنه الآخر! اذبحه حتى تنعم برضى الله في الدنيا والآخرة!

الفصل الثاني

معضلات التعريف

اختلاطات الفقاهة والتمذهب، وإشكالية الطائفية

سنتعامل مع الطائفية في هذا البحث على أساس التعريف الإجرائي الأولي التالي: هي: (اتجاه أو ميل و تفضيل عند أبناء المذهب الواحد لاجتهادات وفقه واحد من أئمة المذاهب الخمسة، بعد أن تشكلت كل منها في إطار مذهبي مستقل، يختلف في بعض تفسيراته عما عند الأطر المذهبية الأخرى، يتكون هذا الاتجاه في جوهره من شحنات عاطفية قوية ترتبط بوجود الإنسان وموقفه من الحياة والموت، علاقته بعائلته وبالآخرين، يتخذ هذا الميل درجات من حالة العزلة والنفور من الآخر، تتصاعد أحيانًا، وفقًا للظروف والأوضاع السياسية والاقتصادية، إلى حد الكراهية والاحتراب).

هذا يعني أن الطائفية هي نموذج من الاتجاهات النفسية التعصبية، تتخذ كل سمات الاتجاه من حيث تكونها ونشأتها وقوة تأثيرها على السلوك حيال الذات والآخرين، يمكن تعريف الاتجاه النفسي عمومًا بأنه "ميل عام مكتسب نسبي في ثبوته، عاطفي في أعماقه، يؤثر في الدوافع النوعية ويوجه سلوك أفراد"[١] يعرفه عالم النفس الاجتماعي البورت بأنه "حالة من الاستعداد أو التهيؤ النفسي، تنتظم من خلال خبرة الشخص، يمارس تأثيرًا توجيهيًا وديناميًا على استجابات الفرد حيال الموضوعات والمواقف المرتبطة بهذه الاستجابات".[٢]

١- د. مختار حمزة، أسس علم النفس الاجتماعي، جدة: دار البيان العربي، ط٢، ١٩٨٢، ص.٤٤.

٢- د. معتز سيد عبد الله، الاتجاهات التعصبية، الكويت: عالم الثقافة العدد ١٣٧، ١٩٨٩، ص. ٤٥. لعل دراسة د. معتز هذه هي أفضل ما نُشر باللغة العربية من الدراسات التي عالجت موضوعات الاتجاهات التعصبية.

ليس المقصود بالخبرة في تعريف البورت، تلك الخبرات الحياتية الخاصة للفرد في مهنة أو عمل ما، بل ما يكتسبه الفرد من خبرات تربوية من عائلته والبيئة التي يعيش بها من خلال تفاعلاته الشخصية المستقلة بالواقع من حوله، أي أنها خبرات مكتسبة تتشكل كمفاهيم أو عوامل مؤثرة في تركيبته السيكولوجية، تنمو وتتعزز مع الطفل في مراحل النمو.

إن مادة هذا الاتجاه الطائفي الأساسية أو جوهره، هي مجموعة من الأفكار النمطية، والأحكام المسبقة التي تتشكل في الغالب بتأثيرات البيئة التي يعيشها الفرد[١]، ظلت العائلة في الوطن العربي حتى عهود قريبة قبل شيوع التلفزيون ووسائل الإعلام والاتصال الحديثة هي المصدر الأول لخبرات الطفل الأولية ومفاهيمه نحو موضوعات الحياة والآخرين، التي لا تتوقف حتى بعد بلوغه سن النضج بل تستمر في جميع مراحل نموه المتعددة، يشارك الجامع بفعالية في القرى والحارات أو المناطق المغلقة في المدن، في تشكيل مفاهيم الفرد ومعتقداته، أو ما يُعرف بالأفكار النمطية، كانت غالبية مجتمعاتنا العربية، مجتمعات ساكنة يغلب عليها تباطؤ الحراك الاجتماعي الأفقي والعمودي.

بعد توسع الحراك الأفقي بشكله المشوه الذي حصل فيه في سبعينات القرن الماضي وقبلها بقليل، بانتشار الهجرة من القرية إلى المدينة، اصطدم غالبية المهاجرين بمجموعة من الإحباطات ناتجة من التغيرات التي يتعرض لها الإنسان عادة بفعل تغير البيئات أو الفروق الكبيرة بين بيئة القرية والمدينة الصغيرة والعواصم أو المدن الكبرى، أو نتيجة لحجم المسافة الواسعة بين الطموحات والأحلام التي يحملها، أو حملها الفرد معه عند الهجرة وما تحقق

١- حول مفهوم الأفكار النمطية المسبقة وعلاقتها بالاتجاهات التعصبية لاحظ: المصدر السابق، ص٥٨- ٦٤ حول كيفية تشكل الصور النمطية وأثرها بالسلوك، لاحظ بالعربية: مجموعة من علماء النفس، علم النفس الاجتماعي وقضايا الإعلام والدعاية، ترجمة نزار عيون السود، دمشق: دار دمشق، ١٩٧٨، خاصة الفصل المعنون (الطبيعة الموضوعية للأنماط المقولبة واستخدامها في الدعاية الإمبريالية) ص:١١١-١٣٣.

منها فعلاً في بيئته الجديدة، كلما توسعت المسافة بين ما كان يطمح به الإنسان ويتمناه وبين ما يحققه فعلاً في الواقع؛ ازداد وتعمق الشعور بما يُعرف عند المختصين بعلم النفس بالحرمان النسبي[١]، يواجه الإنسان هذه الإحباطات وانعكاسات الحرمان النسبي للتخلص من ضغوطاتها الانفعالية عادة باستجابات مختلفة، منها التدين، اللجوء للسحر والخرافات، اللجوء إلى أحلام اليقظة والعزلة أو الانسحاب السيكولوجي، اللامبالاة والتحلل من القيم والعادات، وقلة أولئك الذين يواجهون مشكلاتهم بشكل عقلاني لينطلقوا أو يخططوا للتوجه نحو المستقبل بأشكال جديدة من السلوك مستفيدين من تجارب الفشل التي عاشوها، وغيرها من الاستجابات المختلفة، لذلك قد نجد أبناء المدن الكبرى المنفتحة على الآخر (وليس هناك في العراق ما يحسب بحسابات المدن المفتوحة في العراق غير بغداد، وإلى حد ما البصرة والموصل، وتشكل مراكز بعض المحافظات نموذج للمدينة المفتوحة بالنسبة لأبناء القرى)، هم أبعد الناس عادة عن مثل هذه الاستجابات، وأقل تعصبًا أو حتى تدينًا من أولئك المهاجرين من البيئات المغلقة، القرية أو المدينة الصغيرة.

لعل دراسة غالبية الحالات من الحركات الدينية المتطرفة أو الإرهابية في مصر التي لم يتوفر مثيل لها بالنسبة للعراق، تؤشر إلى أن معظم قادة وأعضاء هذه الحركات هم من المنحدرين من بيئات مغلقة أو القرى، فكل من شكري مصطفى زعيم ومؤسس تنظيم التكفير والهجرة، محمد عبد السلام فرج مؤسس جماعة الجهاد، تقي الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير، صالح سرية مؤسس

١- حول مفهوم الحرمان النسبي وتأثيراته السيكولوجية، ودوره في دفع الإنسان للثورة والانتفاضة ضد النظام السائد والمجتمع، لاحظ:

- Kenneth J. Gergen/Mary M. Gergen, Social Psychology,New York: HBJ, 1981, pp.339-343.

-Andrew M. Golman,A Dictionary of Psychology, Oxford: Oxford University Press.p.628.

شباب محمد، وعبد الحميد كشك الداعية المحرض على أعمال العنف، سيد قطب، وكثيرين غيرهم ممن نفذ عمليات قتل ومجازر جماعية بحق الأقباط والمسلمين، أو حرض على هذه العمليات في سبعينات وثمانينات القرن العشرين، وكفروا المجتمع، كانوا من أبناء القرى والأرياف في صعيد مصر من المهاجرين للقاهرة والمدن المصرية الكبرى[١].

ليس هناك دراسات مماثلة عن الخلفيات الاجتماعية وأصول قيادات الجماعات الدينية في العراق، وهي تتدرج في سلوكها حيال المجتمع عامة، وأبناء الطائفة الأخرى خاصة، بالتطرف الذي يمكن بالدراسة المعمقة يندرج تحت مفهوم الإرهاب، إلا أن ما لا شك فيه أن أغلب رجال الدين والمعممين الجدد في العراق هم من أبناء القرى، أو من سكان حارات مغلقة في المدن الكبيرة، كما هي حالة مقتدى الصدر.

يطول الحديث بنا عن الأسباب النفسية لانتشار التدين بالصورة التي نراها سائدة في الوطن العربي عمومًا، ما يحتاج لدراسة خاصة، أتمنى أن أوفق بالمستقبل لإنجازها، رغم أني سبق أن كتبت مقالات عدة في نفس الموضوع.

بالعودة لتعريف الطائفية أعلاه، المتتبع لتشكل هذا الاتجاه الطائفي، يلاحظ بوضوح الخصائص التالية:

١: إنه اتجاه لا واعي ولا دخل للعقل أو العقلانية فيه، كما لا دخل لإرادة الإنسان به، تشكل بتأثيرات البيئة العائلية أو المناطقية الجغرافية أو تأثيرات

---

١ – حول الأدوار التي لعبها هؤلاء المتطرفون والجازر التي نفذوها ضد الإقباط والمسلمين معًا لاحظ:

- **عادل حمودة، الهجرة إلى العنف، القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٧.**
- **عادل حمودة، قنابل ومصاحف، القاهرة: سينا للنشر١٩٨٩.**
- **هشام مبارك، الإرهابيون قادمون، القاهرة: كتاب المحروسة، ١٩٩٥.**
- **جيلز كيبل، الفرعون والنبي، ترجمة أحمد خضر، القاهرة: مؤسسة دار الكتاب الحديث، ١٩٨٨.**

بعض عوامل ما يعرف بعملية التنشئة الاجتماعية، رغم أن الطائفية تتشكل كاتجاه حول بعض الآراء والاجتهادات الدينية إلا أنه لا دخل لجوهر الدين فعلاً بالموضوعات الطائفية التي تتركز حول الموقف حيال الآخرين، فهي تتكون من مجموعة من التصورات المشوشة عن الآخر.

لم يسبق أن سمعنا عن حالة ولو واحدة أن أحد من أبناء الطوائف المختلفة، جلس ليراجع فقه المذاهب المختلفة، ليختار منها مدرسة معينة اختيارًا عقلانيًا واعيًا، ظهرت حالتان في ثمانينات القرن الماضي ادعى أصحابها أنهما انقلبا على طائفتيهما، إيمانًا ومعرفة وعقيدة، التيجاني من الطرف السُّني، وموسى الموسوي من الطرف الشيعي، تطرف الأول فاعتبر أن التسنن ضلالة وانحراف عن الدين، فكتب كتابه (ثم اهتديت)، ثم كتابه الآخر "لأكون مع الصادقين"، بحث صناع الطائفية في الطرف السُّني عن مقابل شيعي، فوجدوا موسى الموسوي، حفيد المرجع الشيعي في أربعينات القرن الماضي أبو الحسن الأصفهاني، فكتب كتاب (الشيعة والتصحيح).

إن قراءة هذه الكتب تُظهر أن لا هذا كان مصححًا، ولا ذاك كان باحثًا عن الهدى، وكتابه كان استفزازيًا كما يوحي من عنوانه الذي يشير إلى أن المذاهب السُنّية كانت مجرد ضلالة، جنى الاثنان أرباح طائلة من فعلته، كانت المؤسسة الدينية الإيرانية وراء الأول، والمؤسسة السعودية الوهابية وراء الثاني[1].

مع تصاعد حدة التوجهات الطائفية خاصة بعد اندلاع حركة التمرد في سوريا، وتدفق الهبات السعودية والخليجية على من يتبرأ من تشيعه، بدأت قلة من أبناء الطائفة الشيعية يعلن تبرئه من المذهب، يكتب مرة متهمًا التشيع بالفارسية، ويتظاهر البعض بتبني المذهب الوهابي، لا يدل هذا الاتجاه على أي موقف

١- د. محمد تيجاني السماوي، ثم اهتديت، لندن: مؤسسة الفجر، ١٩٩٣. نفس الكاتب: لأكونن مع الصادقين، باريس، بدون دار نشر، ١٩٨٧.

- د. موسى الموسوي، الشيعة والتصحيح، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٩.

عقلاني أو ديني، بقدر ما هو شخصي مصلحي مصدره الطمع بكسب المكافآت الخليجية والسعودية خاصة، وما تقدمه هذه الدول من فرص الشهرة من خلال الظهور بفضائياتها والمشاركة بندواتها..

غالبية أو جميع هؤلاء لا يشكلون بالأصل وزنًا طائفيًا أو اجتماعيًا؛ بل هم ممن كان يعيش قبل تحوله هذا على هامش المجتمع، ولم يكن أساسًا ممن يمكن حسابهم على المتدينين، إلا أن هؤلاء يلعبون عادة أدوار خبيثة في الترويج للطائفية ليثبتوا صدق ولاءاتهم الجديدة وطمعًا بمكافآت أكثر.

عندما يكون الطائفي متدينًا فإنه يؤدي الفروض بالطريقة التي وجد عليها آباءه، هو يغسل القدمين أو يمسح بيديه عليهما، كما رأى أهله يفعلون دون أن يعود لفقه المذهب الذي هُم عليه، في أشد الحالات تعقيدًا، قد يعود للواعظ أو الشيخ في المسجد (الذي قد لا يكون هو الآخر تعرف على أساسيات المذهب الفقهي التابع له، إلا على ما ندر من الروايات) ليتعرف على حكم من الأحكام الفقهية المهم هو يعمل، كما يعتقد، بأصح الشروط المطلوبة لقبول الصلاة، وهو يدمجها أو يفصلها وفقًا لما تعلمه، المهم أنها السُنَّة الصحيحة التي يعتقد كل منهما أنه هو من يلتزم بها، لا التحريفي الآخر من أبناء الطائفة أو الطوائف الأخرى.

تتفاعل هذه التصورات مع نزعات الغمز واللمز أو حب الاستطلاع الغريزي عند الإنسان، التي تمتزج بدورها مع ما يعززها من أفكار وتساؤلات مشوشة، لا تشبع حاجة الإنسان للمعرفة حيال الأسئلة الكبرى المتعلقة بأصل الخلق والوجود، لكنها تؤثر في تشكيل الصورة النمطية التي تتكون باللاشعور عنده عن نفسه وعن الآخر، والثابت علميًا أن هذه الصور النمطية المسبقة تلعب عادة دورًا مهمًا وتتحكم في توجيه سلوك الإنسان ومواقفه حيال الآخر، عندما تتشكل الطائفية كاتجاه سيكولوجي يقوم على أساس مجموعة من الصور النمطية أو الاستجابات المسبقة، تتميز بالتعميم، أي أن صورة الآخر من أبناء

الطوائف الأخرى تظل واحدة لا تتأثر أو تحسب حساب للفروق الفردية بين المنتمين للمذهب الآخر ، هم بالنسبة له وحدة سيكولوجية لا تختلف في خصائصها العامة مهما اتسع حجم الطائفة الأخرى أو تباعد أبنائها في المكان.

فصورة الشيعي عند عامة أهل السُنَّة كانت كما وجدها مؤرخ العراق الكبير عبد الرزاق الحسني، في قرى الأنبار، كما في مختلف الأوساط الشعبية السُنّية في فلسطين، مصر وسوريا، فيقول: "خلاصة ما كنت أسمعه أن للشيعي ذَنَب لا يختلف عن أذناب البهائم، وأن لهم أرواح تتقمص أجساد بعض الحيوانات بعد أن تفارق أجسادهم، وأنهم لا يعرفون الأكل مثلما تعرفه بقية الطوائف، وأنهم... وأنهم... وأنهم إلى أخر ما هناك من عجائب وغرائب"[١].

الغريب في موضوع هذه الصورة، أنها كانت لا تختلف عن صورة السُّني عند بعض جهال الشيعة ومتخلفيهم، الذين يعتقدون أن السُّني يولد على شاكلة البشر لكنه بذنب أو ذيل يشبه ذنب الحيوانات، وظلت هذه الصورة سائدة إلى أواسط الخمسينات، يذكرها المتعلم الشيعي والسني للسخرية من جهل أبناء جلدتهم من العرب.

ملامح الصورة واحدة بما يعني أو يوحي أن مصدرها، أو السبب في تشكلها بهذا الشكل هو واحد أيضًا ، وأن هناك مؤسسة ذات قوة وقدرة وإمكانات واسعة وراء تصنيعها ونشرها بهذا الشكل الواسع، ربما تفسر رواية قسطنطين زريق في كتابه (يقظة العرب)، أو تقدم السبب في ظهور هذه الصورة ومعرفة أصلها... فهو يورد الرواية التالية:

(كان السلطان عبد الحميد "قد اختار جماعة من الجواسيس يجوبون البلاد العربية، يلبسون مسوح الوعاظ والمبشرين، عملهم الحقيقي أن يبذروا بذور

١- محمد الحسين الكاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٥٨، ص: ٧٣.

الخلاف ويهيجوا أسبابه بين الزعماء الإقطاعيون ورؤساء القبائل البدوية الكبيرة ، فكانوا يستغلون المنازعات العائلية والخلافات القبيلية وطلب الثأر ، ويسعون في توسيعها وتعميقها)[١].

أما حقيقة الخلاف الشيعي السُّني حول مبدأ الإمامة، أو الخلاف السُّني – السُّني حول الحديث والسُنَّة ، الذي قسمهم أو شطرهم إلى أصحاب الرأي وأصحاب الحديث ، فتلك قضايا لا تثير اهتمام الطائفي السُّني أو الشيعي ، بقدر ما تهمه صورة الآخر المشوهة (صاحب الذيل أو أبو ذويل) ، أما ما هي مصادر هذا الاختلاف، فتلك أيضًا موضوعات لا تثير اهتمام الطائفي من الطرفين.

وجد المتكسبون بالدين، أو بعض رجال الدين الذين انغلقت بوجههم سُبل العيش ولم يجدوا إلا الدين وسيلة (راجع الفصل العاشر في هذا الكتاب) ، ما يخدم مصالحهم الدنيوية في صورة هذا المسخ الآخر ، فراحوا يعززونها عند هذا المتخلف والبسيط المحدود التفكير والتعليم وأولئك المستلبة عقولهم ، ويغذونها بأحاديث ملفقة للنبي ، أو هذا الولي أو ذاك ، ليعزلوا الطوائف عن بعضها البعض بما يضمن لهم سلامة وأمن أرزاقهم. فالتقارب الطائفي لا شك سينعكس على مصادر رزقهم سواء كانت رواتب منتظمة تقدمها لهم الحكومة، أو هبات الخمس والزكاة وتبرعات المريدين.. لذلك كانت الطائفية عزيزة عليهم ، يغذونها من أجل ضمان استمرارها ، يصعدونها أو يهدئونها وفقًا للظرف السياسي أو الاقتصادي.

لسنا هنا في بحث لغوي لمتابعة أصل المفهوم وظهوره لأول مرة ، لكن الملاحظة المهمة في مضمون المصطلح ، هي أنه يشير للعصبية أو التحيز للطائفة أو الجماعة ، وليس للمذهب أو الرأي والاجتهاد. بمعنى آخر ، إن الطائفة تتكون من تكتل مجموعة من البشر من خلال وحدة إيمانها ، أو تمسكها

١- قسطنطين زريق، يقظة العرب ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢، ص:١٤٠.

بمجموعة الاجتهادات التي تسمى مذهب، أي أنها تتعلق بالجماعة البشرية لا بما تؤمن به.

إن زعماء الطائفية والمستفيدين منها أو ممن تحقق لهم النزاعات الطائفية أغراضهم السياسية، لا تعنيهم الاختلافات المذهبية فعلاً، صحتها أو خطئها، بقدر ما أنهم يتوجهون عادة بوعظهم وتحريضهم ضد الجماعة لا ضد ما تتمسك به من اجتهادات إلا عند الضرورة... لم نسمع مثلاً أن واحدًا من الوعاظ الطائفيين من السُنَّة من انتقد مذهب جعفر الصادق والاجتهادات التي تلته من التابعين، ولا يذكر أو يتطرق لتأثيراته الفقهية على بعض الأئمة مثل الشافعي وأبو حنيفة وحتى أحمد بن حنبل، ما يعني أن الأئمة الأربع كانوا يتواصلون ويتبادلون الرأي دون أن تنعكس اختلافاتهم بالاجتهادات على حسن العلاقة بينهم.

بل يوجه نقده إلى الشيعة، متهمًا اياهم بما يعتقده من سيئات أو خروج عن الدين، يستشهد أحيانًا ببعض مقولات أحد مجتهديهم ليعمم أحكامه على المذهب أو بقية الشيعة في خلط عجيب أحيانًا بين الشيعة الاثنى عشرية، والإسماعيلية أو الزيدية أو الصفوية، والجماعات الشعوبية الغالية التي ظهرت خلال مراحل التاريخ المتقدمة وادعت بالولاء لأهل البيت، لتبرير خروجها على الحاكم في زمنها، ولكسب الأنصار بالتأثير، من خلال التأثير على عواطفهم وحبهم لآل البيت[1].

نفس الأمر نجده عند وعاظ الشيعة من المروجين للطائفية، هو لا ينتقد مذهب أبو حنيفة وما تلاه من اجتهادات أتباعه، ولا فقه أحمد بن حنبل وما تلاه من آراء فقهية لتلامذته، وهو كما الواعظ السُّني يخلط بين الاجتهادات المختلفة

١- لعل أفضل من كتب بموضوعية عن جماعات الغلو والغلاة وعلاقتهم بالتشيع وموقف أئمة الشيعة منهم هو: د.عبد الله الفياض، تاريخ الشيعة الإمامية وأسلافهم من الشيعة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٦، ص: ٨٦-١٢٩.

والمدارس الفقهية المختلفة ليحملها جميعًا وزر رواية أو رأي عثر عليه عند واحد من مجتهدي أو وعاظ السُنَّة ليعتبرها خروجًا على الشريعة.

الشيعة يتهمون السُنَّة بموالاة أعداء البيت أو من اغتصب الخلافة منهم، لذلك يطلقون عليهم صفة النواصب (أي من يقف موقف يناصب آل البيت بالعداء أو الكره)، ويعدون هذا الموقف بعداد الكفر والخروج عن الدين، والسُنَّة يتهمون الشيعة بكره الخلفاء الراشدين والصحابة، ويعدونه انحرافًا عن الدين يصل حد الكفر ، فأطلقوا عليهم تسمية الروافض ، أي أنهم يرفضون القبول بخلافة الراشدين الثلاثة الأوائل.

لا يجد الباحث المدقق من تفسير لهذا التوجه في نقد الجماعة لا المذهب، غير ما قلناه في أعلاه من جهل حقيقي عند هؤلاء الوعاظ ، لجوهر الخلافات المذهبية أو الفكرية، فهم لا يعرفون عنها شيء غير بعض ما سمعوه، يتفاعل هذا الجهل بما عند الآخر ، مع جهل حقيقي بفقه مذهبه غير الاعتقادات السطحية العامة التي سمعها أو قرأ عنها بشكل سريع ، فيتحول الوعظ إلى تجريح وتحريض على الكراهية والعداء، بل يصل عند وعاظ الوهابية إلى حد الدعوة للتكفير واستباحة القتل.

فما يركز عليه الواعظ الشيعي هو اتهام السُنَّة ببعض الحالات الشاذة للنواصب منهم ليعمم اتهاماته على بقية المذاهب السُنّية ، نفس الملاحظة تنطبق على الواعظ السُّني ، الذي يخلط بين المدارس الشيعية المختلفة ، وجماعات الغلو بالمعتدلين.

لعل غالبية الشيعة أو معظمهم إلا ما ندر لم يقرأ نهج البلاغة، ليعرف أن الإمام علي ينفي في بعض خطبه العداء المُصنع أو المفتعل بينه وبين عمر ، فيصف عمر تارة بأنه أصل العرب، يخاف عليه ويمنعه من الخروج لقيادة حملة فتح العراق ، كي لا يتكالب عليه الأعاجم يقولون (هذا أصل العرب) فيقتلونه ،

ويمنعه من الخروج على رأس حملة فتح الشام، خوفًا من أن يتعرض للقتل، فلا يجد المسلمين بعده (أي بعد عمر) من مرجع يرجعون إليه[1].

نعم اختلفا بالقناعات والرأي حول من هو الأحق بالخلافة بعد النبي، لكنهما لم يتنازعا أو يتصادما إلى حد القطيعة، سنتحدث فيما بعد عن خلافات أبو بكر والسيدة فاطمة الزهراء في الفصل الخاص بالنزاعات وعمليات التنافر الشيعي – السني.. بالمقابل، وكما يرى عالم الاجتماع العراقي علي الوردي "أن عمر كان يميل إلى علي بن أبي طالب كل الميل، وعلي هذا كان من أثقل خلق الله على قريش وأبغضهم، فقد كان علي يكره قريش! وتكرهه قريش كرهًا لا حد له، اتخذ عمر عليًا مستشارًا له، يقول سعيد بن المسيب أن عمر كان يعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن "يعني علي"[2]، ولهذا على ما يبدو شاع عن عمر قولته الشهيرة "لولا علي لضاع عمر".

كان الهم الأول والأساسي الذي يتحكم بسلوك الخلفاء الراشدين هو الحرص في الحفاظ على الإسلام، وتوطيد شرائعه، قبل الهموم والمطامح الشخصية لكل منهم، فهم وحدة متماسكة ضد الآخر غير المسلم، والمشهور في الروايات أن أبو سفيان (الصحابي الجليل كما يرى بعض الطائفيين السُنَّة ممن لا يخفي توجهاته الناصبية)، لا الإمام علي، كان من أشد الكارهين والمعارضين لتولي أبو بكر الخلافة، جاء إلى علي ليقول له مد يدك لأبايعك، وسأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً، فسفهه علي ونهره متهمًا إياه (بأنها يد مُدت لهدم الإسلام)[3].

ولعلهم لا يعرفون؛ أو الطائفي من الطرفين لا يدري حقيقة أن عمر عين كل من رؤوس شيعة علي الأوائل عمار بن ياسر، واليًا على الكوفة، وسلمان

١– نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ج٢، الصفحات ١٨،.٣٨.

٢– د.علي الوردي، وعاظ السلاطين، لندن: دار كوفان، ١٩٩٥، ص:١٢٧

٣– طه حسين، الفتنة الكبرى: علي وبنوه، القاهرة: دار المعارف، ط١٢، بدون تاريخ، ص:١٧–١٨، كذلك ص:١٧٤.

الفارسي واليًا على المدائن، يجد الطائفي في مثل هذه الروايات ما يتعارض مع مصالحه وغاياته في عزل الشيعة عن بقية المسلمين، فيتهم عمر بالحقد على علي وأتباعه وآل بيته.

٢: إن روايات التعايش السلمي والتعاون بين الإمام علي والخلفاء الراشدين، أو بين الإمام الصادق وأئمة السُنَّة الآخرين لا تخدم أغراض الطائفي، ولا تحقق مصالحه، لذلك استبدلها بروايات تشير إلى العداوة والقطيعة، إن الجاهل أو المتطرف الشيعي لا يعرف أنه بشتمه الخليفة عمر تحزبًا للإمام علي إنما يشتم الإمام علي نفسه بذلك، فهو الذي اعتبر عمر (أصل العرب) وأن (ليس للمسلمين من مرجع يرجعون إليه من بعده).

تختفي العقلانية أو حتى التحيز والعصبية للمذهب عند الطائفي لتغدو صور الكراهية والروايات التي يروجها وكأنها هي جوهر المذهب، بل هي الإسلام والدين الصحيح بعينه.

بالمقابل لا يعرف غالبية السُنَّة ولا حتى الشيعة، إلا ما ندر أن كل من أبو حنيفة والشافعي كان قد تعرض للسجن والمُلاحقة لاتهامه بالتشيع، وأن أبو حنيفة سُجن في زمن الأمويين لتأييده ودعمه بالمال لثورة زيد بن علي بن الحسين (إمام الشيعة الزيدية، الذين يسمونهم الآن بالحوثية إطلاقًا)، وأنه سجن في زمن المنصور العباسي لتأييده وتحريضه للناس للانضمام إلى ثورة محمد ذو النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وإرساله الأموال والتبرعات لهما[١].

وإذا صحت الرواية في أنه مات متأثرًا بالسم الذي دسه له المنصور في السجن. يكون بذلك أحد شهداء الولاء لآل البيت، ما يفرض على الشيعة أن

١- عن موقف أبو حنيفة من ثورات العلويين ودعمه لها راجع عبد الرحمن الشرقاوي، أئمة الفقه التسعة، بيروت: دار اقرأ، ١٩٨١، الفصل الخاص بأبو حنيفة النعمان الصفحات ٥٣-٧٢.

يضعوه في قائمة شهدائهم الكبار ، فقصته لا تختلف عن قصة الإمام الشيعي السابع موسى الكاظم الذي مات بتأثير السم الذي دسه له الرشيد وهو في السجن، مع فارق أن أبا حنيفة كان أكثر حركية ونشاط في تأييده لحق آل البيت في الحكم من الإمام الكاظم، لكن ما نراه أن بعض جهال الشيعة وحتى وعاظهم يشتمون أبا حنيفة على أساس أنه سُني ناصبي يكره آل البيت ويناصبهم العداء وينكر حقهم في الحكم ، والمعتدل منهم يخفي هذه الوقائع عن ولاءات أبي حنيفة.

نفس الأمر ؛ فإن الجاهل الشيعي الذي يشتم الخليفة أبا بكر أو السيدة عائشة تعصبًا لآل البيت ، لا يعرف أنه يشتم بذلك جدة الإمام الصادق وجده لأمه الخليفة أبو بكر ، فأمه هي فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين.

٣: إن الشريعة تعني مجموعة الأحكام التي شرعها الخالق في محكم كتابه الكريم ، والفقه أو الفقاهة تعني تفسيرات بعض المجتهدين لبعض الآيات أو السور أو الأحكام التي يجتهد بها هؤلاء الفقهاء في بعض الأمور التي يعتقدون أنه ليس هناك من نص واضح بها في القرآن والسنة... أي أن الفقاهة ليست إلا صناعة بشرية تحتمل الخطأ والصواب، لكون الفقهاء بشر يخضعون مثل سائر الناس لمؤثرات طبيعتهم الإنسانية.

البشر خطاءون، تتأثر عملية الإدراك عندهم بالعوامل النفسية الداخلية؛ شعورية كانت أو لا شعورية، كما يتأثرون بالغرائز ، والظرف الذي يعيشه الإنسان في اللحظة التي وقع أو حصل بها الإدراك.. والمجتهد أو الفقيه بشر كسائر الناس، يغضب ويرضى ، ويحب ويكره، يحزن ويفرح ، يجوع ويشبع ، ويحتاج لأن يؤدي عملية التفريغ ، يتألم ويمرض ويهذي كما يهذي الآخر المتأثر بشدة

ارتفاع حرارة الجسم، وغير ذلك من الأمور التي تتأثر بها عملية الإدراك عند الإنسان[1]، فأحكامه ليست مقدسة ولا قطعية.

يرى الداعية الإسلامي المتشدد سيد قطب أن تلك الاجتهادات الفقهية كانت محكومة بظرف ظهورها في الزمان والمكان الذي ظهرت فيه، وهي قد لا تصح لظرفنا أو زماننا، فهو يرى "أن الأحكام الفقهية لا تزيد على أن تكون محاولات بشرية لتفسير تلك الشريعة وتطبيقاتها تفسيرًا وتطبيقًا صالحًا لفترة معينة من الزمان ومستمدًا من روح هذه الفترة وتصوراتها للحياة، وقد لا تصلح هذه المحاولات لأكثر من زمانها"[2].

يمضي سيد قطب في اجتهاداته إلى مدى يرى أن اجتهادات وفقه الصحابة، مثل أبي بكر وعمر وعلي وابن العباس وابن عمر ومثلهم من أصحاب الرسول ﷺ لا تصلح لزماننا، "يمكن الاسترشاد أو الاستشهاد بها في الحالات المشابهة التي تعرض للأجيال المتجددة ولكنه لا يبلغ حد الإلزام المطلق لأنه مجرد رأي بشري في شريعة الله ليس جزء من الشريعة الثابتة الصادرة من الله"[3].

لعل الشيعة والمعتزلة كانوا أكثر عقلانية وأقرب لمنطق العقل عندما قالوا إن الفقيه يصيب ويخطئ، حاله حال بقية البشر، استثنى الشيعة بذلك أئمتهم من الخطأ باعتبار أن عصمة الأئمة إرادة إلهية[4]، إلا إنا نجدهم يتراجعون عن هذا الحكم الفقهي حول كون المجتهد يمكن أن يصيب وأن يخطئ في مرحلة ما بعد

١- عن طبيعة عملية الإدراك، وتأثرها بالظروف والتفاعلات الداخلية للإنسان المُدرك، راجع:
Helen Kaye ,Edited by ,Cognitive Psychology, London: The Open University,2010 ,PP: 26-151.

٢- سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٩٨٠، ص:٥٧

٣- نفس المصدر، ص: ٥٢-٥٣.

٤- حول رأي الشيعة في الاجتهاد وخضوع المجتهد للطبيعة البشرية التي يمكن أن تعرضه للخطأ، راجع: مرتضى مطهري، مبدأ الاجتهاد في الإسلام، طهران: مؤسسة البعثة، ١٣٥٧ ه-، خاصة الصفحات ٢٠-٢١.

الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣، (مرحلة تشيع العولمة)، فراحوا أو راح مراجعهم يشيعون الروايات الواضحة الاختلاق عن قدسية المرجع، بل وحتى المعمم إطلاقًا، حيث تنتشر القصص عن اجتماع أسبوعي بين السستاني والإمام المهدي المنتظر، ويدعي رجل دين آخر أنه بلغ درجة الاجتهاد، والدليل أنه يشرب الشاي بين فترة وأخرى مع الإمام الغائب المهدي.

المهدي هو الإمام الثاني عشر عند الشيعة وهو غائب بقدرة الخالق، كما يعتقدون، وهو أيضًا يعرف علوم الأولين والأخرين نقلاً عن آباءه عن النبي عن جبرائيل عن الله.. ويشيع مجتهدي العولمة والاحتلال الآن؛ أن المهدي بدأ يعقد اجتماعات دورية مع المجتهد، يعطيه التعليمات كي يتصرف بوحيها، فيلغي أو يرفع واجب أو فريضة الجهاد ضد المحتلين أو الغزاة الكفار (وهي من أصول الدين أو الفرائض الواجبة لا تقل أهمية عن الصوم والصلاة والزكاة والحج عند الشيعة ما قبل الاحتلال) كما اتفق على ذلك من سبق من فقهاء الشيعة قبل أن يغير المهدي المنتظر برنامج عمله وجدول نشاطاته. ويُدَعم المرجع (وفقًا لنتائج اجتماعاته مع المهدي على ما يبدو) بفتواه ما أراد بريمر ودعى له بضرورة إغلاق الحدود مع الدول العربية وخاصة سوريا، لأنها ترسل الإرهابيين العرب الذين يتوافدون على العراق للمساهمة في مقاومة الاحتلال.

ينبري السستاني أو يُفتي في اليوم التالي بضرورة مراقبة الحدود لمنع المخربين من دخول العراق، يفتي أو يوصي تارة أخرى بضرورة التقنين باستخدام الكهرباء، غير الموجودة أصلاً ليبرأ الأمريكان من جريمة تدمير البنى التحتية العراقية، والكهرباء منها[١]، فتح الخميني باب السماء للفقهاء الشيعة، ليعتلوا

١- د. موسى الحسيني، مرجعية السستاني والاحتلال: قراءة وطنية لمذكرات بريمر، نشرت بثلاث حلقات في جريدة القدس العربي – تموز ٢٠٠٦. يمكن الإطلاع على الموضوع على الرابط التالي:
http://articles-to-read.blogspot.co.uk/2006/07/blog-post_19.html?m=0

لعرش الخالق ، ويقفوا جنبه كوكلاء ونواب عنه ، ممثلين له ، يتمتعون بكل حقوقه في مصائر البشر كما سنفصل ذلك في فصول قادمة.

بالمناسبة إن المهدي عند بعض وعاظ الشيعة ممن شاهد أو تأثر ، على ما يظهر ، بأفلام السوبرمان؛ تحول إلى مهندس يصلح الطائرات المعطوبة أو التي يمكن أن تتعرض إلى خلل فني وهي طائرة في الجو ، مجرد أن يستنجد به ركابها، يؤكد الواعظ صحة رأيه أو روايته هذه بذكر اسم الحاج غير المعروف وربما يكون الاسم وهميًا، ليؤكد مصداقية كلامه.. فهذا الحاج لم يسترح له بال إلا بعد أن يذهب عند نزوله من الطائرة ليسأل المهندسين عن حقيقة الأمر ، وكيف حصلت هذه المعجزة في أن الطائرة تتصلح وتعود لوضعها السليم بعد أن أعلن كابتنها وقوع الخلل وضرورة الاستعداد للسقوط ، وفجأة بعد دقائق قليلة تعتدل الطائرة وتكمل رحلتها بسلام ، فيجيبه المهندس أنه لا يدري وهو مندهش مثله ، فقد وجد أن أحد أجزاء الطائرة أصيب بالخلل ، لكن أحد ما أو قوة ما استبدلت الجهاز بآخر جديد خلال طيرانها بالجو ، فانتهت المشكلة وعادت الطائرة إلى وضعها السليم.

ويستغني واعظ آخر عن خدمات الإمام المهدي بإدعاء الصلة الوثيقة بالسيدة فاطمة الزهراء ، التي كانت تجلس القرفصاء وراء نخلة قريبة من مجلسه تراقب الحضور لتشهد يوم القيامة لمن بكى بصدق على مأساة الحسين ، ويصدقه الناس ويحوطون النخلة المقدسة التي اختبأت وراءها الزهراء في اليوم التالي بسياج، ويحملون أطباق الحنة لتحنية النخلة وسياجها ، فهي مباركة كما قال الشيخ.

يدعي آخر أن الزهراء استغلت وجوده منفردًا في ديوانه فزارته لتشتكي عنده من الخليفة عمر ، تكشف له عن خدها الأيسر لتريه آثار ضربة عمر لها التي مازالت بعد مضي ١٤٠٠ عام تُعلم على خدها ، أي أنها لم تتعرض كما تقول الروايات الشائعة لكسر ضلعها بل للضرب على خدها ، وإلا كان الأحرى

بالسيدة البتول أن تشكو له آلام كسر ضلعها، فكسر الضلع وآلامه أشد وقعًا وتأثيرًا من الصفع[1].

رغم أن مجتهدي وفقهاء السُنَّة يعيبون على الشيعة القول بعصمة الأئمة من آل البيت، الا أنهم قالوا بأئمتهم وفقهائهم ما قاله الشيعة، ولو بطريقة توحي بالاستحياء، أو بمصطلحات أخرى أخف تأثيرًا على السامع، فهم يعتقدون أن الفقيه أو المجتهد لا يمكن أن يخطئ، هو دائمًا على صواب، وهو مأجور بالحسنة الواحدة في حالة الخطأ، لذلك عُرفوا بالتاريخ بالمصوبة.

ويبدو أن فقهائهم المتأخرين أرادوا أن يستفيدوا من هذه القاعدة الفقهية، فتمسكوا بالحديث: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"، طمعًا في كسب الأجر بالآحاد التي ستشكل أرقام كبيرة قياسًا بكثرة أخطائهم.. الملاحظ أنهم تنقلوا بشكل كيفي، وحسب الظرف المطلوب بهذا المخطئ، فمرة قالوا الحاكم، وأخرى المجتهد أو القاضي، فهم أحباب الله يثابون حتى على أخطائهم وانحرافاتهم عن أحكامه، حسب الظرف والطلب ومركز الإنسان المطلوب له الأجر عند الله على أخطاءه أو خطاياه سواء كان حاكمًا أو قاضيًا أو مجتهد.

هذا الخلط والتشوش بالمفاهيم، ومتاهات التفسير والاجتهاد والفقه، وتداخل الآراء والقناعات الشخصية بالشريعة، توحي أو تظهر رغبات نرجسية حادة عند الفقهاء والمجتهدين لمشاركة أو منافسة الخالق في ما ارتآه لنفسه من دور الحاكم الأحد الأوحد، الذي لا شريك له في العفو والمغفرة أو العقاب.. قناعتي وأنا الجاهل بفقههم، إلا أني أمتلك على الأقل ربع القدرة على الاجتهاد، وفقهاء الطرفين يقر أن العقل هو أحد مصادر الاجتهاد الأربع، سواء سموه (العقل) أو بأسماء أخرى مثل الاستحسان أو (الرأي)، ما أعرفه هو أن الرأي من نتاج

١- تنتشر على اليوتيوب مثل هذه المواعظ والروايات بين الفترة والأخرى.

العقل، إن بعض الفقهاء محكومين بنزعات نرجسية حادة ليموضعوا أنفسهم فراعنة وآلهة جدد باسم حاكمية الله، كما سيأتي الحديث عن ذلك في الفصول القادمة.

أرى أن الطائفية نموذج من الخروج عن الدين بغطاء الدعوة لتيسير الدين وتفسيره، وهي قد تعني أي شيء آخر غير الدين والتدين، كما تؤشر لنقص في الإدراك والمعرفة، فهي في جوهرها كما قلنا في أعلاه توجهات لا شعورية سببها صور نمطية وأحكام مسبقة اندست في عقل الإنسان بدون وعي ولا إرادة منه، تمكنت منه لأنه لم يبلغ من قوة الإدراك والتفكير السليم ما يمكنه من الخلاص منها. فكانت هي الأرضية التي استند لها صُنَّاع ومحترفو وتُجَّار الطائفية، لينطلقوا منها إلى تحقيق مصالحهم الدنيوية، ويكسبوا أكثر ما يستطيعون من ملذات ونعم الدنيا من خلال استغلال غفلة هذا المتخلف الطائفي.

بالتحليل العلمي لما يجري ويطرح من سياسات، فإن الطائفي، علمانيًا كان أو مسلمًا أو من أديان أخرى، شيعيًا أو سُنيًا، قوميًا أو بعثيًا، يساريًا أو من أي انتماءات أخرى، سواء كان يعرف أو لا يعرف؛ فهو يقف في صف العمالة للغرب والصهيونية.

إن التقسيم الطائفي، وتفتيت الدول العربية وتجزئتها إلى دويلات صغيرة على أساس طائفي، مشروع صهيوني طُرح منذ أوائل ثمانينات القرن الماضي، معلن ومعروف بعنوان "استراتيجية إسرائيل لثمانينات وتسعينات القرن".

٤: أغرب ما بالفقه والفقاهة والاجتهاد، أو أي من تلك التسميات التي تشكل الأساس في التوجهات الطائفية، أنها تناقض نفسها بنفسها، مادامت هذه النزعة قد قبلت بالتدخل في أحكام الباري عز وجل، وما دامت تقر جميعها بأن البشر خطَّاءون، فحتى فقهاء السُنَّة الذين ينفون خطأ المجتهد، هم بما يستندون له من حديث: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم

أخطأ فله أجر" ؛ يقرون ضمنًا أن المجتهد يمكن أن يخطئ ويصيب غير معصوم.

إن الإقرار بكون الإنسان يمكن أن يخطئ ويصيب ، لا يبرر لأحد منهم أن يضفي على هذا الفقيه أو الإمام أو المجتهد ما نراه من سمات قدسية وهمية، إن القبول بخطأ الفقهاء يفرض على الجميع القبول بالرأي الآخر ، أو كما عبر عن ذلك الإمام الشافعي بمقولته المشهورة: "رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"..

فجميعهم بشر يتأثرون بالعوامل المختلفة التي تؤثر على الإدراك وقابلية استخلاص الحكم الشرعي السليم ، إن العقلانية المجردة من تأثيرات الأحكام النمطية المسبقة ، وتأثيراتها التعصبية ، تفرض القبول بالرأي الآخر ، هو بشر مَنّ الله عليه بالعقل ليجتهد ، والآخر بشر أيضًا هو أيضًا ينعم بنعمة العقل ، مناقشته بالحسنى والبحث عن المقدمات التي كانت سببًا في خطأه ، لا أن ينصب هذا النرجسي المبتلى بأنا مريضة مضخمة نفسه وكيلاً عن الله في أرضه، يصدر الأحكام المجحفة بانحراف الآخر وتكفيره.

إن عملية التفاعل العقلاني هذا يمكن أن ترتقي بالفقه وتنقله إلى مستوى من الرقي ليخدم الإنسان ويحول الدين إلى ما أراد منه الخالق ليكون رحمة للعالمين لا حافزًا لنشر الكراهية والحقد والتطاحن والعراك ، واستهلاك طاقات البشر ، بما لا يخدم عملية التطور والارتقاء إلى المستوى الذي وصلته الإنسانية جمعاء (خاصة أهل الكفر)، ما حرمنا فقهاء المسلمين منه.

كل الأديان تضم مذاهب مختلفة في رؤاها عن بعضها إلا أنها تتعايش بسلام ووئام، إلا الإسلام... ويقولون عنه ويصفونه أنه دين رحمة وسلام، أي رحمة وأي سلام وقد تحولت رؤوس المسلمين المقطوعة لكرات قدم يلعب بها المجاهدين؟.

تلك مجرد نماذج من مواقف الطائفيين ، أو المتحزبين مذهبيًا من وعاظ ومتفقهين ومراجع، جندوا خبراتهم ومعارفهم الدينية في خدمة هذا الحاكم أو ذاك، لا أدل على ذلك مما وجدناه في مواقف رجال الدين والوعاظ في مصر، بل في مختلف الأقطار العربية، فهم في الغالب اشتراكيون لأنهم اكتشفوا أن الاشتراكية التي يقول بها عبد الناصر مشتقة من صميم الإسلام، لكنهم اكتشفوا صدفة بعد زيارة السادات للقدس أن الإسلام دين سلام ومحبة ينهى عن الحرب والعدوان، فهما خروج على الشريعة.. حتى أن مرشد الإخوان المسلمين عمر التلمساني لا يتحرج أن يكتشف فجأة "أن السلام هو الهدف الأسمى للإسلام، ومن الخير أن نسعى إليه"[1]، في عهد مبارك اتخذوا من "أحاديث الرسول ﷺ سندًا لتبرير التحالف المصري الأمريكي ضد العراق"[2].

هؤلاء هم صناع الطائفية ودعاتها، بضاعتهم الخرافة التي يريدون بها إلغاء أو تعطيل العقل الذي هو نعمة من النعم التي مَنّ الله بها علينا، ومسخ إنسانية الإنسان لينفردوا هم بحيازة ملذات الدنيا والعيش الرغيد دون الآخرين، من يتصدى لخرافاتهم ونزواتهم المريضة المشحونة بحب الدنيا وملذاتها فهو كافر، يتهدده القتل.. أسلوب من قمع مرضى نفسيين، من أعداء المجتمع السيكوباثيين محدودي العقل والتفكير، يعوزهم العلم والمقدرة العقلية على حوار الآخر، لذلك لا يمتلكون إلا الجريمة والقتل للتخلص منه.

إن الدراسة المعمقة لما اجتهد به أئمة السُنَّة الأربعة، مقارنة لاجتهادات الفقيه الشيعي الأول الإمام جعفر الصادق، بعيدًا عن الهرطقات والسجالات العقيمة التي قال بها ابن تيمية والمودودي وابن عبد الوهاب والخميني والسستاني والقائمة الطويلة من تجار الدين وصناع الطائفية؛ سيصل الإنسان إلى ما وصل إليه المفكر الإسلامي أحمد الكاتب في كتابه "السنة والشيعة: وحدة الدين- وخلاف السياسة والتاريخ"[3].

١- جيلز كوبيل، مصدر سابق، ص: ١٤٠.

٢- فريال حسن خليفة، أهمية العقل، القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، ص:١١٥.

٣- أحمد الكاتب، السنة والشيعة: وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ، بيروت: الدار العربية للعلوم- ناشرون، ٢٠٠٧.

الفصل الثالث

الشيعة والسُنَّة في العراق

محطات التنافر والتقارب

تعايشت الطائفتان (الشيعية والسُنّية) في ظل الدولة العراقية الحديثة، التي تشكلت في بداية العشرينات من القرن الماضي، بسلام ووئام، يتشاركون الأعمال الحرة والتجارة، يتزاوجون من بعض، يتفاعلون بصداقات حميمية، دون حساسية أو شعور بالغرابة من بعضهم البعض، خاصة في المدن الكبرى حيث يتواجد أبناء الطائفتين، بأحجام متساوية تقريبًا مثل بغداد، بعقوبة مثلاً، تكاد لا تخلو مدينة شيعية من تواجد عوائل سنية ولو بأعداد قليلة، لكنهم كانوا مندمجين بأوساطهم المحلية لا شيء يفرقهم عن بقية السكان.

لم يحصل في تاريخ الدولة العراقية الحديثة أن قُتل شيعي أو سني بسبب انتماءه الطائفي، حتى عام ١٩٧٧، في زمن البعث حيث قاد وزير الداخلية العراقي في حينها عزة الدوري مجزرة بحق الشيعة، فقط لأنهم شيعة، لا لذنب أو تهمة سياسية أو إخلال بالقانون من أي نوع من هذه التهم، كما سيأتي الحديث عنه ذلك بالتفصيل في الفصل الخامس.

مهما اشتد أو تصاعد الحديث عن الطائفية، والتقسيم والانقسام في العراق؛ هناك آصرتان عضويتان تربطان شيعة وسُنَّة العراق، من القوة إلى حد القول بالاستحالة في فكهما أو تذويبهما، هما:

الأولى: تتوزع العشائر العربية في العراق بين المذهبين، فالظاهرة العامة أن أغلب أفخاذ هذه العشائر في مناطق شمال وشمال غرب بغداد تنتمي للطائفة السُنّية، في حين نرى أن أفخاذ أو امتدادات نفس العشيرة في مدن جنوب بغداد

تنتمي للطائفة الشيعية، فشمر جنوب بغداد تكاد تكون بالمطلق شيعية، وشمر شمال بغداد سنية، عشائر آل فتلة في المشخاب وعفك، وهم من أنشط العشائر الشيعية في المشاركة بالانتفاضات الوطنية كثورة العشرين ، وتمرد ١٩٣٦ الذي فرض على الملك تكليف ياسين الهاشمي (السني) برئاسة الوزارة، ينتمون نسبًا لتحالف عشائر دليم السُنّية. آل بو علوان في الحلة شيعة وهم أبناء عمومة أو نفس عشيرة آل بو علوان السُنّية في الرمادي/ الأنبار، آل بو ريشة الشيعة في قضاء الخضر/ السماوة هم فخذ من عشيرة آل بو ريشة السُنّية في الأنبار. الفضول السُنَّة في تجمع عشائر كبيسة هم فخذ من عشائر آل غزي الشيعية في البطحة / الناصرية، كذلك الحال بالنسبة لبقية العشائر مثل الجبور ، زبيد ، عبودة، حتى عوائل السادة المنتسبين لآل البيت تخضع لنفس التقسيم فكل من سادة الوس، راوة، سامراء، نعيم هم من السُنَّة الأحناف في حين أن كل عوائل السادة في الجنوب هم من الشيعة.. حتى الآن هناك الكثير من البيوت في عنه وحديثة من الشيعة – العلوية، وهكذا جميع العشائر والبيوت التي أعتذر عن عدم ذكرها والتي لا يستحضرني اسمها.

الثانية: تتشابه معتقدات سُنة العراق مع شيعته في تكريم كل منهما لأوليائه، يبني لهم القبور، والمساجد ويزورنها للتشفع بهؤلاء الأولياء إلى الله وتقديم النذور لهم، لنأخذ بغداد مثلاً، عبر نهر دجلة حيث يقع مرقد الإمامين الجوادين أو الكاظمين في مدينة الكاظمية، يقابلهما على مسافة لا تتجاوز الثلاث كيلومترات، مرقد وجامع الإمام أبو حنيفة في الأعظمية، ثم على بعد بضع كيلو مترات في وسط مدينة بغداد يقع مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني.

هناك مراقد أو أولياء يمكن القول إنهما يمثلان بؤر مشتركة ويحظيان بنفس المستوى من القدسية عند الشيعة والسُنَّة، مثل مرقد السيد محمد بن الإمام علي الهادي في مدينة بلد الشيعية، يحظى بنفس مستوى التقديس عند أهل مدينة الضلوعية وقراها السُنّية، فالسيد محمد هو الحكم الفصل في النزاعات

والخلافات الفردية والجماعية عندهم، يكفي القسم في حضرته لتأكيد صحة أو كذب المدعي أو المدعى عليه.

يحظى مرقد الإمامين العسكريين في سامراء بنفس القدر من الاحترام والتقدير، يعتقد أهالي سامراء بأنهم من عوائل السادة التي تنتسب للإماميين، في مدينة الرفاعي الشيعية ترتفع منارات مرقد الشيخ أحمد الرفاعي، لا يجد زواره من مختلف مناطق العراق أي مشقة أو موانع من أهل المدينة في أداء شعائرهم، عندما يقصدونه طلبًا للشفاعة أو لإيفاء نذر.

المعروف أيضًا أن مدينة الفلوجة تضم مراقد ومساجد عديدة لأوليائها، لعله من الصعب أن تجد مسافة ١٠٠ كيلو متر في العراق في مناطق الشيعة أو السُنَّة تخلو من مراقد أولياء تختص بهذه الطائفة أو تلك.. هنالك أثر لقدم على صخرة في مدينة حديثة يعتقد سكان المنطقة أنه يعود للإمام علي أثناء مروره بالمنطقة في حرب صفين، يزورون الصخرة للتبرك والتشفع إلى الله بالإمام علي.

يعني بلغة داعش والوهابية وابن تيمية أن كلا الطائفتين يحسبان بحسابات الشرك والكفر، ومراقدهما مهددة بالهدم، كما هدموا جامع النبي يونس الذي يحظى بتقدير واحترام عموم أهل الموصل وهم من السنة.

حتى الموقف من إيران يكاد يكون واحد أو بنفس المستوى من النفور تقريبًا عند الطرفين إلى حد الاحتلال في ٢٠٠٣، نفور مصدره توجهات ذات مضمون قومي، فالقول الشائع مثلاً في مدن الجنوب وإلى عهد قريب (خذ من العجمي ولا تعطيه) أي تزوج منه ولا تزوجه، كما لازال العراقيون من أصول إيرانية ينعتون العربي بـــ"المعيدي" أي المتخلف من سكان الأهوار.

من المشاهد التي لاحظها الكاتب كان هناك وجيه في أحد مدن الجنوب متزوج من امرأتين؛ إحداهما عربية الأصل والأخرى إيرانية أو عجمية (كما هو الاسم الدارج للإيرانيين)، له أولاد من كِلا الزوجتين، عندما يختص حديث أهل

المدينة عن أولاد هذا الوجيه، يعرف أبناء العربية باسم أبيهم، بينما يعرف أولاده من زوجته الإيرانية باسم ابن العجمية، وهكذا هناك الكثير من المظاهر ذات الدلالة على النفور من الإيرانيين عند الشيعة العرب، إلا أن ذلك لا يمنعهم من تقليد المرجع الإيراني الأصل، رغم شعورهم بالغصة في أن لا يكون هؤلاء من العرب، كما سنأتي للحديث عن ذلك.

ساد العراق ما قبل الاحتلال، نفس المستوى من التواءم والتعايش الذي كان يسود علاقات المسلمين فيما بينهم، علاقاتهم مع بقية الجماعات الدينية التي تسكن في العراق (المسيحيين، اليهود، الصابئة أو غيرهم).

كنت أتحدث بالأمس مع صديق من الناصرية وهو من أبناء الطائفة السُنّية، حول الطائفية، قال أي طائفية: في كل عشرة عاشوراء في الناصرية كان الصابئة يدعمون مواكب التطبير واللطم بإرسال الخرفان وأكياس الأرز، وحدادينهم يصنعون سيوف التطبير، وخضوري اليهودي كان يخيط أكفان المطبرين، الذين ما أن ينتهوا يفضلون الذهاب إلى جامع السُنَّة للاستحمام هناك لوجود حمامات تابعة للجامع، وللاستطباب. يشارك بعض الشباب السُنَّة في عملية التشكيف (أي أنهم يحملون جرائد النخل ويسيروا وراء من يغرم بالتطبير ليضعوا العصا بين رأسه والسيف كي لا يؤذي نفسه).

ذكرني بقصة صديق من أيام الدراسة في ثانوية الناصرية تشكلت صداقتنا في صيف ١٩٦٣، كان هو من أعضاء الحزب الشيوعي العراقي، وكنت مرتبطاً بالتيار القومي خط الشهيد فؤاد الركابي، حتى بعد انتقالي إلى بغداد كان يزورني، وعندما أذهب في أيام العطل إلى الناصرية كنا لا نفترق إلا قليلاً، رأيته مرة يمارس عملية التشكيف في موكب للتطبير، لم أفكر ولا خطر ببالي يومًا أن أسأله عن طائفته، لكن البديهة تقول كونه من أبناء مدينة الناصرية فهو شيعي. اكتشفت بالصدفة عام ٢٠٠٦ أي بعد ٤٣ سنة، أنه سني. كانت موضوعات أحاديثنا في فترة الشباب تتمحور حول أخر الكتب، ومسرحيات

توفيق الحكيم وقصص يوسف السباعي، سارتر وسيمون دوبفوار، ماركس ولينين، وجمال عبد الناصر، أخر الأفلام وما تعنيه أو ما أراد كاتب قصته والمخرج أن يقول وغيرها من موضوعات الأدب والسياسة والتاريخ وقصص وحكايات الشباب.

بالعودة إلى الحديث عن الطائفية في العراق عمومًا، لا يمكن القبول بالقول الذي يردده الطائفيين اليوم، في أن بناء الدولة العراقية قام على أُسس طائفية، تُلقي وجهات النظر هذه اللوم تارة على سلطة الاحتلال البريطانية، ومرة على النخب الطائفية السُنّية التي شاركت في المراحل الأولى من تشكيل الدولة[١].

لا شك أن لا المعتمد البريطاني السير برسي كوكس المكلف بإدارة الشأن العراقي، ولا سكرتيرته المس بل، كانوا من المعنيين بمن هو أحق بالخلافة علي أو الشيخين، كما لا تعنيهم ما إذا كان الأفضل أو الأصح إسبال أو تكتف اليدين عند الصلاة، هم معنيين بتحقيق المصلحة الوطنية البريطانية بحدود تعلقها باحتلال العراق، ومن هو مستعد من العراقيين للتعاون معهم في سبيل ترسيخ الهيمنة البريطانية، والحفاظ على مصالح بلادهم سيقربونه ويخصونه بامتيازاتهم. سافر رونالد ستورز من مكتب العربي في القاهرة مع المس بل سكرتيرة دار الاعتماد البريطاني إلى النجف، للقاء مجتهدي الشيعة والمرجع الشيعي كاظم اليزدي، طالبًا منه التعاون في إدارة العراق، إلا أن اليزدي كان يفضل التعاون السري غير المعلن بالبريطانيين[٢]، بالمقابل كان اليزدي يواجه

١- لاحظ على سبيل المثال:

- عبد الكريم الازري، مشكلة الحكم في العراق، لندن: بلا دار نشر، ١٩٩١.
- د. سعيد السامرائي، الطائفية في العراق، لندن: مؤسسة الفجر، ١٩٩٣.
- حامد البياتي، شيعة العراق بين الطائفية والشبهات، لندن: دار رافد للنشر، ١٩٩٧.

٢- عن طبيعة علاقة اليزدي بالانجليز، وما كشفته المس بل في مذكراتها عن هذه العلاقة، راجع: د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الرابع، لندن دار كوفان، ١٩٩٢، ٣٦٥.

طلبات المشورة التي يطلبها منه زعماء العشائر بالامتناع عن إبداء أي رأي بحجة أنه لا يفهم في السياسة[1]، لجأت سلطات الاحتلال البريطاني لعبد الرحمن النقيب الذي بعد ما كان يتردد وافق على التعاون المكشوف، لذلك كلفه بتشكيل أول وزارة تابعة لدار الاعتماد البريطاني.

طرح الباحث العراقي علي الوردي تساؤلاً عن كيفية إقناع النقيب على هذا التعاون المكشوف بعدما كان مترددًا، ووضع احتمال أن يكون كوكس قد ضرب على الأوتار الطائفية الحساسة في قلب النقيب، فوافق على التعاون المكشوف[2]، اتخذ الشعوبيون المكلفون بمهمة الترويج لسياسة التقسيم والتحريض الطائفي، من احتمالية أو فرضية الوردي على أنها وثيقة تكشف مؤامرة سنية بقيادة النقيب – بريطانية بقيادة كوكس لإبعاد الشيعة عن الحكم.

كما أنه ليس من الصعب القول إن النخب العراقية التي كانت بالأصل مجموعة من الضباط العراقيين ممن كان يخدم في الجيش العثماني ثم تركوا خدمتهم هذه والتحقوا بالشريف حسين وابنه فيصل، كانوا جميعًا من العلمانيين، أو غير المتدينين، لا يعرف عن أي منهم ولم يظهر أنهم متمسكين بسلوك إسلامي، أو ممن يلتزم بأداء الفروض الإسلامية، أما كونهم جميعًا من السُنَّة ليست جريرتهم بل كانت هذه الظاهرة من نتائج التمييز التي اعتمدتها الحكومات العثمانية ضد الشيعة بحرمانهم من الاستخدام أو العمل في وظائف الدولة[3].

د. وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤، ص: ٣٣٨ وما بعدها.

١- عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، بلا تاريخ، ص: ٧٣.

٢- د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، الجزء السادس، ص:٢٢.

٣ – نفس المصدر.

الملك فيصل كان خيارًا شيعيًا، طالب به شيوخهم لتولي عرش العراق باعتباره من آل البيت، أو السادة الأشراف، وهو الآخر لم يبدُ منه ما يُوحي أنه كان ممن يعطي الكثير من الأهمية لأمور الدين، بشكل أو آخر. كان يريد أو يتطلع لتعاون الشيعة معه لتشكيل وزارته الأولى ليمنع الإنجليز من فرض عبد الرحمن النقيب عليه، أرسل الشيخ عبد الواحد سكر إلى النجف بمهمة إقناع مراجع الشيعة ووجهائهم للتعاون معه في تشكيل الوزارة، فكان ردهم بالرفض، حتى أن الشيخ عبد الواحد لم يُرجع الجواب للملك بل عاد إلى موطن سكناه دون أن ينقل الجواب، خجلاً من الملك[1].

كان الملك فيصل لا يرغب بالعمل مع عبد الرحمن النقيب، الذي أبدى خضوعًا كليًا للإنجليز، ما يثير مخاوف الملك فيصل من أن يفرضونه عليه، ما هي الخيارات أمام الملك فيصل، مراجع الشيعة يرفضون التعاون أو ترشيح من يرغبون للوزارة، والإنجليز يضغطون لإعادة تكليف عبد الرحمن النقيب لرئاسة الوزارة.

الحل الوحيد أمامه هو أن يجلس جانبًا في زاوية إحدى التكايا أو الجوامع بانتظار خروج المهدي ليشكل دولته تحت رايته، المشكلة ألا أحد من مجتهدي الشيعة يستطيع أن يحدد موعد مضبوط لخروج المهدي، حتى الخميني نفسه تعب من هذا الانتظار الممل فطرح نفسه نائبًا بالوكالة عن الإمام الغائب[2]، كان الانتظار مقبولاً في زمن الدولة العثمانية السكونية التي تعيش خارج التاريخ والزمن، هناك الآن أمر واقع قوات الإنجليز دخلت العراق، وهم كفار لا يؤمنوا بنظرية المهدي المنتظر، غير مستعدين للانتظار، يبحثون عن من يتعاون معهم لديهم خيارات وخطط جاهزة لتأكيد هيمنتهم وتحقيق مصالحهم في العراق.

١- نفس المصدر، الجزء الثالث، ص:٢٦٢-٢٦٣.

٢- نفس المصدر، ص: ١٢٢.

أضعف موقف مجتهدي الشيعة هذا الملك فيصل المتطلع للتخلص من الهيمنة البريطانية، لا يمتلك والحالة هذه إلا الخضوع لمطالب وشروط نخبة الضباط، لا يمكن القبول باتهام هؤلاء الضباط بالطائفية، مادام اتهام بعض مروجي الطائفية ينصب على عبد الرحمن النقيب، فالضباط كانوا مشمولين ببغض وكره عبد الرحمن النقيب كما هم الشيعة، لأنه يعتقد أن هؤلاء الضباط لا ينتمون لأصول عائلية محتدة النسب بل لعوائل بسيطة، أي أنه لا يمكن القول إنه حرضهم أو اتفق معهم، كما كان هؤلاء الضباط من المغضوب عليهم بريطانيًا وممنوعين من دخول العراق، لأن بينهم من يحمل أفكار قومية عربية مثل ياسين الهاشمي وأنصاره، ومن يحمل توجهات عراقية استقلالية غير مرغوبة من قبل الاحتلال البريطاني[1]، اضطر المعتمد البريطاني السماح لهم بالعودة للعراق، لقلة الكادر أو النخب المتعاونة بعد انعزال الشيعة.

كان هؤلاء الضباط مختلفين في ولاءاتهم واتجاهاتهم السياسية، بين القومي العربي الذي يتطلع لأن يجعل من العراق قاعدة قومية عربية لمناصرة ودعم القضايا العربية مثل ياسين الهاشمي ومجموعة النخب من المدنيين كرشيد عالي وساطع الحصري وأنصارهم من عرب العراق من الشيعة والسُنَّة، البعض الآخر منهم من يؤيد الهيمنة البريطانية على العراق كنوري السعيد وأعوانه، بينهم تقف مجموعات ممن ترفع شعار العراق للعراقيين.

توزعت معهم ولاءات شيوخ العشائر الشيعية دون حسابات طائفية، شكل العروبيون منهم ما عرف فيما بعد بجماعة أو حزب صليخ متابعة الأحداث، والنظر لها من زاوية موضوعية محايدة، تكشف أن طائفية الحكومات العراقية كانت إرادة أو نتاج لمواقف مجتهدي الشيعة منها، هم أرادوها، أو فرضوا عليها أن تكون كذلك.

١- حول مواقف الضباط العراقيين من الحكم في العراق، ومواقف بريطانيا تجاههم لاحظ: وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص: ١٥٧-١٦٩.

رغم تبرير مراجع الشيعة لموقفهم في مقاطعة الدولة العراقية الناشئة على أنه التزام بمبدأ يقول: إن أي دولة لا يحكمها إمام هي دولة لا شرعية، لا يجوز العمل بوظائفها المختلفة أو التعاون معها، وأنهم بانتظار الإمام الغائب، المهدي المنتظر لينضوا تحت لواء دولته، لذلك حرموا العمل بالوظائف أو إرسال الأطفال للمدارس في الدولة العراقية الوليدة، رغم أنهم كما قلنا هم من اختار الملك فيصل كملك عربي من آل البيت[1].

يمكن أن نُرجع موقف المجتهدين هذا إلى حقيقة أن أغلبهم كان من أصول إيرانية، محكومين بالخوف من أن تشاركهم أي قوة أخرى في ولاء شيعتهم، ما يُضعف من هيمنتهم على أتباعهم، يشكل هؤلاء الأتباع موردًا رئيسيًا من مواردهم المالية، وأرضية لمواقعهم الاجتماعية، لذلك فهم يتحذلقون في اجتهاداتهم لعزل الشيعة من دولتهم وعن بقية عرب العراق، ما يضمن لهم قوة الهيمنة والسيطرة على الطائفة، يريدون أن يعيشوا حياتهم بهدوء وسلام نفسي تحت ضغوطات النزعات الإنسانية التي فطرهم الله عليها، لا أحد منهم يضمن الجنة لنفسه، لماذا إذاً يتحمل آلام الحرمانات من لذات الدنيا بحورياتها وجناتها، ما دامت الحوريات الأصل فوق على الشجرة بالسماء.

من يستطيع أن ينفي صحة المثل القائل "إن عصفور أو حورية باليد خير من ألف عصفور في الشجرة أو حورية تنتظر في السماء"، إن الدين والمذهب هما أرحب أرض خيرة ليصبح العصفور باليد ألف عصفور، بشرط تعمية أو وضع الحجاب على عيون المغيبة عقولهم من التابعين، لمنعها وإبطال حسدها لهم، ليستفرد المجتهد أو الفقيه بحيازة العصافير والحوريات، إن الحسد وسوسة من وساوس الشيطان، الذي يوسوس لبعض الكفار أن يرفعوا الحجب عن أعينهم،

١- د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، الجزء الثالث، ص:٢٦٤.

كما أغرى من قبلهم أبونا آدم وأمنا حواء ليضحوا بالجنة مقابل تفاحة؛ قضمة من تفاحة تافهة، ألا لعنة الله على الشيطان الرجيم!

اكتشف مراجع وفقهاء الشيعة الذين هاجروا من العراق استنكارًا لإبعاد الشيخ مهدي الخالصي من قبل رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون؛ أنهم في بلدهم إيران يعيشون على هامش الحياة، محرومين من امتيازات الجاه والمال التي تمتعوا بها في العراق، عادوا هم أنفسهم يتوسطون لكسب رضى السعدون بالسماح لهم بالعودة لجنات النعيم، التي حرموا منها بعودتهم إلى بلدهم الأم، وافقوا على كل شروط السعدون بألا يتدخلوا في السياسة وأن تنحصر نشاطاتهم بالأمور الدينية[1]، لذلك تتجه سياساتهم إلى فرض الهوية الشيعية كبديل عن هوية المواطنة العراقية من خلال عزل المواطن العربي الشيعي عن بيئته العراقية ودولته.

كما كانوا لنفس السبب يتسقطون دائمًا اجتهادات الفقهاء العرب من عراقيين وغيرهم، تلك التي لا تتماشى مع خرافاتهم وأساطيرهم، ليعلنوها حربًا على هذا المجتهد أو ذاك خوفًا من أن يتمسك بمواطنته العراقية التي ستعزلهم وتحرمهم من عصافير جنة العراق، كما حصل مع الشيخ محمد الخالصي صاحب مشروع التقريب بين المذاهب، والداعي للوحدة الإسلامية، والسيد محمد صادق الصدر، والسيد محمد حسين فضل الله كما سنأتي للحديث بالتفصيل في الفصل القادم.

لا تحالف سني أو تجمع سني قرر أو صمم أن يكون الحكم في المملكة العراقية سنيًا ويهمش الشيعة، ولا مؤامرة بريطانية، بل هم مراجع الشيعة أنفسهم من عمل على تصميم وتصنيع الدولة بهذا الشكل.

١- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الأول، بلا دار نشر، ط٧، ١٩٨٨، ص:١٧٥-١٧٧.

عندما طرح الإنجليز فكرة الإقرار بمعاهدة تنظم علاقة الدولة العراقية الناشئة، التي يجب أن تخضع لاستفتاء شعبي من خلال انتخاب مجلس تأسيسي عراقي يوافق على المعاهدة لإضفاء الشرعية عليها، ولإقرار دستور جديد للدولة.

انبرى الشيخ مهدي الخالصي وتبعه بقية المجتهدين ورجال الدين في النجف، ليدعوا لمقاطعة انتخابات المجلس التأسيسي، نشروا الفتاوى مشددين على ضرورة تحقيق الاستقلال التام، حلم يبدو طوباوي في وقتها، فالإنجليز لم يأتوا ويقدموا الضحايا من أجل أن يخرجوا بسهولة من أجل عيون الشيعة وشيوخهم، إن خروجهم من العراق يحتاج لثورة جديدة غير مضمونة النجاح والنتائج، كسابقتها، فالبريطانيون جاؤوا بخبرات ومعارف وتجارب عسكرية استعمارية تمكنهم من القدرة على التغلب على مثل هكذا توجهات، بمواجهة شعب بنخب سياسية كانت حتى سنوات قليلة تعاني من اضطهاد دولة مهيمنة، هي أصلاً محكومة بعائلة من مخلفات القرون الوسطى.

كان هناك نموذج من الصراع والتنازع بين أحلام أقرب للطوبائية، وسياسة الممكن، لم ينتهِ إلا بقرار رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون (أول رئيس وزارة تشكل بأمرة الملك فيصل) بإبعاد الخالصي ومجموعة من أبناءه وأقاربه إلى إيران.

يبدو أن شيوخ العشائر الشيعية، رغم تقديرهم واحترامهم بمراجعهم إلا أنهم غير مقتنعين بمواقفهم الأخيرة، لذلك لم يتحرك أحد منهم لاستنكار هذا الإبعاد أو الحيف الذي وقع على الخالصي، ما شجع السعدون على أن يبعد٣٤ من رجال الدين من أصول إيرانية، ليمضي بعملية انتخاب المجلس التأسيسي، وإقرار المعاهدة العراقية – البريطانية.

حصلت حادثتين أخريين يضفي عليهما مروجي الطائفية من الشعوبيين أهمية كبرى للدلالة على طائفية الحكومات العراقية، الملام بهما هذه المرة ساطع الحصري.

ساطع الحصري كان واحدًا من المثقفين العرب الذي أظهر قدرات فكرية مميزة في الدولة العثمانية، اشتغل لخمس سنوات مدرسًا في المدارس الثانوية، ثم تعين قائمقام لمدة ٣ سنوات قبل أن ينتقل إلى اسطنبول مديرًا لدار المعلمين العالية، له عدة مؤلفات، كما أصدر في اسطنبول مجلة التربية، لسنوات عدة أثبت من خلال ما ينشره من نظريات تربوية؛ خبرات مميزة ونظريات جديدة في التربية والتعليم، بقي في منصبه هذا حتى قيام الثورة العربية الكبرى، وانفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية، التحق بالأمير فيصل (ملك العراق فيما بعد) الذي عينه وزيرًا للمعارف (الاسم المستخدم حينها لوزارة التربية والتعليم) في المملكة العربية التي شكلها الملك فيصل في الشام عام ١٩١٨، استمرت سنتين إلى حين إسقاطها بالقوة من قبل الجنرال الفرنسي غورو[١].

عندما تمَّ تنصيب فيصل ملكًا على العراق، تبعه ساطع الحصري، الذي رفض أن يستلم وزارة المعارف مفضلاً عليها وظيفة مدير عام الوزارة، لتغير الوزارات بشكل سريع في المملكة العراقية التي لم تستقر بعد بشكل كلي، يحتاج برنامجه التربوي للنهوض بوزارة التربية والتعليم إلى ثبات ووقت طويل.

١- للتعرف على حياة ونظريات ساطع الحصري يمكن الإطلاع على كتبه العديدة، أو العودة إلى المصادر التالية:

- **تيخونوفا، ساطع الحصري/ رائد المنحى العلماني في الفكر العربي، موسكو: دار التقدم ١٩٨٧.**
- **وليم كليفلاند، ساطع الحصري/ من الفكرة العثمانية إلى العروبة، ترجمة: فكتور سحاب، بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣.**
- **أحمد يوسف وآخرون، ساطع الحصري/ ثلاثون عامًا على الرحيل، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.**
- **د. موسى الحسيني، ساطع الحصري والخطاب الطائفي الجديد، لندن: دار الكوثر، ٢٠٠٠.**

سبق أن أشرنا إلى أن مراجع الشيعة أفتوا بتحريم العمل بوظائف الدولة العراقية أو إرسال الأطفال للدراسة في مدارسها ، بالمقابل كان الملك فيصل يصر على ضرورة أن يكون هناك وزيرين من الشيعة على الأقل ، خصصت وزارة المعارف ووزارة أخرى للشيعة ، كان الملك فيصل مطمئن من خبرة وكفاءة ساطع في إدارة الوزارة وتطويرها ، إن اختيار وزير شيعي للمعارف كان يهدف تشجيعهم على إرسال أبنائهم للمدارس.

شكلت قضية إيجاد وزير شيعي للمعارف مشكلة عند كل حالة تغير وزاري ، مع أهمية رمزية وجوده لمنع الاعتقاد بإبعاد الشيعة عن الحكومة ، أصبح المطلوب إيجاد وزير شيعي ولو بأدنى المواصفات ، المهم أنه يقرأ ويكتب ويقبل بالعمل في الدولة ، تمَّ العثور في وزارة جعفر العسكري عام ١٩٢٦ ، على عبد المهدي المنتفكي ، الذي وافق على كسر فتاوى المراجع في تحريم الخدمة في حكومات غير شيعية ولا تأتمر بقيادة واحد من الأئمة ، أي أن الرجل ما كان ليعير ولو أدنى اهتمام لفتاوى المراجع، ولم يعرف عنه من قبل كرمز من رموز الشيعة، فامتيازات وزير خير من ألف حسنة أو قصر بالجنة بكل حوره العين السبعين التي يعد بها رجال الدين أتباعهم في الآخرة.

كانت الهوة كبيرة بما لا يمكن أن تقاس بين مدير عام مفكر وخبير بشؤون الثقافة والتعليم يمتلك تراكم من الخبرات التربوية والإدارية، ووزير أمي تعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب، مهنته الأصلية مهوسجي، أي شاعر شعبي، ينظم بعض الأهازيج في مدح هذا وذاك من شيوخ الإقطاع مقابل أن يعطفوا عليه بهدية مما جاد بها الله عليهم.

هو الآن وزير، لعله ما كان يحلم يومًا أن يكون فراش أو قهوجي بباب الوزير ، مقابل مدير عام خبير، مثقف، يشهد له العرب والأتراك بسعة الخبرة بشؤون التربية والتعليم، وهو أيضًا لا الوزير يمتلك الصلاحية وفقًا لقانون الوزارة في تعين من يراه مؤهل لأن يكون معلمًا في مدارس العراق.. لا يلومن أحد عبد

المهدي المنتفكي ، الإحساس والشعور بالصغر ، أمام مديره العام ، إحساسات كهذه تدفع وتعزز أحيانًا دوافع التحدي والمجابهة.

قضية تعيين الجواهري معلمًا للغة العربية في المدارس الابتدائية :

كان الحصري ينوي السفر للنجف ، التي داوم على زيارتها ، استغل الوزير الفرصة ليتوسط عنده في تعيين شاب شاعر مبدع ، لم يكن الجواهري عندها معروفًا ، سأل عنه الحصري مضيفيه من الشيعة من أهل النجف ، فكانوا أن أعطوا الحصري صورة سيئة عنه ، كشاب فاسد لا يستحق الاهتمام ، أصر ساطع على رؤيته إكرامًا للوزير الذي أوصاه به ، يبدو أن عائلة الجواهري كغيرها من آلاف العائلات العراقية العربية كانت تفضل خلال فترة الحكم العثماني للعراق التجنس بالجنسية الإيرانية تهربًا من أداء الخدمة العسكرية والضرائب التي تفرضها الدولة العثمانية على مواطنيها[١] ، لم يحاول الجواهري تغيير جنسيته ، رفض الحصري تعينه إلا بعد أن استبدل الجواهري جنسيته الإيرانية بالعراقية.

كانت صدمة للوزير الأمي الذي رأى بموقف الحصري ما يعني أن لا كلمة له بالوزارة ، ومثلها للحصري أيضًا الذي رأى أن الوزير لا يعطي أي اعتبار للوائح القانونية والإدارية.

تربص الاثنين الواحد ضد الآخر ، الحصري مسلحًا بالقانون والحرص على المصلحة الوطنية العراقية ، وإنجاح ما مكلف به من مهمة الارتقاء بوزارة

١- ناقش علي المؤمن الأسباب التي دفعت بعض العرب في العراق إلى التجنس بالجنسية الإيرانية في زمن الدولة العثمانية، لاحظ: علي المؤمن، سنوات الجمر، لندن: دار المسيرة، ١٩٩٣، ص:٢١٥- ٢١٨.

التربية والتعليم، ولا سلاح للوزير الأمي إلا أن يلجأ للنعرات الطائفية في صراعه مع الحصري حول الصلاحيات في الوزارة[1].

ظل الحصري يتربص بالجواهري الذي نشر قصيدة له يتغنى بها بالطبيعة في إيران فقام بفصله مباشرة.. لم يفوتها له الوزير التي تصاعد إحساسه بالصغر إلى حد أنه لا يستطيع تعيين معلم بمدرسة ابتدائية، وعند تعيينه بوساطة الملك لا يتردد الحصري من طرده بحجة واهية.

قبل ذاك كان الحصري قد تعاقد مع مجموعة من خريجي الكليات من السوريين واللبنانيين لسد النقص في التعليم الثانوي، أصبحوا هم موضوع رصد الوزير الذي عرف أو اكتشف أن أحدهم كان قد كتب كتاب عن تاريخ الدولة الأموية، المكروهة من قبل الشيعة والمدانة بمحاربة الإمام علي، وقتل الإمام الحسين، فكانت فرصته الذهبية ليخلق منها مشكلة.

تحقق للوزير ما أراد وما يمكن أن يُهدئ شعوره بالنقص أمام مديره العام، تمَّ طرد المدرس، فخرج بعض طلاب الثانوية ودار المعلمين في بغداد بمظاهرة استنكار لما اعتبروه تقييد لحرية الفكر، شارك بها الطلاب الشيعية رفاقهم طلاب السُنَّة فيما اعتبروه حيفًا وقع على أستاذهم، وتجاوزًا على حرية الرأي، انتهى الموضوع عند حد طرد بعض الطلاب من مدارسهم[2].

١- للإطلاع على تفاصيل قضية الجواهري من وجهة نظر الحصري راجع: ساطع الحصري: مذكراتي في العراق -١٩٢١-١٩٢٧، الجزء الأول، بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧، ص:٥٨٨-٦٠٢.. كما تتضح طبيعة النزاع بين الحصري والمنتفكي على كونه نزاع حول الصلاحيات من خلال المراسلات التي حصلت بين الاثنين حول توظيف الجواهري، المذكرات: ص:٥٩١-٦٠٢.

٢- حول قضية النصولي راجع:

- نفس المصدر، ص: ٥٥٧-٥٧٥.

- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص:٨٨-٨٩.

- حسين جميل، العراق – شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠، لندن: دار الام، ١٩٨٧، ص:١٨٣-٢٠١.

اعتبر بعض الشعوبيين من الداعين لتقسيم العراق أن هذين الموضوعين يشكلان دلالة كبرى على طائفية الحصري، وبالتالي طائفية الدولة العراقية بوزاراتها المختلفة، تلك هي أهم مفاصل أو محطات التنافر الشيعي – السُّني، التي بقيت مهما حاول البعض أن يُلبسها ثوب الأحداث الكبرى محصورة بين النخب ولم تنزل للشارع أو تأخذ اهتمام الرأي العام.

التمحيص الدقيق لتفاصيل الحادثتين يؤشر أن لا علاقة للمعتقدات المذهبية أو الطائفية بالأمر، بل كانا نتاج صراع على الامتيازات والصلاحيات الإدارية بين وزير المعارف الأمي عبد المهدي المنتفكي، الذي تعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب، لا علاقة تربطه بالتربية أو التعليم أو الثقافة والفكر، فهو ليس إلا (مهوسجي) أي شاعر أهازيج شعبية يقرأها في المناسبات الشخصية والعامة طمعًا في عطاء من يمتدحهم، مع مدير المعارف العام ساطع الحصري، مفكر، صاحب نظريات معروفة في التربية والتعليم، علماني حتى إنه ما كان يعرف أن هناك مذاهب وفروقات وانقسامات مذهبية في الإسلام إلا وهو في طريقه للعراق لاستلام منصبه، حيث سمع لأول مرة أن هناك مذهب يسمى التشيع، ويتعرف على الفروق بين المذهبين من رفيقه في السفر الشاعر عبد المحسن الكاظمي، وهو شيعي أيضًا، فليس من المعقول أن يعطي صورة أو انطباع سيء عن الشيعة للحصري[١].

كان عبد المهدي المنتفكي وزير يرى في الوزارة امتياز ووجاهة يتطلع لأن يستغل منصبه ويتصرف بالوزارة بالكيفية التي تعزز مكانته الاجتماعية أو ترضي غروره، وهو يجد نفسه فجأة يقف في صف النخبة العراقية بمنصب لا يحلم به، بل قد لا يكون يحلم أن يكون آذنًا في باب الوزير، ومدير عام يرى في المنصب مسؤولية والتزام يخضعان لمعايير علمية، منهجية محددة وثابتة، كانت صلاحيات تعيين الموظفين ووضع واختيار المناهج، والسياسة العامة

١– ساطع الحصري، مصدر سابق، ص:١٤.

للوزارة من صلاحيات ساطع الحصري، لا يمتلك الوزير خبرة إدارية أو منهجية يمكن أن يواجه بها الحصري، ظل الوزير يتسقط خطوات الحصري ليعطيها معنى طائفي، فالطائفية هنا كانت سلاح الوزير الوحيدة لا حرصًا على الشيعة والتشيع، بل وسيلة يستنجد الوزير عون الآخرين بها للخلاص من قيود الحصري عليه، بأمل أن يحصل على بعض من امتيازاته وصلاحياته.

من الوقائع التي تؤشر إلى غياب الدوافع الطائفية الحقيقية عند عبد الهادي المنتفكي بعد حوالي السنتين، والمنتفكي خارج الوزارة، حصلت حركات تمرد عشائري لعشائر بني ركاب التي تقطن نفس المنطقة التي ينتسب لها المنتفكي، فانتدبه وزير الداخلية في حينها رشيد عالي كوسيط لحل الخلاف بين العشائر المتمردة والحكومة، عندما رفضت العشائر المتمردة وساطته، وكان يطالبهم بإنهاء التمرد بدون قيد أو شرط، وجه المنتفكي نداء لوزير الداخلية بضرورة استخدام كافة أشكال القوة والشدة لقمع المتمردين، وضربهم بالمدفعية والطيران[١]، بني ركاب من العشائر الشيعية المعروفة ومن سكنة مسقط رأسه..

السؤال الغريب كيف يفسر المنتفكي اتهاماته للحصري بالطائفية، ويفتعل تلك الضجة لرفض الحصري تعيين معلم شيعي – الجواهري – لا يمتلك الوثائق المطلوبة للتعين، ولا يتحرج من تحريض الحكومة لقتل أبناء العشائر الشيعية وإهدار دمائهم لأنهم رفضوا وساطته التي كان يبغي منها على ما يبدو تعزيز مكانته عند وزير الداخلية، آملاً بأن يحظى بمقعد وزاري جديد، نجح المندوب الذي أعقبه، جعفر حمندي متصرف (محافظ) الناصرية، في تسوية الخلاف بين الحكومة والمتمردين دون الحاجة لاستخدام القوة التي دعى لها أو طالب بها المنتفكي.

١- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص:١٦١-١٦٥.

لاحظ عالم الاجتماع العراقي علي الوردي السمة التي اتخذتها الطائفية في حينها ، فيصفها: "بدأت الطائفية في العراق تأخذ شكلاً جديدًا ، فبعد أن كانت الطائفية نزاعًا مذهبيًا ؛ أصبحت الآن نزاعًا على الوظائف"[١].

إن الارتباط بين النزعات الطائفية والوظائف يعود سببها إلى العوامل التالية :

الأول: حرَّم مجتهدو الشيعة الدخول في مدارس الدولة، أو العمل في وظائفها، إلا أن الشيعة أدركوا لا منطقية هذا التحريم والمنع ، فبدأوا يدخلون أولادهم المدارس ، وينشدون التوظيف في دوائر الدولة بوقت متأخر نسبيًا عن أبناء الطائفة السُنّية ، كان من الطبيعي ألا يجدوا فرصًا للعمل في مؤسسات الدولة بنفس السهولة التي توفرت لأبناء السُنَّة عند بداية تَشكلْ الدولة العراقية.

الثاني: تعمدت الدولة العثمانية حرمان أبناء الطائفة الشيعية من دخول المدارس الرسمية ، أو التعين بوظائف الدولة ، فكان من الطبيعي أن يكون هناك كادر متعلم من الموظفين الذين خبروا العمل الوظيفي من أبناء الطائفة السُنّية في العراق، لم يتوفر مثله عند الشيعة، يغدو من الطبيعي أيضًا أن يحتل هذا الكادر الوظائف الحكومية في الدولة العراقية الحديثة ، الطائفية هنا ليست موقفًا من سُنة العراق ضد إخوانهم الشيعة؛ بل نتيجة للمواقف الطائفية للدولة العثمانية[٢].

الثالث: لعبت ما يُعرف بالمحسوبية والمنسوبية دورًا مهمًا في قضية الوظائف والتوظيف ، لكن أحد لم ينتبه إلى حقيقة أن هذه المحسوبية لا تعكس موقفًا طائفيًا ؛ بل حالة من الالتزام أو الولاء للعشيرة والمدينة ، عندما يتقدم اثنان من أبناء الطائفة السُنّية، مثلاً، لوظيفة في دائرة؛ أحدهما من نفس مدينة أو عشيرة صاحب القرار أو المدير في الدائرة المعنية، والآخر من مدينة أخرى، لا شك أن صاحب القرار أو المدير سيفضل ابن مدينته أو عشيرته، حتى ولو كان أقل

١- د.علي الوردي، وعاظ السلاطين، لندن: دار كوفان، ١٩٩٥، ص:٢٦٠.

٢- د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص:٢٦٢-٢٦٣.

خبرة أو كفاءة من الآخر ، إن من المعروف مثلاً أن مولود مخلص كان يدفع ويشجع ويتوسط لقبول أبناء مدينته تكريت للدخول في الكلية العسكرية ، وبقية الكليات أو الالتحاق ببقية وظائف الدولة[١].

رابعًا: حاول رئيس الوزراء الشيعي السيد محمد الصدر تشجيع أبناء مشايخ الطائفة الشيعية للالتحاق بالكلية العسكرية ، التحق خمسة منهم ، ثم انسحب محمد منشد الحبيب وآخر معه بعد أيام من الدوام في الكلية ، مستنكرين وهم أبناء المشايخ، المصطلحات العسكرية التي تلزم الما دون أن يستجيب للما فوق ويخاطبه بمصطلح (سيدي)، وغيرها من مصطلحات الخدمة العسكرية، وهم لا يعرفون أصل وفصل هذا الأمر (أو الما فوق)، في حين ارتقى الطلاب الثلاثة الذين استمرا في الكلية ، ناجي طالب ، محسن حسين الحبيب وحميد الحصونة ، أعلى المناصب والرتب في الجيش العراقي دون أن يُؤثر انتمائهما الطائفي عليهما ، ووصل ناجي طالب لمنصب رئيس الوزراء مرتين أيام حكم الأخوين عارف ، واستلم عدة وزارات في العهد الجمهوري ، واستلم محسن حسين الحبيب وزارة الدفاع في وزارة طاهر يحيى (المتهم هو الآخر بالطائفية) ، واستلم حميد الحصونة قيادة الفرقة الأولى أهم وأقوى الفرق العسكرية العراقية.

عاد الحديث عن طائفية الوظائف للظهور بشدة في زمن الرئيس عبد السلام عارف ، كانت توجهات عارف القومية تثير مخاوف شاه إيران من أن يمضي عبد السلام عارف قدمًا في التقارب مع عبد الناصر ، إلى حد إعلان الوحدة بين مصر الناصرية (ج.ع.م) ، فراح يحرك عليه الأكراد في الشمال يدعم تمردهم بالمال والسلاح ، من جهة ، ودفع المرجع الديني في حينها محسن الحكيم

---

١ – حول تفشي ظاهرة الوساطة والمحسوبية والمنسوبية في العراق، لاحظ: د.علي الوردي، طبيعة المجتمع العراقي، طهران: انتشارات المكتبة الحيدرية، ١٩٩٦، ص:٣٥٨.

ليتحرك ضغطًا على عبد السلام بحجة أن الوحدة ستجعل من الشيعة أقلية في الدولة الجديدة[1].

عندما يأخذ الإنسان بالحسبان، زيارة السفير الأمريكي لمحسن الحكيم بعد فترة من إصداره الفتوى ضد الشيوعية، تلك الزيارة التي لا شك أنها أطرت العلاقة بنمط معين من الأواصر وروابط التعاون بين الطرفين، مقابل ما تمثله المرحلة من وصول الخلافات والنزاعات بين الحركة القومية العربية ممثلة بزعامة عبد الناصر والغرب بقيادة أمريكا، ذروتها.. لا شك أن أمريكا لم ولن تستسلم لمخاوفها، ولا تفوت فرصة العلاقة مع محسن الحكيم هذه دون الاستفادة منها في المواقف المحرجة والمحبطة لتوجهاتها في المنطقة العربية، سواء كان التحريض الأمريكي لمحسن الحكيم تمَّ بشكل مباشر أو من خلال الحليف الأقوى لها شاه إيران، لذلك لا يمكن تغييبه عن الصورة كعامل دفع لمحسن الحكيم في موقفه المعادي لسير الحركة القومية العربية في العراق.

كان تحرك محسن الحكيم بهذا الاتجاه يمثل أخطر وأخبث مرحلة من مراحل التحرك الشعوبي الفارسي المندس في التشيع، فهو بمعانيه ودلالاته العميقة يعني طرح الهوية الطائفية كبديل عن الهوية العربية، بل حتى بديل عن هوية المواطنة العراقية، وطرح المصلحة الوطنية والأمن الوطني العراقي أو العربي جانبًا لصالح الهوية الطائفية، والأمن القومي الإيراني وحتى الإسرائيلي، كانت تلك هي الخطوة الأولى باتجاه تقسيم العراق (مشروع استراتيجية إسرائيل لثمانينات وتسعينات القرن العشرين)، الذي نجد أبناء الحكيم وأحفاده يسيرون على نهج الأب محسن الحكيم في فترة ما بعد الاحتلال.

١- حول مخاوف الشاه وردود فعله تجاه التقارب العراقي – المصري، لاحظ: صبحي عبد الحميد، مذكرات: العراق في سنوات الستينات ١٩٦٠-١٩٦٨، دمشق: دار بابل، ص: ١١٩-١٢٥.

ترافقت المرحلة مع تزايد أعداد خريجي الثانوية العامة بأعداد لا تستوعبها دوائر الدولة، ولا إمكانيات جامعة بغداد (كانت هي الجامعة الوحيدة في حين أن كل من جامعتي الموصل والبصرة كانتا في طور الإعداد والتكوين).

سبق أن أشرنا إلى أن مراجع الشيعة كانوا قد حرموا الدخول في دوائر الدولة ومدارسها، كسر أبناء الطائفة هذا التحريم بتسارع كبير منذ نهاية أربعينات القرن العشرين، وارتفعت أعداد الملتحقين بالمدارس الحكومية بحجم كبير تتناسب وحجمهم السكاني، ظهرت نتائج هذه الظاهرة في بداية الستينات بشكل واضح ومكشوف، آلاف من خريجي الثانوية لم يجدوا لهم من الأماكن ما يمكن أن يستوعبهم، لا في الجامعة، ولا في دوائر الدولة.

بينما كان من الممكن حتى نهاية الخمسينات أن يجد خريج المدرسة الابتدائية أو المتوسطة مكاناً للحصول على وظيفة في الدولة أو في بعض المعاهد الوسطية.. استغل محسن الحكيم وأتباعه هذه الظاهرة ليروجوا لفكرة أنها عملية مقصودة ومنظمة من قبل عبد السلام عارف الطائفي ضد الطلاب الشيعة، كما بدأ ينشط في كافة المجالات لبث وتأجيج المشاعر الطائفية.

كان عبد الكريم قاسم قد شكَّل قانون مجلس الخدمة المدنية، جرد بموجبه الدوائر والوزارات صلاحية التوظيف وحصرها بمؤسسة جديدة أسماها (مجلس الخدمة)، أي أن أية دائرة أو وزارة تحتاج لتعيين عدد من الموظفين الجدد، تقوم بإرسال بيانات عن حاجتها بالعدد والاختصاصات المطلوبة لمجلس الخدمة الذي يعلن بدوره رسميًا عن حاجته لمن يرغب للتعيين في وزارات الدولة، لتتم المفاضلة بين المتقدمين على أساس الكفاءة.

سواء كان بمبادرة من عبد السلام عارف، أو استجابة منه لهذه الضغوطات الطائفية؛ عين الدكتور محمد حسين آل ياسين وهو شيعي رئيسًا لهذا المجلس،

وعندما أكمل مدة خدمته، وهي ٥ سنوات عين من بعده مشكور أبو طبيخ، الذي استمر حتى انقلاب البعث في تموز١٩٦٨[١].

الغريب بالأمر أن الحزب الشيوعي العراقي بدأ يساهم وبنشاط في استغلال ظاهرة تزايد الخريجين العاطلين عن العمل هذه، ليروج هو الآخر لإشاعة كونها نتيجة لسياسة عبد السلام الطائفية، من خلال الترويج لفكرة أو إشاعة (الشينات الثلاثة) أي شيعي، شيوعي، شروقي (من سكان مدن شرق دجلة الجنوبية، وهي مدن ذات غالبية شيعية مطلقة) بمعنى آخر تقول الفكرة إن أي شيعي يتقدم للعمل في وظائف الدولة أو الانتساب للجامعة؛ يكتب الموظف المسؤول عن استلام الطلبات (٣ ش) على الملف ويركنه جانبًا للإهمال.

روج الحزب الشيوعي المُعادي لمشروع الوحدة أيضًا ، لأهزوجة خبيثة أخرى ذات دلالة (حاج مشن سفن آب، راح لمصر جاب قحاب)، المقصود بالحاج مشن هو عبد السلام عارف، سخرية.. الحاج تعني أنه متدين، وبما أنه متدين فهو بالضرورة طائفي, والرمز لمصر بالقحاب، يشير ألا فائدة من الوحدة مع مصر غير نشر الرذيلة كما تظهر من خلال شيوع وصلات الرقص في الأفلام المصرية، تبنت بطانة الحكيم نفس الشعارات لتروج لها، فانتشرت في مدن الجنوب وحتى في القرى النائية مثل هذه الاشاعات.

مؤشر خطير يعني أن الشعوبيين يتناسوا بمواجهة الأهداف الكبرى عداءاتهم البينية، يلتقي أقصى اليسار بأقصى اليمين بحركة واحدة في عدائهم وكرههم للعرب ، هكذا كان ظهور هذه الموجة من المشاعر الطائفية لا علاقة لها بالمذهب ولا بحقوق الطائفة بقدر ما الغاية منها كانت تطمين مخاوف النقيضين (شاه إيران وأمريكا من طرف والحزب الشيوعي العراقي من طرف آخر) من

١- راجع ما كتبه الأستاذ صبحي عبد الحميد من رد على جلال الطالباني في محاولته إثارة النعرات الطائفية بين الشيعة والسنة بحجة مظلومية الشيعة، على الرابط التالي:

http://articles-to-read.blogspot.co.uk/2008/01/blog-post_5700.html

احتمالية قيام الوحدة بين مصر والعراق، لأول مرة في التاريخ أيضًا يوضع الشيعة بمقابل العرب لصالح إيران وخدمة للمصلحة الوطنية والأمن الوطني الإيراني، نفس النهج الذي سار عليه أولاد الحكيم من بعده.

في ١٤ تموز ١٩٦٤ أعلن عبد السلام ما يُعرف بالقرارات الاشتراكية فكانت فرصة أخرى للحكيم ليعلن احتجاجه ضدها، واعتبارها خطوة طائفية المقصود بها ضرب مصالح التجار الشيعة، مع أن التأميمات الكبرى أضرت بمصالح الرأسماليين من السُنَّة لا الشيعة، مثل فتاح باشا، محمد حديد، جقمجي، الدامرجي وغيرهم من أصحاب كبار الشركات والمصانع من السنة، ولم يتضرر أحد من تجار الشيعة الذين كان غالبيتهم يعمل في سوق الشورجة كموزعين لما تنتجه هذه المعامل من بضائع.

قد تكون التأميمات أثرت أو أربكت العمل في المؤسسات المؤممة؛ ما أثر بشكل غير مباشر على أعمال تجار الشورجة الذين تعتمد تجارتهم على التوزيع، لكنهم ليسوا هم المقصودين، ولم يكونوا المتضررين مباشرة من التأميمات، التفسير أن تجار الشورجة الذين أرهقتهم مطالبات الحكيم بالخمس والزكاة، أخذوا من القرارات الاشتراكية عذر ليتخلصوا من هذا الابتزاز فتوقفوا عن الدفع، إذا كان هناك من دلالات طائفية للقرارات الاشتراكية يمكن القول إنها كانت موجهة قصدًا ضد الرأسمالية السُنّية لا الشيعية[١].

إن قراءة أحداث المرحلة تُشير إلى أن طائفية محسن الحكيم لا علاقة لها بالحرص على الطائفة ولا المذهب، كانت تيارًا شعوبيًا بخدمة شاه إيران

١- حول القرارات الاشتراكية، نصها، آثارها ونتائجها يمكن مراجعة:

- صبحي عبد الحميد: مذكرات، مصدر سابق، ص:١٦٣-١٦٦، إضافة للملاحق، كذلك:
- أمين هويدي، كنت سفيرًا في العراق ١٩٦٣-١٩٦٥، القاهرة: دار المستقبل العربي: ١٩٨٣، ص:١٩٦ - ٢١٥.
- مجيد خدوري، العراق الجمهوري، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤، ٣١٢-٣١٥.

المرعوب من التقارب العراقي – المصري، والخائف من قيام دولة قوية على حدوده الغربية، مقابل محاولات عبد السلام الكثيرة لتطمين محسن الحكيم في أن سياسته لا تستهدف الشيعة، فكان لأول مرة بتاريخ العراق تأتي وزارة طاهر يحيى تتضمن ٧ وزراء شيعة من ٢١ وزير، لأول مرة أيضًا يستلم وزارة الدفاع ضابط شيعي هو محسن حسين الحبيب. وأن يُعين رؤوساء لمجلس الخدمة الخاص بالتوظيف بالدوائر العراقية من الشيعة من أبناء عوائل شيعية – عربية عريقة[١].. هذه الوقائع تُثبت حقيقة أن عبد السلام عارف كان واقعًا تحت ابتزاز الاتهام بالطائفية لا العكس.

من الحوادث المخجلة والتي بدأت تكشف مواقف محسن الحكيم الشعوبية الحاقدة الحقيرة، وتقلل من احترامه عند عامة الشيعة؛ هي ما حصل من اختلاف حول رؤية هلال عيد الفطر في عام ١٩٦٤، تتعمد إيران ومراجعها تأخير مواعيد عيدي الفطر والأضحى يوم واحد؛ بغية تعزيز مشاعر الإيرانيين بالوحدة والتفرد والاختلاف عن بقية المسلمين، ويتعمد مراجع الشيعية في العراق من الإيرانيين ولاءً ونسبًا، باعتماد الطريقة الفارسية في تأكيد رؤية الهلال الخاص بالعيدين، حتى صار شيعة الجنوب من الجهلة يسمون العيد بتسميتين: عيد الحكومة، عيد المسلمين.

أراد عبد السلام أن يغلق باب الاختلاف ويحقق وحدة الشعب بفرحته بالعيد، ورغم أن الجهات الرسمية الحكومية أكدت رؤية الهلال بعد ٢٩ يوم من الصيام، فرض عبد السلام إرادته، ومنع الإعلان الرسمي عن العيد، واعتبار اليوم التالي هو يوم إكمال العدة بأمل أن يتوحد عيد الطرفين، وتم ذلك، لم يبقَ أمام عبد السلام إلا أن يعلن العيد في اليوم الثاني منه، فالهلال بدا يبدو للعارفين هلال أبو ليلتين، وحجته بإكمال العدة انتهى مفعولها.

١– حول وزارة طاهر يحيى راجع: مجيد خدوري، مصدر سابق، ص:٢٩٥ –٣١٨.

مع ذلك أصر محسن الحكيم على القول بإنه لم يثبت عنده رؤية الهلال، وأَخَّر العيد يومًا ثالث، حتى لم يبقَ له من عذر والهلال بدا بوضوح هلال الليلة الثالثة، أي أنه ألزم الشيعة أن يصوموا يومين من عيدهم، كانت مسخرة ضحك منها الشيعة قبل السنة، لكنها كانت دلالة كبرى على توجه محسن الحكيم لتقسيم المسلمين وعزل الشيعة من عرب العراق عن دولتهم وفرض الهوية الطائفية كبديل لهم عن هوية المواطنة العراقية.

إن علاقة عبد السلام بالمراجع الشيعة من العرب كانت تصل إلى حد الصداقة الشخصية، كما هو الحال في علاقته بالشيخ محمد الخالصي، لعل هذه الصداقة كانت أحد أهم أسباب حقد محسن الحكيم على عبد السلام بتأثير الحسد والغيرة.

تتوحد التوجهات الشعوبية الكارهة لكل ما هو عربي خدمة للشاه ومصالح إيران الأمنية والقومية، كما هو موقف محسن الحكيم، مع التوجهات الشعوبية عند من ينتسبون للتشيع اسمًا، ممن هم من أصول هندية أو فارسية من المحسوبين على النخب الثقافية العراقية لتصنيع مؤامرات سنية لإبعاد الشيعة من عرب العراق عن الحكم، تمتزج هذه التوجهات مع مشاعر الإحساس بالدونية والنقص عند بعضهم لتفبرك القصص الغريبة عن مؤامرات سنية بالاتفاق مع المعتمد البريطاني لإبعاد الشيعة عن الحكم، تطورت أساليب هذه الحملات لتربط الطائفية هذه المرة برموز قومية عربية مثل ساطع الحصري للإيحاء أو لتشكل توجهات جديدة عند جُهَّال الشيعة بأن كل ما هو قومي عربي يستهدفهم كطائفة وهدف لتجريدهم من هويتهم العربية، فتأتي كخطوة مكملة لتوجهات المراجع من التبعية الإيرانية لعزل الشيعة عن دولتهم الوطنية وإحلال فكرة الهوية الشيعية كبديل عن هوية المواطن في الدولة العراقية.

هدأت الطائفية خلال عهد الرئيس عبد الرحمن عارف، بعد تراجع موضوع الوحدة بين العراق ومصر الناصرية وتناسى الناس حاج مشن وشيناته الثلاث، إلى أن أججها ثانية نظام البعث كما سيأتي الحديث عنه في الفصل القادم.

محطات التجاذب:

مقابل محطات التنافر الواضحة كونها مُصنعة عمدًا في أعلاه التي يضخمها تجار الطائفية، وأصحاب الارتباطات المشبوهة، ليصنعوا منها أحداث ضخام ذات مدلولات خطرة على وجود مؤامرات مقصودة ومخططة لإبعاد الشيعة من عرب العراق عن الحكم، فإن الكثير من أحداث عهد الملكية في العراق تنقض كل قصصهم المفبركة، وتؤكد إلى حصول تلاحم بين الطائفتين أمام أحداث فعلية وقعت خلال في حينها تنفي كل إدعاءاتهم المغرضة.

١: عندما أعلنت بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية ، ووصلت طلائع جيوشها إلى البصرة ، مالت النخب السُنّية العراقية من الضباط العراقيين العاملين في الجيش العثماني للتحالف مع بريطانيا ، التحقوا بطلائع الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين ضد العثمانيين ، بالاتفاق مع بريطانيا، كان هؤلاء الضباط، هم أداة وقادة ما يعرف بالثورة العربية الكبرى.

بالمقابل استنكر علماء الدين الشيعة من العرب بقيادة السيد محمد سعيد الحبوبي إعلان بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية المسلمة، وإرسال طلائع قواتها لاحتلال العراق ، أعلنوا الجهاد دفاعًا عن الدولة العثمانية وتوجهوا لتشكيل وحدات من المتطوعين، ذهبت فعلاً للقتال إلى جانب الجيوش التركية السُنّية في البصرة، بما عُرف بحركة المجاهدين، وقدموا كثير من الضحايا دفاعًا عن الدولة العثمانية، وكانوا أخر من انسحب من الجبهة بعد انسحاب القوات التركية التي تركتهم عرضة لنيران القوات البريطانية، رغم أن الدولة العثمانية كانت تضطهدهم وتحرمهم من دخول مدارسها، أو العمل في دوائرها الحكومية[١].

١- حول حركة المجاهدين عام ١٩١٤، راجع:

- عبد الله فهد النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، بيروت: دار النهار، ص:٨٠- ١١٠. / - عبد الحليم الرهيمي، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، بيروت: الدار العالمية للنشر، ١٩٨٥، ص:١٦٣- ١٨٣.

ولعلَّ قصة الشجرة الخبيثة على أطراف مدينة الناصرية تشكِّل إحدى الدلالات، للمقاومة التي قابلت بها المدن والعشائر العربية العراقية تقدم القوات البريطانية في الأراضي العراقية عام ١٩١٤، ففي خلال تقدم بعض القطعات البريطانية في عملية التفاف من جهة الصحراء الغربية، صادفت تقدمها شجرة ضخمة، على مشارف مدينة الناصرية، كان يحتمي بها ثلاث من أبناء العشائر ليقنصوا أفراد القطعات المتقدمة، وعبثًا حاول القائد العسكري البريطاني إسكات نيرانهم التي عطَّلت تقدمه، فصرخ بجنوده أين مدافع الهاون، اضربوا هذه الشجرة الخبيثة، ظل أبناء مدينة الناصرية يتفاخرون أنهم من أبناء الشجرة الخبيثة، زهوا بمشاركتهم في التصدي للاحتلال البريطاني وصمود أبطالهم، إلى أن بدأ إعلام صدام حسين بعد حرب الكويت يقلب معنى المصطلح ويستخدمه للدلالة على خبث نفوس أهل المدينة.

بالرغم من ذلك فقد عبَّر مواطني المدينة الشيعية عن اعتزازهم بكرامة وسيادة بلدهم في حرب ٢٠٠٣، بنفس طريقة وروحية شهداء أبطال الشجرة الخبيثة عندما فاجأ مقاتلون مدنيون من أهل المدينة قوة من المارينز الأمريكي تقدمت متسللة في فجر يوم ٢٣ آذار ٢٠٠٣ لاحتلال جسور المدينة، تمهيدًا لمرور القوات الأمريكية خلال تقدمها اتجاه بغداد فكانت ملحمة قُتل بها ١٨ من جنود المارنيز، أُجبرت القوات الأمريكية أن تغير مسار تقدمها لتغطس دباباتهم بالوحول والأهوار.

تصف جريدة نيويورك تايمز المفاجأة كدليل على فشل المعلومات الاستخبارية الأمريكية بالقول: "أكثر ما كان يبعث على الذهول في الناصرية خلال تلك الأيام الأولى من الحرب البرية هو رفض العراقيين مسلوبي الحرية التقدم ودعم قوات التحالف"[١].

١- مجموعة كتاب، المقاومة والحرب الأهلية في العراق، ترجمة: مها سلمان سعود، السويداء – سوريا: ٢٠٠٧، ص:٢١٢.

٢: شهدت مرحلة ما بعد الاحتلال البريطاني للعراق ١٩١٤-١٩٢٠، روح وحماس ثائر لم يشهدهما العراق من قبل، شكل مجموعة من مثقفي ورجال الدين وتجار الشيعة مع إخوانهم من مختلف الطبقات من السُنَّة حركة حرس الاستقلال لشد عزائم الطائفتين في العمل المشترك ضد الاحتلال.

يصف مؤرخ العراق في تلك الفترة عبد الرزاق الحسني نشاطات الجمعية "قرر الحرسيون إقامة مواليد نبوية في أهم مساجد بغداد فكانت منقبة النبوية تتلى في كل حفلة مولد لتعقبها خطبة دينية عن جهاد الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، ثم العروج على قضية البلاد السياسية بقدر ما تسمح به الظروف... وقد استفاد العاملون في الحقل الوطني فوائد جمة تمثلت في التقارب الأخوي الذي حصل بين أهل السُنَّة وشيعة الإمام علي بن أبي طالب... وصارت حفلات المولد تقام في مساجد السُنَّة ومساجد الشيعة على السواء"[١].

لم تقتصر نشاطات الوطنيين والقوميين العراقيين في تلك المرحلة على توحيد جهود الشيعة والسُنَّة وتحقيق الوحدة الوطنية لمقاومة الاحتلال، بل امتدت لتشمل المسيحيين أيضًا، قام كل من سلمان أبو التمن (شيعي) وعلي بازركان (سني) بجمع مجموعة من الشباب من الشيعة والسُنَّة لمفاجأة المسيحيين بمشاركتهم في الاحتفال في كنائسهم بعيد الجسد.. وفي حفلات الموالد – التعزية الحسينية، التي كان ينظمها أعضاء جمعية حرس الاستقلال، كانت الخطب تدعو لوحدة المسلمين والمسيحيين واليهود.[٢]

١- حول نشاطات جمعية حرس الاستقلال راجع: السيد عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية ١٩١٨-١٩٥٨، بيروت بلا دار نشر، ١٩٨٣، نفس الكاتب، الثورة العراقية الكبرى، مصدر سابق، ص:٩٥-١٠٠

- حول انتشار ظاهرة الموالد – التعزية في مساجد الطائفتين، لاحظ نفس المصدر ص:١٠٥-١١٠

٢- وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص: ٣٦٤.

لا يمكن المرور بهذه الفترة دون التطرق لنشاطات الشيخ محمد رضا بن المرجع الشيخ محمد تقي الحائري؛ كان لولب الحركة الوطنية التحررية في هذه الفترة، صحيح كان هناك من مجتهدي ورجال الدين الشيعة ممن أسهم بجهود مميزة في هذه الحركة مثل الشيخ مهدي الخالصي، السيد محمد الصدر، الشيخ محمد رضا الشبيبي، الشيخ عبد الكريم الجزائري، الحاج سلمان أبو التمن وغيرهم، إلا أن محمد رضا الحائري كان لولبًا استقطب الجميع ونسق بين حركات الوطنيين في كربلاء والنجف، بغداد وبقية مدن الجنوب، كما تميز عن الجميع بأطروحاته القومية العربية، فقد كان يرفع شعار توحيد الأقطار العربية جميعًا، أرسل محمد رضا الشبيبي إلى الشريف حسين وأبناءه يدعوهم للعمل من أجل تحقيق الوحدة العربية، فهو أول صوت في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى يرتفع في الوطن العربي بالدعوة للوحدة العربية[١].

أزعجت وأقلقت نشاطاته سلطة الاحتلال، كما هو واضح في البرقية التي أرسلتها المس بل إلى لندن: "لقد لعب رضا دورًا بارزًا في الدعاية المناهضة لبريطانيا.. ويعود الفضل بدرجة كبيرة إلى مكائد رضا في كون الدعاية المناهضة لبريطانيا قد اتخذت أبعادًا جعلت من المستحسن إبعاده"[٢].

يعتقد عبد الرزاق الحسني أن محمد رضا كان هو السبب وراء الفتوى التي أصدرها أبوه، والتي كانت سببًا لانفجار ثورة العشرين، فهو من كان ينظم الاجتماعات السرية والمظاهرات الكبرى في كربلاء ومدن الجنوب الأخرى

١- حول نشاطات وأفكار الشيخ محمد رضا الحائري يمكن مراجعة:

- عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، مصدر سابق، ص: ١٦٢-١٨٧.

- د. وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص:٣٥٠- ٣٥٥.

٢- برقية دار الاعتماد البريطانية إلى لندن مترجمة في كتاب: وميض جمال عمر نظمي، مصدر سابق، ص: ٣٥٢.

استعدادًا للثورة، ما اضطر سلطات الاحتلال لأن تقوم بإلقاء القبض عليه وإبعاده مع ١١ آخرين من أنصاره إلى جزيرة هنجام في الخليج[١].

٣: عندما اندلعت ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني للعراق، وانتشرت في أغلب مناطق الجنوب الشيعي؛ أرسل المرجع الديني الشيعي في حينها الشيخ محمد تقي الحائري مندوبين إلى الرمادي (الأنبار) وسامراء يستحث عشائرها للانضمام إلى الثورة، فاستجاب له شيخ عشائر زوبع، ضاري الزوبعي، الذي بدأت عشائره بقطع طرق الإمداد البريطانية، تصاعدت خلافاته مع القائد العسكري البريطاني للمنطقة لجمن إلى حد أن قام ابنه سليمان (والد الشيخ حارث الضاري) بإطلاق النار على لجمن، ومن يطلع على نص الحوار الذي جرى بين لجمن والضاري، كما استجاب كل من الشيخ خضير الحاج عاصي شيخ الجنابات، والشيخ علوان الشلال رئيس البومحيي؛ يكشف ولاء الضاري ورفاقه المطلق للمرجعية الدينية في النجف عندما تلتزم المرجعية بالمصالحة الوطنية العراقية[٢].. كما استجاب الشيخ حبيب الخيزران شيخ قبيلة عزة لنداء المرجع وشارك في الثورة[٣].

٤: في ١١ آذار ١٩٢٢، قامت مجموعات كبيرة من عصابات الإخوان الوهابيين، بالهجوم على ضواحي وقرى مدينة الناصرية، قتل ما قُدر في حينها ٧٠٠ من الرعاة، وسلبت مواشيهم، يعتقد المؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسني أن هذه الحملة تمت بدفع وتشجيع من البريطانيين ليظهروا الحكومة العراقية بمظهر العاجز عن حماية مواطنيها، والدفاع عن حدودها، لإجبارها على الموافقة على المعاهدة البريطانية – العراقية، التي تهدف بريطانيا من خلالها

١- عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، مصدر سابق، ١٧٥.

٢- نفس المصدر، ص:٢٧٢-٢٨١. كذلك: د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الخامس – القسم الثاني، ص: ٦٦-٧٥.

٣- عبد الله النفيسي، مصدر سابق، ص: ١٤٨-١٤٩.

ربط العراق بمشيئتها، كبديل عن معاهدة الانتداب، والتي تنص على أن تتولى بريطانيا مسؤولية الدفاع عن العراق، بما ينفي الحاجة لتشكيل جيش عراقي وطني.

انتفض المرجع الديني الشيعي الشيخ مهدي الخالصي ودعى لعقد مؤتمر في كربلاء للضغط على قوات الاحتلال البريطانية والمطالبة بتشكيل جيش عراقي وطني، يتولى مسؤولية الدفاع عن الحدود العراقية، استجابت لدعوته أعيان ووجوه أغلب المدن السُنّية، وجاءت للمشاركة في المؤتمر وفود من الموصل، الأعظمية، تكريت، الشرقاط، وخلال انعقاد المؤتمر وصلت للشيخ الخالصي برقية من أهالي تكريت والشرقاط يذكرون فيها أنهم انتدبوا مولود مخلص ممثلاً لهم في المؤتمر، وأنهم مستعدون لتنفيذ أي قرار يصدر منه والتضحية بأموالهم ونفوسهم، وبرقية أخرى بنفس المعنى من شيوخ عشائر تكريت[١].

لكن الحدث الأهم في دلالته (خاصة لوضعنا الراهن)؛ هو ما قام به الشيخ عبد الوهاب النائب، بتوجيه دعوة لعدد من أئمة السُنَّة في بغداد للاجتماع في تكية الخالدية للتداول في أمر العدوان الوهابي، وتحديد الموقف الشرعي من الإخوان الوهابيين، وصولاً إلى معرفة جواز أو بطلان محاربتهم، وفعلاً انعقد الاجتماع في يوم ٥ نيسان/ إبريل ١٩٢٢، أصدر المجتمعون فتوى بجواز محاربة الإخوان الوهابيين، وقَّع عليها كل من مشايخ سُنة العراق، عبد الوهاب النائب، عبد الملك الشواف، إبراهيم الراوي، خضر القاضي، منير القاضي، عبد الجليل الجميل، طه الراوي، نعمان الأعظمي، علي القرداغي، بهاء الدين النقشبندي، أحمد الراوي، ومحمد رؤوف، واستقر رأي الحاضرين على

١- لتفاصيل أكثر حول هجوم الإخوان على مدينة الناصرية وما اقترفوه من أضرار وجرائم، وتبعات الجريمة ومؤتمر كربلاء راجع:

- رجاء حسين خطاب، العراق ١٩٢١- ١٩٢٧، بغداد: جامعة بغداد، بلا تاريخ، ص:٢٧٤-٢٨٥.

- د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء السادس، ص:١٣٢ -١٥٢.

انتخاب وفد منهم لحضور مؤتمر كربلاء، وفعلاً سافر الوفد يوم ١٠ نيسان/ إبريل، تمَّ نشر الفتوى في جريدة الاستقلال[١].

يبدو أن مؤتمر كربلاء أزعج سلطات الاحتلال البريطاني بما أظهره من تآخي العراقيين من أبناء الطائفتين، فأوعزت إلى أتباعها من شيوخ العشائر الشيعية لعقد مؤتمر مضاد في مدينة الحلة، يطالب بتخويل بريطانيا حق الدفاع عن العراق، والامتناع عن تشكيل جيش وطني عراقي، لم يحضر مؤتمر الحلة من شيوخ السُنَّة عدا واحد من مشايخ عشائر الأنبار.

باستخدام المصطلحات الطائفية كان تشكيل الجيش العراقي مطلبًا شيعيًا، رغم أن المروّجين للطائفية ظلوا دائمًا يشيعون أن الغاية من تشكيل الجيش العراقي هي تحقيق سيطرة الأقلية السُنّية على الأغلبية الشيعية بتقسيمه إلى فئتين، ضباط سنة، وجنود ومراتب شيعة، كما كتب الفاشلين في القبول بالكلية العسكرية بسبب فشلهم بالفحص الطبي الخاص بالكلية العسكرية.

أورد الوزير السابق العميد الركن صبحي عبد الحميد في رده على مقال جلال الطالباني الموسوم (كردي مطلع) والذي أراد به جلال إثارة أو تغذية الفتنة الطائفية بين العرب السُنَّة والشيعة، فأنكر وجود ضباط ركن من الشيعة في الجيش العراقي إبان العهد الملكي، أورد صبحي عبد الحميد في رده أسماء ٢١ من كبار الضابط الشيعة ممن دخل كلية الأركان، ونال رتبة الركن[٢].

يتمتع الضابط العراقي بامتيازات كبيرة، عدا الراتب، هناك الموقع الاجتماعي، لذلك يتهافت الكثير من الطلاب على التقديم للكلية العسكرية، خاصة وأن مدة الدراسة فيها بين السنتين إلى السنتين والنصف، إن طلاب الكلية العسكرية محرومون من العُطل الكبيرة كالعُطلة الصيفية وعُطلة نصف السُنَّة، لاختزال

١– د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء السادس، ص:١٤٤.

٢– رد الأستاذ صبحي عبد الحميد على جلال الطالباني، في الهامش ٢٠ في أعلاه.

فترة الدراسة فيها، كل ذلك يجعل القبول بالكلية امتيازًا يثير الحسد عليه، هي ككل مؤسسة من مؤسسات الدول النامية والعراق منها، يخضع لما يعرف بالمحسوبية والمنسوبية (الجاه والوساطة)، مع ذلك ففي أكثر العهود المتهمة بالطائفية (عهد الأخوين عارف)، تمكن جميع الطلاب من خريجي ثانوية الناصرية للسنوات الدراسية ١٩٦٦- ١٩٦٧، ١٩٦٧- ١٩٦٨ ممن يطمح بدخول الكلية العسكرية أو كلية القوة الجوية، من القبول في الكليتين، دون أي اعتبار لانتماءاتهم الطائفية، التي تتكشف من خلال أسماء بعضهم، مثل علي عبد الحسن، عبد الحسن شكاحي، موسى الحسيني، رياض حميد حميدي، ويعقوب اليعقوبي، عناد جهاد، ولا أشك أن نفس الأمر تمَّ بالنسبة لأبناء المحافظات الأخرى..

عند التخرج اختار عبد الحسن شكاحي صنف التموين والإعاشة مع أنه من خريجي الفرع العلمي ما يؤهله لاختيار صنوف مثل الدروع، المدفعية، هندسة الميدان، الكيمياوي، كما اختار رياض حميد حميدي صنف النقلية، عندما سألته مستعجبًا لماذا هذا الاختيار، أجاب:

- داد موسى أنا ضابط وأنت ضابط؛ أتمتع بكل الامتيازات التي يتمتع بها بقية الضباط، هذا أحسن صنف مريح ويبعدك عن المسؤولية، عندي ٣٠ سيارة نقل و٣٠ جندي سائق وفني، ومكانك دائمًا في المقرات الخلفية، لا حرب ولا قتال ولا دوخة راس.

كما تمَّ في نفس الفترة ممن أعرفهم كل من عبد الأمير الربيعي، عبد الرضا الساعدي، عبد الأمير العبيسي وغيرهم من أبناء المحافظات الجنوبية، ممن تكشف أسماؤهم طبيعة انتماءاتهم الطائفية.

وللأمانة نفس الأمر حصل في عهد البعث، الذي اشترط في القبول أن يكون الطالب منتميًا لحزب البعث، التحق الكثير من الطلاب الشيعة بمختلف الكليات العسكرية، وكلية الشرطة، ودورات كلية الاحتياط الخاصة بالطلاب الفاشلين

في الدراسة الثانوية ، التي افتتحها الحزب لزج أكبر قدر من البعثيين في صفوف الجيش.

بمناسبة الحديث عن الطائفية في الجيش ، يشكو الشهيد صلاح الدين الصباغ أحد قادة ثورة مايس ١٩٤١ أو ما عُرف بثورة رشيد عالي ، من سياسة الإنجليز التي كانت تحرم العرب من الشيعة والسُنَّة من دخول الكلية العسكرية وبقية مؤسسات الدولة ، فيقول في مذكراته التي كتبها عام ١٩٤١: "لم تأتِ المعاهدة الإنجليزية على ذكر عدد المواطنين العراقيين من غير العرب ، ولم تحدد عدد الذين يقبل منهم في المعاهد العسكرية، إلا أن تسعين بالمائة من القادة القابضين على زمام الجيش كانوا من غير العرب حتى أواخر عام ١٩٣٧، أما نسبتهم خارج مقرات الجيش والمعاهد الفكرية (يقصد بقية مؤسسات الدولة) فكانت خمسين بالمائة ، يقابل ذلك أن نسبة المواطنين من غير العرب لا تزيد على العشرة في المائة من مجموع السكان في العراق.

هذه النسبة الساحقة المجحفة كانت بازدياد مطرد حتى قيض الله لي ولإخواني أن نقبض على زمام الجيش ، فلما أصبحت معاونًا لرئيس أركان الجيش ومديرًا للحركات ؛ وقفت أمام هذا التيار الجارف وعارضت رغبات الإنجليز وأذنابهم الطغاة عندما حددت النسبة بالعدل والإحسان وكان أن عجت المعاهد العسكرية بالطلاب العسكريين من العرب[١]".

أي لا علاقة للقبول في الكليات العسكرية بالتوجهات الطائفية التي يتشكى منها مروجي الطائفية ، بمصطلحاتهم ؛ إن الشهيد صلاح الدين الصباغ، صاحب هذه الشكوى، سُني وليس شيعي.

٥: كانت النخبة السياسية العراقية في بغداد (وهي في الغالب من أبناء الطائفة السُنّية) منقسمة بين من يؤيد الهيمنة البريطانيا على العراق ، أو يعتقد بأنها

---

١ – صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، الرباط: تانيت للنشر، ١٩٩٤، ص:٨١.

ضرورة لأزمة للعراق، وبين الاستقلاليين المطالبين بالاستقلال التام والتخلص من النفوذ أو الهيمنة البريطانية، وهؤلاء منقسمون أيضًا بين من يركز على عراقية ووحدانية العراق وبين العروبيين الذين يتطلعون أولاً إلى تحقيق حد أدنى من التضامن العربي أو للوحدة خاصة مع سوريا، تستثيرهم الأوضاع في الأقطار العربية الأخرى فيتعاطفون معها، تحتل قضية فلسطين التي كانت مهددة بقيام دولة إسرائيل محلاً كبيرًا من اهتماماتهم، يمثل هذا الاتجاه كل من ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني، كلاهما تبوءا مناصب رفيعة مختلفة، وزارة لعدة مرات أو رئاسة وزارة، ورئاسة الديوان الملكي.

لا يلمس المتتبع لأحداث المرحلة أية حواجز طائفية تمنع مشايخ العشائر الشيعية من أن يصطفوا في هذا الانقسام، ويتوزعوا في ولاءاتهم بين النخب البغدادية الثلاث، إلا أن أكثر شيوخ العشائر الشيعية كانت تصطف في صف التيار العروبي، شارك كل من محسن أبو طبيخ عبد الواحد سكر محمد رضا الشبيبي في حزب الآخاء الوطني الذي شكله رشيد عالي الكيلاني في تشرين الثاني ١٩ وفاز الثلاثة في انتخابات الهيئة الإدارية للحزب[١]، ظلت مجموعة المشايخ ذات التوجه العروبي تتكتل وتنظم نشاطاتها في اجتماعات دورية مع رشيد عالي الكيلاني وياسين الهاشمي، في منزل رشيد عالي في منطقة الصليخ – في الأعظمية ببغداد، حتى أطلق على المجموعة جماعة الصليخ، أو مؤتمر الصليخ، التي اتفقت وخططت لاستلام الوزارة وإسقاط حكومة محمد جودة الأيوبي من خلال إثارة بعض التمردات العشائرية في مدن الوسط، وفعلاً تحركت الجماعة وتمكنت من إسقاط وزارة الأيوبي، عندما كلف الملك غازي جميل المدفعي من بعد الأيوبي، وليس ياسين الهاشمي بتشكيل الوزارة، صَعْدت الجماعة (الشيخ عبد الواحد سكر، ومحسن أبو طبيخ والسيد علوان الياسري وحلفاؤهم من المشايخ الآخرين)، تحركاتها المناوئة لحكومة المدفعي التي لم

١- عبد الرزاق الحسني، الأحزاب السياسية العراقية ١٩١٨-١٩٥٨، مصدر سابق، ص: ١١٦.

تتمكن من الاستمرار في موقعها أكثر من ١٢ يوم، ما ألزم الملك أن يكلف ياسين الهاشمي بتشكيل الوزارة، بقدر ما أن الحدث يمثل حالة تجاذب اختفت فيها النزعات الطائفية؛ إلا أن الاتهامات والاتهامات المقابلة بالطائفية لم تختفِ في خضم هذه الأحداث التي اختفت بها تمامًا النزعات الطائفية؛ حيث:

اتهم البعض الشيخ عبد الواحد سكر بأنه يتحرك بنزعات طائفية شيعية، رغم أن رئيس الوزارة المعين كان هو الآخر متهمًا بالطائفية السُنّية.

إن الشيخ عبد الواحد السكر المتهم بالطائفية هنا هو شيخ أكبر فخذ من عشائر آل فتلة الشيعية التي ترجع أصولها لتحالف عشائر دليم السُنّية، أي الأصول الإثنية للعشيرة تجعلها وشيخها تقف منزلة بين المنزلتين من الطائفية بشكلها التعصبي، إلا أن من لم يرتح لموقفه، لم يجد عند الشيخ ما يُعاب عليه، فقالوا طائفي، مؤشر جديد على كيفية استخدام الاتهام بالطائفية في نزاعات وأغراض لا دخل لها ولا تمت بصلة للطائفية[1].

إن حالة بقية العشائر العراقية المنقسمة بين المذهبين دون أن تتقطع بينها أواصر القرابة والالتزامات التي تفرضها العادات والتقاليد العشائرية كما ذكرنا في بداية الفصل، تشبه إلى حد ما حالة آل فتلة.

أُتُهم، ومازال بعض الشعوبيين المحسوبين على الشيعة يتهمون ياسين الهاشمي (الذي اختارته أو فرضته العشائر الشيعية) بالطائفية، أما ذوي التوجه الشعوبي المحسوبين على السُنَّة يتهمونه بالانفراد بالسلطة وبتهم أخرى.

١- تفاصيل أكثر عن نشاطات جماعة مؤتمر صليخ وتمرداتهم من أجل إيصال الهاشمي إلى السلطة راجع:- حازم المفتي، العراق بين عهدين: ياسين الهاشمي وبكر صدقي، بغداد: مكتبة اليقظة العربية، بلا تاريخ.

- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، مصدر سابق، الجزء الرابع، خاصة الصفحات من ٥٠-١٤٨.

٦: إن النُخب الشيعية الشابة التي بدأت تظهر في أواخر أربعينات وأوائل خمسينات القرن الماضي ، توزعت هي الأخرى في ولاءاتها ، وبرز منها قيادات كبيرة في التيار القومي العربي ، فكان مهدي كبة ، وفائق السامرائي السُّني من أبرز الوجوه القومية في العراق، شكلا بالتعاون معًا حزب الاستقلال الممثل للتيار القومي العربي في العراق بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني ، وضرب الحركة القومية العربية من قبل الاحتلال البريطاني وحليفها الأقوى نوري السعيد ، ولم نسمع عن أي منهما شبهة الطائفية ، التي يبدو أنها بدأت تختفي وتتحسر في الجوامع والتكيات[١].

شارك فؤاد الركابي الشيعي مع بقية رفاقه من السُنَّة بالأصل في تشكيل أولى بؤر وخلايا حزب البعث العربي الاشتراكي الأولى، وتولى قيادة فرع الحزب في العراق، وكان أول أمين قطري للحزب، حتى اختلف مع قيادة عفلق بسبب موقف الأخير السلبي من الوحدة بين سوريا ومصر.

من بين ثمانية أعضاء للقيادة القطرية البعثية قادت حركة ٨ شباط ١٩٦٣ التي أسقطت نظام عبد الكريم قاسم ، كان هناك خمسة ممن يُحسبون على الشيعة ، قادوا تحركهم بمجموعات من الضباط السُّنة ، اختلفت القيادة فيما بينها وانقسمت بسبب تصادم الصلاحيات وتداخلها وتنافسهم علي المواقع دون أن يكون للطائفية دور لا في التحرك الذي قادوه ضد قاسم ، ولا في خلافاتهم الشخصية ، التي استغلها عبد السلام عارف ليقضي على الطرفين ويزيحهم من السلطة.

١- حول تأسيس وأهداف حزب الاستقلال، يمكن مراجعة المصادر التالية:

- **عبد الله الجيزاني، حزب الاستقلال العراقي ١٩٤٦-١٩٥٨، دمشق: بلا دار نشر، ١٩٩٤.**
- **إبراهيم الجبوري، سنوات من تاريخ العراق، النشاط السياسي المشترك لحزبي الاستقلال والوطني الديمقراطي، بغداد: المكتبة العالمية بلا تاريخ.**
- **عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، بيروت: مركز الأبجدية للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص: ٧٦-٨٢.**
- **عادل غفوري خليل، أحزاب المعارضة العلنية في العراق، ١٩٤٦-١٩٥٤، بغداد: المكتبة العالمية، ١٩٨٤، ص: ٨١-٨٥، كذلك الصفحات١١٢-١٢٩.**

شاركت نخبهم الأخرى في مختلف التيارات السياسية الأخرى الشيوعية، أو التيارات القومية العربية، وبرز من بين الوجوه المحسوبة على التيار القومي أسماء شيعية مثل ناجي طالب، أحمد الحبوبي، سلام أحمد، وهاشم علي محسن وغيرهم.

كان هناك حجم كبير من الشيعة التزموا بخط الحزب الشيوعي، الذي كان هو الآخر يجمع في قيادته الشيعي والسني بدون أي حساسيات طائفية، يدون حنا بطاطو في عمله الموسوعي عن العراق ملاحظة مهمة تستحق الذكر والتأمل، استمدها من حركة المقاومة التي قادها الحزب الشيوعي ضد حركة ٨ شباط التي أنهت حكم عبد الكريم قاسم، وهي أن غالبية قيادات الحزب الشيوعي العراقي كانوا من السُنَّة بقاعدة غالبيتها من الشيعة، بينما غالبية القيادات في حزب البعث كانت شيعية، بقاعدة سنية واسعة[١].. ما يعني بطلان ما روج له الشيوعيون من إشاعة الشينات الثلاثة (٣ش) التي تطرقنا لها في أعلاه.

استمر الحال على ما هو عليه من تراجع الطائفية وانحسارها في المساجد والتكايا، دون أن يكون لها من أثر أو امتداد على الشارع والحياة اليومية للعراقيين، شكلت بغداد بوتقة لهذا التعايش، فتزاوج عشرات أو مئات الآلاف من أبناء وبنات الطرفين دون حساسية تذكر أو تحسب حساب للانتماء الطائفي للآخر.

حتى وصل البعث ثانية إلى السلطة بقيادة البكر – صدام، فبدأت أولى خطواتهم في زعزعة موقع مرجعية محسن الحكيم وبقية النخب الشيعية من أساتذة الجامعة، ثم الإعدامات اليومية بالعشرات لمنتسبي حزب الدعوة إلا أن الحالة ظلت محدودة الانتشار ولم تتحول أو تمتد إلى الشارع العراقي، حيث تمكن البعث أن يصور هذه الصدامات ويُلبسها لبوس الصراع بين قوى تقدمية

---

١ – حنا بطاطو، مصدر سابق، الكتاب الثالث، ص:٢٩٨.

ببرنامج علماني، اشتراكي، وأخرى رجعية تريد أن تعيق مسيرته التحررية، إلى أن صحى الناس يومًا على عمليات ذبح جماعي للشيعة في شباط ١٩٧٧، لا لذنب اقترفوه أو نشاط سياسي مارسوه بل فقط لأنهم شيعة، كما سيأتي الحديث عنه في الفصل الخامس.

الفصل الرابع

محطات التنافر الشيعي - الشيعي

رغم صعوبة القبول العقلي والمنطقي، أن يفهم الإنسان أن الخلافات أو محطات التنافر التي تظهر بين الحين والآخر بين الشيعة والسُنَّة سببها الاختلاف في الرأي بمن كان أحق بالخلافة قبل ١٤٠٠ سنة، علي أم أبو بكر وعمر! أن ينشغل المسلمين عن أمور حياتهم ودنياهم بخلاف يمثل وفقًا لقيم الإسلام أمورًا فرعية، ويتناسوا أو يضعوا جانبًا قيم التسامح والوحدة والأخلاق التي تضمنتها الشريعة، ويتمسكوا بخلاف بين قادة العرب والمسلمين لم يتصاعد بينهم إلى حد النزاع أو الصراع، فقد تعايشوا متعاونين من أجل رفع راية الإسلام وتوطيد دولته.

لكن السؤال الحائر هو: بماذا يختلف السُنَّة مع السُنة، والشيعة مع الشيعة؟ ما يجري في العراق هناك الآن انقسام حاد في الشارع يحرك ويوجه الشيعة ضد بعضهم، تتصاعد هذه التنافرات إلى حد الاصطدامات المسلحة أو الدموية، لكنها أخف في الجانب السُّني، كلهم شيعة إمامية اثنى عشرية لا يختلفون بأي من العقائد أو الاجتهادات الفقهية الأساسية، ما يلغي أي مبرر للصدام أو التنافر بينهم.

المقصود بالسؤال هم الشيعة الاثنى عشرية فقط، وهم عموم شيعة العراق، بمعزل عن اختلافاتهم مع الفرق الأخرى إسماعيلية، زيدية، صفوية، إخبارية، علوية وغيرها من فرق الغلاة التي ظهرت على امتداد التاريخ العربي–الإسلامي.

وقفة قصيرة قبل المضي في البحث عن الإجابة، أود الإشارة إلى حقيقة قد تغيب في عز معمعة الاختلافات هذه، يمكن أن تسهم أيضًا في تفسير ظهور الفرق المختلفة داخل الطائفة الواحدة أو ما بين الطوائف.

العلويون بالأصل هم من شيعة العراق الاثني عشرية، من سكان أعالي الفرات، ما زال لهم بقايا مجموعات صغيرة حتى الآن في مدن عنه، راوة، حديثة... هاجروا من موطنهم الأصلي يوم وضع السلطان مراد العثماني، فيهم السيف، أما البراءة من التشيع أو القتل، استقروا في ما يعرف اليوم بجبال العلويين الحصينة أو العصية في وقتها على وصول مراد وجيوشه لهم، منطقة وعرة تُعقد وعورتها حتى الاتصال بين القرى التي أنشأتها الجماعات المختلفة.

صار الشيخ أو الواعظ هو الوسيلة الوحيدة لقريته للصلة بالخلق والخالق، كل شيخ قدم تفسيره ورؤيته في الإمام علي، من قال أو روج إنه المُوصى به من النبي، وهو رأي قريب مما تقول به الشيعة الاثنى عشرية، ومن رأى فيه الشفيع الذي تكفي محبته والإيمان بولايته ليتحرر التابع من أي فروض دينية أخرى فُرضِت على بقية المسلمين، كالصوم والصلاة والحج، وهو رأي لا يخلو من الغلو. تتصاعد درجة الشفاعة هذه أحياناً عند البعض منهم إلى حد القول إن الإمام علي سيكون يوم القيامة هو الحارس على باب الجنة ليسمح لأتباعه فقط دخولها، وإرسال الآخرين إلى جهنم، بين هذين الاتجاهين تتدرج اعتقادات أخرى تتأرجح بين الاعتدال والغلو، لا يغيب عن البال أن ظهور كل هذه الدعوات كان مشحوناً بمشاعر الإحساس بالظلم الذي وقع عليهم وسبب هجرتهم وتركهم لمنازلهم. إحساس يجعل الإنسان مهيئًا لتقبل الأفكار والدعوات والروايات المغالية، تفاعل مع طبيعة جغرافية قاسية، فكان هذا الانقسام بينهم، أي أن العلويين هم أيضًا ليسوا طائفة واحدة بل خليط من الطوائف والاجتهادات المختلفة، تفاعلت عوامل الاضطهاد والخوف مع عوامل الطبيعة لتقسمهم، وتبعد بعضهم عن الدين.

إن هذه الوقفة الطويلة مع العلويين ، لا تعني الخروج عن الموضوع ؛ بل تضيف تفسيرًا في كيفية تشكل الاتجاهات الطائفية التعصبية.

بالعودة لشيعة العراق، واضح جدًا أنهم اليوم شيع تكاد تتجاوز الخمسة أو الستة بين فرق كبيرة وواسعة الانتشار وصغيرة محدودة الأتباع، وكل يوم يظهر معمم جديد ليدعي أنه بلغ مرحلة الاجتهاد ، ويسعى لتشكيل شيعته الخاصة، بضاعته البحث عن خطأ هنا أو آخر هناك عند بقية الشيع لينتقدها مبررًا وحدانيته وتفرده في فهم فقه الإمام الصادق، مع قليل من البهارات أو القصص عن لقاءات خَصَهُ بها الإمام المهدي المنتظر.

أو رؤية الإمام أو السيدة الزهراء، أو النبي ، أو أحد الأئمة بالمنام ليوصيه بالتحرك لدعوة الشيعة لتقليده ، لاحظ الشيخ محمد جواد مغنية ، وهو مفكر شيعي لبناني معروف هذه الظاهرة، ظاهرة كثرة الأدعياء بالاجتهاد بأنها أحد مظاهر السوء في فتح باب الاجتهاد عند الشيعة، فيقول: "إن فتحه عند الشيعة جرأ الكثير من جهالهم على انتحاله كذبًا وافتراء"[1]، وهو ممن يرى أن لا حاجة للشيعة أصلاً في الاجتهاد، مع وجود القرآن والسنة.

لا يخفى أيضًا الدور الذي يلعبه المجتهدون ورجال الدين من أصول إيرانية الذين يعملون على عزل الشيعي العربي العراقي عن بيئته ووطنه وأمته العربية واستبدال هويته الوطنية والقومية بالهوية المذهبية ، سواء كانت دوافعهم شخصية بحتة مصدرها الرغبة في الحفاظ على امتيازاتهم وما يحظون به من متع الدنيا في العراق، أو بتأثير مشاعر شعوبية أو قومية فارسية، ولا شك أن هناك من يتحرك فيهم مدفوعًا من قبل مؤسسات مخابراتية أجنبية إيرانية، أو إسرائيلية للسير في خطى تحقيق المشروع الإسرائيلي لتقسيم العراق إلى ثلاث دول متناحرة.

١- محمد جواد مغنية، الخميني والدولة الإسلامية، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص٩٧-٩٩.

توجهات النفور البينية بين الشيعة، تتخذ صفة التوجهات التعصبية التي تخرج أحياناً من طابعها الانتقادي التنابزي إلى حد الصدامات العدوانية، سنتناول هنا ظاهرتين منه دون الإغراق بجميع التفاصيل.

حزب الدعوة مقابل منظمة العمل الإسلامي:

منظمة العمل الإسلامي، تنظيم سياسي ظهر للعلن مع الأيام الأولى بعد نجاح ثورة الخميني عام ١٩٧٩، والسؤال الذي يشغل متابعي الجماعات الإسلامية العراقية: ما هي ضرورة قيام تنظيم جديد مع وجود حزب الدعوة، وهو تنظيم واسع الانتشار بتاريخ معروف في مواجهة نظام البعث، ظل السؤال يراودني، رغم أني كنت قد وجهته لبعض أعضاء المنظمة بمستوياتهم المختلفة إلا أني لم أحصل على إجابة مقنعة.

خلال محاولتي للبحث عن مصادر عن المنظمة تحاشيًا للسرد غير الموثق المعتمد على الذاكرة، وما يرافق ذلك من أخطاء منهجية وموضوعية أحياناً، وجدت أن الأستاذ عادل رؤوف المختص بالكتابة عن المرجعية والحركات الإسلامية كان قد طرح نفس السؤال على نفسه وعلى أعضاء من كوادر المنظمة، لا يلمس الإنسان أي إجابة مقنعة لكل التبريرات التي قدمها جميع مَن استجوبهم الأستاذ عادل رؤوف، غير جواب محمد تقي المدرسي مؤسس المنظمة أو مرشدها الروحي، يقول المدرسي "حول أسباب تأسيس منظمة العمل الإسلامي في ظل وجود حزب إسلامي وهو حزب الدعوة؛ أن هناك فرق خفي بين المدرستين الكربلائية والنجفية، فيما أن حزب الدعوة الذي ترعرع تحت ظل المرجعية التي تنتمي إلى المدرسة النجفية، التي كانت أكثر تسيسًا، فإن كربلاء هي أكثر حماسًا بسبب وجود الإمام الحسين (ع) "[1].

١- عادل رؤوف، العمل الإسلامي في العراق بين المرجعية والحزبية، دمشق: المركز العراقي للإعلام والدراسات، ٢٠٠٦، ص: ٢٣٥.

أكَّد المدرسي بالضبط ما كنت أفكِّر فيه من تفسير، وما كنت أراه من الأسباب الفعلية لهذا الانقسام، سنعود لمناقشته بعد الملاحظة التوثيقية التالية:

كما قلنا إن المنظمة أعلنت عن نفسها في عام ١٩٧٩، إلا أن كل من قابلهم عادل رؤوف يؤكدون أن التنظيم كان موجود فعلاً منذ عام ١٩٦٨ تحت اسم الحركة الرسالية، دون أن يكون هناك أي منشور أو كراس يثبت ذلك، ما يثير الشك بصحة هذا القول.

سبق أن حصلت من أحد الأصدقاء على نسخة مصورة لنشرة محدودة التداول من نشرات مديرية الأمن العامة – مركز التطوير الأمني بعنوان: "منظمة العمل والدور المشبوه"، بالعودة لهذه النشرة غير المؤرخة، تقديرًا أنها تعود لبدايات عام ١٩٨٠، تؤكد فعلاً أن المنظمة كانت تعمل منذ ما قبل وصول البعث للسلطة باسم المنظمة الرسالية، تنشط وتعمل تحت مظلة جمعيات دينية مثل: جمعية حفاظ القرآن، هيئة الشباب المسلم، هيئة فاطمة الزهراء، كما تؤكد النشرة على أن الأمن اكتشف عام ١٩٧١ وكرًا للمنظمة يحوي مطبعة ومسجلات صوتية مع جهاز سينما صغير، كما تمَّ اعتقال بعض أعضاء المنظمة وأصدرت محكمة الثورة عليهم أحكام مختلفة بالسجن، وبالإعدام على المرجع محمد مهدي الشيرازي.

بالعودة إلى قول المدرسي عن الاختلاف بين مرجعية كربلاء والنجف؛ كونها السبب في تشكيل جماعة الشيرازي لتنظيمهم الخاص (المنظمة الرسالية – منظمة العمل الإسلامي)، أعتقد أن السبب الحقيقي بين اختلاف المرجعيتين يعود أصلاً إلى الخلافات الإثنية أو القومية بين مراجع كربلاء والنجف، صحيح أن مراجع المدينتين هم من الإيرانيين (نسبًا وولاءً) المقيمين في العراق إلا أن محسن الحكيم ادعى أنه عربي الأصل، هاجر جده إلى إيران إبان الحكم الصفوي، وهو أيضًا من مواليد العراق، اكتسب الجنسية العراقية، يجيد التحدث بالعربية، لذلك التف حوله العرب، اعتبروه منهم.

بينما يعود تاريخ الشيرازي لفترة أقصر من تاريخ إقامة مهدي الحكيم والد محسن في العراق، كما بقي محتفظًا بجنسيته الإيرانية، وصل مهدي الطبطبائي الأصفهاني (والد محسن الحكيم) للعراق في نهايات القرن التاسع عشر ضمن خدم ناصر الدين القاجاري، وتخلف عن العودة لإيران وبقي في النجف يعمل بدكان صغيرة لبيع الأعشاب الطبية، لذلك اجتهد ابنه محسن في تسميته الحكيم.

العامل الآخر هو طبيعة الأصول القومية لسكان المدينتين، فسكان النجف هم عمومًا من العرب، تكاد المدينة تخلو من الفرس عدا طلاب المدارس الدينية الذين تعتبر إقامتهم محدودة بفترة زمنية، محصورة ومعزولة في البنايات الخاصة بهذه المدارس في الشوارع الحديثة خارج مناطق النجف الأربع الأصلية (الحويش، البراك، العمارة، المشراق)، التي يرفض سكانها أن يسكن بينهم من هو إيراني، بينما تضم كربلاء جالية إيرانية كبيرة، تمكنت هذه الجالية أن تُظهر تواجدها من خلال انتشار محلاتها التجارية وخاناتها ومطاعمها المميزة بتعليق صور القادة الإيرانيين التقليديين، كما بملابس أصحابها التي تتميز غالبًا بالسروال والسترة مع قبعة من الطراز الإيراني بدل العقال والثوب أو الدشداشة العراقية التقليدية التي يتزيا بها أهل النجف، هم أيضًا يتكلمون بالفارسية فيما بينهم علنًا دون حرج، لعل ما يتنابز به النجفيون والكربلائيون من مصطلحات يؤشر إلى أن الاختلافات الإثنية وكونها السبب في هذا التنافس الظاهر بوضوح، فهؤلاء يعيبون على الكربلائي أنه عجمي، وأولئك يعيبون على النجفي أنه معيدي (أي من سكان الأهوار والقرى الجنوبية).

جماعة الشيرازي أو مقلديه هم في غالبيتهم من سكان كربلاء، جنسية عراقية من أصول إيرانية، مع قلة من العرب من مدن مختلفة، وصل بعض العرب منهم لمراحل قيادية متقدمة في منظمة العمل الإسلامي فكان عبد الله الموسوي مسؤولاً للجناح العسكري فترة من الزمن، والشيخ حسين الحسيني ناطقًا رسميًا

باسم المنظمة (سنعود لموضوع حسين الحسيني فهي ذات دلالة كبيرة في موضوعنا هذا).

التبرير الآخر الذي كرَّره جميع من قابلهم الأستاذ عادل رؤوف هو: "أن المنظمة ترى ضرورة التركيز على الشعائر الحسينية بشكل أكثر مما كان قائمًا"[1]، في حين ينبذ أو لا يحبذ حزب الدعوة هذه الشعائر ويعتبرها بدع دخيلة على التشيع... لكن كراس الأمن يقول: إن المنظمة توصي بالاهتمام بالشعائر (إقامتها أو المشاركة بها)، كوسيلة أو أداة من أدوات عمل المنظمة لكسب الأنصار الجدد.

لمعرفة الاختلافات بين المرجعيتين التي قال بها المدرسي، راجعت لغرض المقارنة فتاوى كل من السستاني، محمد مهدي الشيرازي، لم أجد أن هناك أي فروق حقيقية في الاجتهادات التي يقدِّمها المدرسي كفروق بين مدرسة كربلاء ومدرسة النجف، بمعنى آخر لا يُفهم هذا الفرق إلا بنزعات بعض المجتهدين لامتهان الدين من أجل كسب ملذات الدنيا قبل الآخرة والـــ"أنا" المضخمة بنرجسية حادة، دون بروز أي سبب آخر يتعلق بالمعتقدات المذهبية، فهي واحدة[2]، يختلفان فقط بالفتاوى المستقبلية، التي ركَّزت عند السستاني على المعاملات المالية، وبعض الأحكام في زراعة الأعضاء البشرية، في حين ركز الشيرازي على أحكام الصلاة والعبادات المختلفة في الكواكب الأخرى، وأحكام ما يترتب على قطع رأس إنسان لتركيبه على جسد إنسان آخر، وجواز أو عدم

---

١ – مديرية الأمن العامة – مركز التطوير الأمني بعنوان "منظمة العمل والدور المشبوه"، بلا دار نشر، بلا تاريخ، ص:١٠. عادل رؤوف، مصدر سابق، ص:٢٣٦.

٢ – قارن بين:

– فتاوى علي الحسيني السيستاني، المسائل المنتخبة: العبادات والمعاملات، الشارقة، بلا دار نشر، ٢٠٠٤.

– محمد الحسيني الشيرازي، المسائل الإسلامية، بلا دار نشر، ط ١٠، ١٩٨٩.

جواز نقل العلم (العلوم والمعرفة) من رأس إنسان وتلقيح الآخر بها؟! ما يعني أنهم رحلوا خلافاتهم للمستقبل[1].

يعتقد الدكتور هيثم الناهي، أن مرجعية الشيرازي انفصلت عن مرجعية محسن الحكيم، بدفع من الشاه نفسه، الذي أراد من تدعيم مرجعية الحكيم عالميًا إبعاد الخطر إلى العراق، ومنع تواجد المرجعية في إيران، وبنفس الوقت الذي دعم به الحكيم لإبعاد خطر المرجعية إلى العراق، دفع لإبراز الشيرازي كمنافس له في داخل العراق ليلجم الحكيم ويمنعه من الخروج على إرادته، حظي الشيرازي وأتباعه بدعم كبير من الشاه، لذلك كان ولاء الجماعة لإيران ولاء مطلق، تضمنت حملة التهجير الأولى التي قام بها صدام حسين عام ١٩٧٠، الكثير من أعضاء الجماعة الذين تعاونوا وقتها مع الشاه، الذي استفاد بدوره من خدماتهم لإتقانهم اللغتين الفارسية والعربية باللهجة العراقية، عند بدايات الثورة الإيرانية استفاد الشيرازية من مواقعهم الحكومية لتسريب بعض الأسرار للخميني، ما دعم موقفهم بعد نجاح الخميني في إزاحة الشاه، فلقوا الرعاية الكاملة في زمن حكومة الخميني.

انشق الأخوان هادي ومحمد تقي المدرسي، وهما أنشط أتباع وموالي الشيرازي عن الشيرازي، متهمين إياه بأنه خانهم، يبدو أن الخلاف الحقيقي كان لأسباب نفعية مادية بعد أن تضخمت المساعدات التي تقدم للجماعة من قبل الكويت ودول الخليج الأخرى، لم يقتنع الأخوين بحجم حصتهما التي قدمها لهم الشيرازي، الأخوين المدرسي هما بالأصل من الهنود المقيمين في العراق، والمدرسي ليست إلا تحوير لاسم المدينة الهندية (مدراس)[2].

١- محمد الحسيني الشيرازي، مصدر سابق، ص:٦١٦-٦١٧. المسألة، ٤٥، ٤٦، ٥٣.

٢- د. هيثم غالب الناهي، خيانة النص، لندن: دار الأندلس، ٢٠٠٢، ص:٢٧٢- ٢٧٨. كذلك: عادل رؤوف، مصدر سابق، ص: ٣٠٢-٣٠٣.

تمزقت المنظمة وتعرضت لانشقاقات عدة بعد ذلك ، انشق الشيخ حسين الحسيني مبررًا انشقاقه على أنه ردة فعل للممارسات الفردية للمدرسي ، ثم انشق بعض من أتباع حسين الحسيني عليه بنفس الاتهام الذي وجهه للمدرسي[1]، لم تطرح لا المنظمة الرئيسية ولا المنشقين أي برنامج عمل سياسي سوى شعارات عامة، يمكن ترجمتها حسب فهم المتلقي.

يمكن رؤية هذه الانشقاقات والاتهامات بالفردية من زاوية أخرى؛ هي أن التسفيرات التي قام بها صدام حسين للعراقيين من أصول إيرانية ، عامي ١٩٧٠ ثم ١٩٧٩ شملت جميع أعضاء المنظمة ، هم جميعًا يجيدون الفارسية والعربية بلهجة أهل العراق، فكانوا، كما ذكرنا أعلاه، الخامة الرئيسية للإعلام الإيراني الموجه باللغة العربية في زمني الشاه والخميني ، كما سدوا حاجة إيران للترجمة، أو أي أغراض أخرى تتطلب المعرفة باللغتين. ولا يُستبعد أن الأصول الإثنية لعبت دورًا في تقريب الأجهزة الإيرانية لأعضاء المنظمة الذين تحسنت أوضاع معيشتهم بما تقدمه إيران من مساعدات مالية أخرى غير ما يكسبونه من عملهم، تلك الامتيازات التي عادة ما تكون سببًا في ظهور التنافس والحسد بين الأعضاء أو القادة، من يكسب أكثر أو يتمتع أكثر بهذه الامتيازات دون أن يشارك بها الآخرون لا شك سيتهم بالفردية!

الفردية هنا هي عنوان الإحساس بالغبن أو قلة حصة من يتهم الآخر بالفردية مقارنة بما يكسبه المُتهم... يُفهم من ذلك أنها انقسامات لا دخل لها بالمذهب أو الدين ، بل تعود لرغبة المجتهدين كل للتفرد بمؤسساته وأمواله ومصالحه الشخصية وتطلعاته لتبوء الأدوار المتقدمة في الزعامة.

نعود الآن لما أشرنا إليه حول الشيخ حسين الحسيني ، أثار الاسم استغرابي عندما التقيته أول مرة بدون سابق معرفة، فالشيخ (عمته بيضاء، رجل دين لا ينتسب لآل البيت)، لا يمكن أن يكون حسينيًا ما لم يكون سيدًا (رجل دين بعمة

١- عادل رؤوف، مصدر سابق، ٣٠٢-٣٠٣

سوداء، يفترض أنه ينتسب لآل البيت صدقًا أو زورًا)، سألته بحضور أعضاء المنظمة صادق الشكرجي، وعبد الله الموسوي:

- كيف هذا شيخ وحسيني؟

أجابني الرجل قائلاً:

- هو ليس سيد بل رجل عامي، لكنه مقيم في إيران، حسب الأعراف الإيرانية السائدة يجوز للعامي أن يستعمل لقب حسيني، وعلوي تعبيرًا عن حبه للإمام الحسين أو الإمام علي، وهو يستعمل لقب الحسيني بنفس المعنى.

سمعت قبل بضعة سنوات أن الشيخ حسين هاجر لاجئًا إلى أمريكا، وأنه سجل هناك بهذا الاسم، توفي بعد فترة وبقي أولاده يحملون اللقب، أي أصبحوا من جماعات السادة بقدرة قادر.

السؤال الذي يتبادر لذهني كثيرًا كلما أسمع من يردد اسم السيد علي الحسيني السستاني، أتذكر الشيخ حسين، وأسأل هل فعلاً إن السيد علي السستاني هو سيد أصيل النسب، أم أنه تبنى لقب الحسيني بنفس الطريقة الإيرانية التي تبنى بها الشيخ حسين لقب الحسيني؟.

نفس السؤال يمكن أن يبرز للعقل عند تذكر محسن الطبطبائي الأصفهاني الذي أصبح (الحسيني الحكيم)، وحتى محمد مهدي الشيرازي الذي أصبح مهدي الحسيني الشيرازي، مساكين هم الشيعة من عرب العراق، يستغل الغرباء حبهم للحسين ليمرروا خدعهم، ويحققوا الأغراض التي دفعتهم للهجرة للعراق، سواء كانت الدوافع شخصية محكومة بالتطلع لتحسين المعيشة، أو مخططة من قوى كبرى ترسيمًا لخطط مخبئة.

إن ظاهرة تزوير شجرة النسب معروفة وقديمة، بدأت تتحول إلى ظاهرة شائعة جدًا في العراق الجديد بعد الاحتلال، حيث انتشرت كثيرًا ظاهرة حاملي الألقاب مثل (الحسيني، الحسني، العلوي، الموسوي).

بالمناسبة حتى صدام حسين أصابته عدوى تزوير شجرة النسب، ليقول إنه ينحدر من سلالة يعود أصلها للإمام علي، دله بعض العارفين على ما يبدو على السيد رضا علي الهندي، وهو شاعر مبدع فاز بجائزة أحسن بيت شعر لكتابته على الباب الذهبية لمرقد الإمام علي، لكنه كان كسولاً يفضل الاستجداء في المناسبات، بعد أن أتم عمله كافئه صدام بـــ ٥ آلاف دينار لقاء كتابته النسب الشريف، لم يلحق أن يهنأ بها، مات في طريق عودته إلى النجف بحادث سيارة!.

بعد أن نال صدام حسين شهادة نسبه من المسكين رضا الهندي، ذهب في بداية الحرب العراقية – الإيرانية إلى النجف ليعلن نسبه قائلاً: "سأحارب بسيف جدي علي".

عمومًا لا يمكن فهم توزع شيعة العراق بين الدعوة ومنظمة العمل الإسلامي، إلا ضمن إطار السببين التاليين:

١: الفروق القومية بين مؤسسي الجماعتين، الشيعة العرب في النجف، والشيعة من أصول إيرانية ومقرهم كربلاء، ما يعني أن قوة الانتماء القومي أكبر عند الطرفين من الخضوع للتوجهات الطائفية، أو مصلحة الطائفة.

٢: النزعات الفردية عند المجتهدين، وتطلعهم وطمعهم بحيازة مكاسب الدنيا التي يوفرها لهم امتهانهم للدين، والتفرد بالإدعاء بالأعلمية، يضاف لها تنازعهم على كسب رضى الشاه في حينها.

حزب الدعوة - جماعة الحكيم - الصدريون:

نفس السؤال الحائر يصطدم الإنسان، ما ضرورة قيام حزب الحكيم أو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الذي تطور تمشيًا مع الإنجازات الكبرى

التي حققتها العولمة فأصبح المجلس الإسلامي الأعلى فقط (بلا ثورة، بلا بطيخ، فقد كسب آل الحكيم ما يريدونه من التسيد على شيعة العراق)، مع وجود حزب كبير بتاريخ عريق يمثل الطائفة، ما يغني الحريص على حقوق الطائفة من أن يبدد ويبعثر جهود أبنائها بخلافات لا علاقة لها بالمذهب أو الطائفة؟!

لسنا معنيين، تقيدًا بحدود البحث، بمراجعة تاريخ تأسس حزب الدعوة، أو المجلس الأعلى، فقد كُتب عنهما الكثير من وجهات نظر معارضة أو مؤيدة، يمكن أن يرجع لها القارئ المحب للاستزادة، ما لم يلزمنا منهج البحث الوقوف عند بعض المحطات في تاريخ الجماعتين[١].

تكشف متابعة أسباب ظهور وتشكل المجلس الأعلى أو جماعة الحكيم، مع وجود حزب قائم من نفس الطائفة، عن تفاعل الخلافات الإثنية أو القومية الكامنة عند الطرفين مع غلبة التوجهات والطموحات الفردية على المصالح العامة للطائفة، لهذا الظهور الذي هو مشروع إيراني خالص بعد أن يأست المؤسسات الإيرانية المعنية بالشأن العراقي من تطويع حزب الدعوة للإقرار

١- حول تاريخ ومرحل تطور حزب الدعوة، والمجلس الإسلامي، يمكن العودة إلى:

- عادل رؤوف، مصدر سابق. د. هيثم الناهي، مصدر سابق.
- فؤاد إبراهيم، الفقيه والدولة: الفكر السياسي الشيعي. بيروت: دار الكنوز الأدبية، ١٩٨٩، ص: ٣٣٢- ٣٥٧.
- رشيد خيون، لاهوت السياسة: الأحزاب الدينية المعاصرة في العراق، بغداد: دراسات عراقية، ٢٠١٠، ما يتعلق بحزب الدعوة ص: ١١٣-١٥٦. أما ما يتعلق بالمجلس الإسلامي تراجع الصفحات: ١٧٧- ٢١٠.
- صلاح الخرسان، حزب الدعوة الإسلامية: حقائق ووثائق، دمشق: المؤسسة العربية للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ١٩٩٩.
- المصدر الأخير لا يُوثق به لأنه كُتب بدفع من جماعة باقر الحكيم لتشويه تاريخ الحزب، ينفع لفهم اتجاهات التنافر بين الحزب وجماعة الحكيم، نشر الكاتب عادل رؤوف في كتابه "أنبياء وأصنام" نص الاتفاق الذي تم بين ممثل جماعة الحكيم والكاتب على مشروع الكتاب مع كشف بالمبالغ التي استلمها الكاتب ليشوه الحقائق، كتاب عادل الصفحات: ٥٥١ – ٥٥٣.

بنظرية الخميني في الولاية العامة للفقيه، والإقرار بوحدانيته كمرجع واحد أحد، مع تقدم أو تحقيق بعض الانتصارات التكتيكية في الحرب، تطلع الإيرانيين لإيجاد وجوه عراقية يمكن الاعتماد عليها لتتولى إدارة ما يمكن أن يسقط تحت احتلالهم من مدن في داخل العراق.

لم يعطِ حزب الدعوة الفقهاء والمجتهدين مكانًا في تركيبته التنظيمية، غير فسحة صغيرة جدًا عند الحاجة لرأي فقهي عند الضرورة، لذلك لم يلتزم أو يعلن تأييده لما قال به الخميني عن ولاية الفقيه المطلقة، رغم أن الحزب أعلن تأييده للثورة ولقيادة الخميني دون الإقرار بكونه ولي أمر المسلمين، بل كقائد ناجح أعطى الطائفة أو الإسلام دفقة جديدة من القوة، كما رفض الحزب التنازل عن استقلاليته والتبعية المطلقة لإيران، ما أثار حفيظة بعض مراكز القوى الإيرانية منه، ظل هذا الاختلاف قائمًا وإلى يومنا هذا.

وصل باقر الحكيم إلى دمشق في أوائل الثمانينات بجواز سفر رسمي، في فترة كان النظام يمنع فيه نهائيًا السفر للخارج على أي مواطن عراقي، كانت مهمته المكلف بها من قبل المخابرات العراقية هي نقل رسالة لأخيه مهدي الحكيم الناشط بمعارضته للنظام في الخارج، والآخر عزيز الذي نشط بعد نجاح ثورة الخميني، بجمع مجموعة من الشباب العراقيين المتواجدين في سوريا ولبنان، والتحق بالمتمردين الأكراد في شمال العراق بنية القيام بعمليات ضد النظام من هناك تحت اسم حركة المجاهدين العراقيين، كان رد فعل الأخوين سلبيًا تجاه رسالة المخابرات التي حملها باقر، كلاهما مُصر على متابعة الطريقة التي اختارها في معارضته للنظام، لا يستبعد أن يكونا قد ساهما في إقناع باقر بالبقاء في الخارج والامتناع عن العودة، إضافة لإغراءات أخرى تعرض لها باقر، المحكوم بنزعات نرجسية وأنانية حادة، ما دفعه لأن يُسهم بنشاطات المعارضة العراقية.

وجدت فيه إيران أفضل أداة يمكن من خلاله صناعة تنظيمها الخاص في تيار الحركة الدينية الشيعية ، والسيطرة على حزب الدعوة ، استيعاب واحتواء نشاطاته تحت إطار الدعوة بضرورة تنسيق عمل الفصائل الدينية المعارضة للنظام بعمل جبهوي باسم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق ، فعلاً شارك حزب الدعوة بالعمل أو الإطار الجبهوي الجديد تمَّ الإعلان عن المجلس في منتصف عام ١٩٨٣ برئاسة محمود هاشمي ، وتعين الحكيم كناطق رسمي باسم المجلس.

لم يطرح المجلس أي برنامج سياسي أو اقتصادي لعراق المستقبل الذي يطمح لاستلام السلطة فيه ، كان بيانه التأسيسي عبارة عن شعارات لا تُعطي أي صورة واضحة عن أهداف المجلس وسياساته غير إسقاط النظام البعثي في العراق، ومفردات هائمة لا دلالة سياسية بها مثل:

١: مواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر على الإمبريالية والنظام البعثي.

٢: الالتزام بالمنهج الإسلامي في التحرك السياسي (لا شرقية ولا غربية).

٣: السعي الحاد لتعبئة القوى الإسلامية كافة باتجاه عمل سياسي ، عسكري موحد.

٤: الإيمان والالتزام برباط الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين سنة وشيعة، عرب وأكراد.

٥: الدفاع عن حقوق المستضعفين كافة وقضايا التحرر العالمي، وفي طليعتها قضية فلسطين وشعبها المسلم.

٦: اعتبار الجمهورية الإسلامية في إيران قاعدة ومنطلق للثورة العالمية ومساندة مواقفها الرسالية في مواجهة الاستكبار العالمي.

وغير ذلك من عبارات فارغة المحتوى، بلغة إنشائية ركيكة[1]..

انتقم النظام مما تصوره خيانة وغدر باقر به، فقام بإعدام ١٨ من أفراد عائلته، كانت على ما يبدو فرصة لباقر وليس فاجعة ، استثمرها لكسب تعاطف الإيرانيين معه.. تحقق له فعلاً أن يحظى بدعم المؤسسات الإيرانية المعنية بمتابعة الشأن العراقي، في أن يحول المجلس لتنظيم شخصي خاص، ويحقق سيطرته الكلية على نشاطات المجلس ، ما أدى إلى انسحاب الكثير من المشاركين احتجاجًا على سلوكياته الفردية، لم يبقَ مع باقر غير مجموعات من المنشقين من أحزابهم، وبعض المرتزقة المحسوبين على آل الحكيم.

استفاد باقر الحكيم من مجموعات الأسرى من ضباط وجنود الجيش العراقي، ليشكل بهم قوات بدر.. ما لم ينتبه له الكثير؛ أن أغلب منتسبي قوات بدر كانوا من الأسرى العراقيين السُنَّة (ضباط وجنود) ، انسحب الشيعة منهم ، أو لم يلتحقوا أساسًا لأنه غالبيتهم وجد له معارف أو أقارب في إيران، فرتب أمور إقامته دون الحاجة لباقر الحكيم، الفرص التي لم يتوفر مثلها بالنسبة للعسكريين السُنَّة الذين بقوا أمام خيارين؛ إما التطوع في قوات بدر أو البقاء في سجن نيفين مكروه الصيت، فضل عدد كبير منهم خيار الانضمام لقوات بدر، بل وتظاهر بعضهم بالتحول للتشيع.

هذا ما يفسر تراجع نشاطات هذه القوات المسلحة والمنظمة جيدًا، عند دخولها العراق بعد الاحتلال، بعد أن كان باقر يدعي أنها وصلت إلى عدد المائة ألف، كما أعلن ذلك إبان حشد قوات التحالف ضد العراق بعد غزو الكويت، عندها أبدى باقر استعداده للمشاركة بالحشد الدولي بقوات بحجم المائة ألف مقاتل، بعد الاحتلال وصول هؤلاء الأسرى للعراق عاد الكثير منهم والتحق بأهله وترك القوات حيث لم يعد لهم من حاجة للبقاء تحت سيطرة الحكيم.

١- شمران العجلي، الخريطة السياسية للمعارضة العراقية، لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٠، ص: ١٦٨-١٧٤.

يمكن مراجعة تفصيلات دقيقة عن تشكل النويات الأولى لقوات بدر ومراحل تطورها، وأدوار وحجم الضباط، وضباط الصف السُنَّة فيها في كتاب الدكتور هيثم الناهي المذكور في الحاشية..

فشلت إيران ومعها باقر الحكيم من احتواء واستيعاب حزب الدعوة، وإلزامه بالإقرار بولاية الفقيه، عمل الطرفان على تشجيع بعض القيادات الثانوية، وجماعة رجال الدين من أصول إيرانية مثل الأصفي والحائري، مستنكرين عدم قبول الحزب للمبدأ الخميني القائل بولاية الفقيه العامة، فأعلنوا الانشقاق عن الحزب، لكن الحزب بقي متمسكًا باستقلاليته، واختار السيد محمد حسين فضل الله كفقيه استشاري له.

فضل الله مجتهد مجدد يمثل لمن يقرأ كتبه نقلة نوعية جديدة بعد محمد باقر الصدر، في تاريخ الاجتهاد الشيعي، وهو عربي حركي نشط يفهم جيدًا العقلية العراقية من خلال إقامته الطويلة في العراق خلال دراسته في النجف، لا يؤمن هو الآخر بولاية الفقيه الخمينية، فهو بحكم موقفه هذا وأصوله العربية غير مرغوب فيه إيرانيًا[١].

وجد باقر الحكيم الذي يتطلع للانفراد بزعامة شيعة العراق، في فضل الله منافس مستقبلي خطير، خاصة وأن أعداد مقلدي فضل الله بدأت تتصاعد بين عراقي المهجر المقيمين في سوريا ولبنان، لا تحتمل شخصية باقر الحكيم مثل هكذا منافسة، هو يعرف جيدًا إمكانات وقدرات فضل العلمية والفقهية، وطبيعته الحركية.. شنت جماعة الحكيم حملات دعاية خفيفة في البداية، مشككة بعلميته

١- من يقرأ على السبيل المثال كتاب فضل الله المعنون: البينات: بيروت، دار الملاك، ١٩٩٩، وهو عبارة عن مجموعة من فتاويه واجتهاداته الخاصة، يجد نفسه محلقًا في آفاق فكرية وسياسية واجتماعية مختلفة كليًا عن ما يراه الإنسان في كتب الفتاوى عند بقية المجتهدين والتي تتمحور حول النجاسة والطهارة والذباحة والحيض وغيرها من أمور تتكرر في أغلب فتاوى المراجع الآخرين.. كذلك كتابه أحاديث في قضايا الوحدة والاختلاف، بيروت: دار الملاك، ٢٠٠٠.

فقهيًا أو بلوغه مرحلة الاجتهاد، إن مثل هذه التحركات ضد المراجع الشيعية العربية، تجد القبول والارتياح من قبل إيران ومؤسسات قم.

أعلن فضل الله يومًا رأيه في قصة كسر ضلع الزهراء من قبل الخليفة عمر، نافيًا تفاصيلها بالطريقة التي تروجها بعض كتب صناع الطائفية من الشعوبيين، وهو ممن يرون أيضًا في عمليات اللطم والتطبير بدعة لا يقرها الدين أو المذهب، ما أعطى جماعة الحكيم والجماعات الشعوبية الأخرى في إيران الفرصة لإعلان حرب تشويه لا أخلاقية مسعورة ضد فضل الله، متهمين إياه بالخروج على المذهب، بل الكفر.

بدأ جلال الدين الصغير من مكتبه في الحجيرة بالسيدة زينب، يطبع النشرات اليومية ويوزعها تتهم فضل الله بدون ورع أو وازع أخلاقي بكل التهم، كما شجعت إيران أحد أتباعها لتأليف كتاب بجزئين بورق صقيل من النوع الجيد وغلاف مذهب، تمَّ توزيعه مجانًا تحت عنوان "مأساة الزهراء"، للرد على السيد فضل الله، يقال إن إيران طبعت منه مليوني نسخة.

إن غياب المنهج الواضح في حزب آل الحكيم المسمى المجلس الأعلى، واعتماد تخريصات وهلاوس باقر الحكيم ومن بعده أخاه ثم عمار، جعلهم يطرحون الشعارات الهائمة تبريرًا لتواجدهم بالساحة كجماعة سياسية، اعتمدوا استعمال شعار (مظلومية الشيعة) كشعار مركزي لتغطية كل برامجهم، مازال حتى اليوم مفهوم هائم لا علاقة له بالسياسة، اعتمدوه كبرنامج عام لهم ليوهموا الجهلة ومحدودي العقل وأولئك المغيبة عقولهم أنهم – آل الحكيم – أصحاب قضية عامة يعملون من أجلها، حيث لا قضية ولا هدف غير المتاجرة بعواطف الناس من أجل كسب ملذات الدنيا، والامتيازات التي يحققها لهم ادعاهم بالحرص على حقوق الطائفة.

إن زيف شعارهم المركزي هذا ظهر مبكرًا بوضوح من خلال توجهاتهم اللامبالية لهموم المساكين الشيعة الذين اضطرتهم الظروف للجوء والهجرة إلى

إيران خلال عهد البعث، لم يحصل العراقيون على أي عون أو مساعدة من مؤسسات باقر الحكيم، ما لم ينتموا لجماعته، ليس المقصود بالعون هنا أن تقدم لهم الجماعة مساعدات مالية كي يلاقوا بها حاجاتهم اليومية الضرورية وهم في الغربة بعيدًا عن أهلهم وأوطانهم، بل المقصود بالمساعدة هنا رفع الحيف والحصار الذي فرضه عليهم المجلس، فهم محرومين من حق العمل، وتسجيل أطفالهم بالمدارس، الشمول بالعلاج المجاني لمرضاهم، ما لم يحصلوا على رضى وتوصية خاصة من المجلس وقائده الفذ الأوحد راعي وحامي حمى الشيعة.

وصل الحال بالشيعة العرب المهاجرين إلى إيران من السوء ما دفع مجموعة من رجال الدين الشيعة، منهم محمد باقر الناصري، محمد بحر العلوم وتسعة آخرون، رفع رسالة مفتوحة يعلنون استنكارهم لما يتعرض له العراقيون في إيران من حيف وظلم، ويطالبون خامئني بالتدخل لرفع هذا الحيف عن شيعة العراق الذي اضطرتهم ظروفهم للجوء إلى إيران.

لم يتوقف نهج آل الحكيم في التعامل بما أسموه العمل على رفع الحيف عن الشيعة أو شعار مظلومية الشيعة، كوسيلة سهلة لسرقة أموال الشيعة مع معاملتهم بالإهانات والاحتقار، فعمار الحكيم لا يتذكر مظلومية الشيعة إلا أوقات الانتخابات، فيوزع على المحتاجين منهم بطانيات أو مدافئ مقابل القسم بالعباس والقرآن أن تحرم عليه زوجته إذا لم ينتخب ممثلهم.

نذكر ما سبق أن قلناه إن أحد من آل الحكيم لم يسبق أن عُرف عنه العمل بالتجارة أو أي مهنة أخرى يمكن أن توفر لعمار كل هذه الإمكانات المادية ليشتري مئات أو الألوف أو حتى ملايين البطانيات ليوزعها على فقراء الشيعة، هي أصلاً من أموال الشيعة التي يستلمها عمار من حصته بالنفط كممثل للشيعة، إضافة للأموال التي يختلسها من ميزانية الدولة باسم حصة الشيعة، ليردها لهم ملاليم، بطانيات يتكرم على فقرائهم بها مقابل القسم بانتخاب قائمته.

مثال آخر عن ما يقصده آل الحكيم بمظلومية الشيعة، صادف في أواخر عام ٢٠٠٨ حلول مناسبة زيارة أربعينية الإمام الحسين ، قبل موعد إجراء الانتخابات المحلية في المحافظات الجنوبية ، ما وفر لجماعة الحكيم فرصة لاستغلالها للدعاية لمرشحيهم في الانتخابات ، روجوا إلى وجوب وضرورة المشاركة بالمسيرة باعتبارها مفتاح من مفاتيح الجنة ، ونصبوا الاستراحات والقدور التي لا تفرغ من الطعام كل ١٥- ٢٠ كم ترتفع فوقها صور عزيز الحكيم وعمار ومرشحيه ، عملوا على نشر مقاطع طويلة لهذه المشاهد على شاشات التلفزيون التابعة لهم، بل وحتى التلفزيون الحكومي طيلة ساعات النهار بلا انقطاع أو توقف إلا بنشرات الأخبار ، مع مشهد لنائب رئيس الجمهورية، العضو في قيادة الجماعة، حامل شهادة الدكتوراة (الحلقة الثالثة – تعادل درجة الماجستير في العراق وبقية دول العالم) من جامعة بواتييه في فرنسا ، والماركسي المتطرف سابقًا عادل عبد المهدي وهو يلبس ثوبًا عاديًا ، ويضع على كتفيه شالاً أخضر ، مشاركًا بحملة المشي التي قيل وقتها إن عدد المشاركين تراوح بين ٦–٨ ملايين إنسان ، والتي استمرت لأكثر من شهر ، تعطلت الحياة خلاله بما فيها دوائر الدولة والخدمات الحكومية.

ظاهرة هستيرية جماعية تستفز في مشاهدها كل عاقل يؤلمه هذا الدجل والتخلف والخروج عن الدين والمذهب أيضًا ، بادر رئيس مجلس الأوقاف الشيعية وعضو قيادة حزب الدعوة السيد حسين الشامي إلى انتقاد الظاهرة مؤكدًا أنها بدعة جاءت من الأتراك والفرس ، فما كان من عمار إلا أن يرد بقوة أن هذه الشعائر هي من ركائز الإسلام ، تمكن عمار أيضًا من أن يدفع السستاني للإفتاء بشرعية هذه الشعائر ، مقابل رفع صورته من قبل بعض المشاركين في المسيرة[1]. لم يكن رأي السيد حسين الشامي جديد عليه ، بل هو

١- لاحظ مثلاً السجالات حول موضوع الشعائر والانتخابات ما كتبه سامي مهدي: المالكي يرفض استغلال الحكيم للشعائر لمصالح انتخابية، موقع إيلاف، ٢٠٠٩/١/١٤على الرابط التالي:

طرح قديم لحزب الدعوة والفقيه المستشار سيد محمد حسين فضل الله، كما كان الشامي يمتنع عن إقامة شعائر اللطم أو التطبير في مؤسسته في لندن قبل أن يعود للعراق ، لكنها نزعات التفرد بقيادة الشيعة ، ودفعهم لاعتماد الهوية المذهبية كبديل عن هوية المواطنة العراقية من أجل الإمعان بعزلهم عن بيئتهم ووطنهم وأمته تحضيرًا لمشروع التقسيم الطائفي وتجزئة البلد إلى دويلات أو فدراليات على أسس طائفية، كما يعكس هذا الموقف السخرية من العقل الشيعي المغيب بآلامه وحرماناته بأن التشيع يعني اللطم والتطبير والمشي مسافات من عشرات الكيلو مترات.

خلافات الصدر- السستاني - آل الحكيم:

يخضع اختيار المرجع الشيعي التالي بعد موت من سبقه لقاعدة شيعية يطلق عليها "النظام في اللا انتظام"، أي أن لا المرجع المتوفي ولا أية لجنة أخرى تمتلك الحق في تعيين أو اختيار المرجع الجديد، بل يترك الأمر للشيعة في اختياره مع الأيام، عندما يتعرفون على من هو الأعلم.

من الواضح والمؤكد أن ليس هناك من جلس من عموم أبناء الشيعة ليدرس أو يقرأ رسائل المرشحين للمرجعية، ليقارن بينها ويقرِّر من هو الأفضل أو الأعلم فيقلده، العادة أن الناس تسأل وكلاء المرجع المرجعية المنتشرين في المدن، وهم مَن يروج للدعاية للمرجع الجديد.

إن هؤلاء الوكلاء ليسوا دائمًا ممن يتمسك بالورع والتقوى إلا القلة النادرة منهم ، كما لا يكونوا بالضرورة بدرجة من المعرفة الفقهية التي تمكنهم من تقييم المرشحين للمرجعية ليحكموا من هو الأعلم فيهم ليغدو مرجعًا ، عادة ما

---

http://elaph.com/Web/Politics/2009/1/399998.htm

حول تصريحات عمار علي أن الشعائر هي من ركائز الإسلام لاحظ الرابط التالي:

http://www.wikalah.net/news/109/15_c.htm

يخضعون كغيرهم من البشر لنزوات الحب والبغض لبعض المجتهدين، فيروج أحدهم لمن يحب ويبخس حق من يبغض، أو يتأثر أحدهم بما يسمع من الآخرين حول أعلمية هذا المجتهد، فيخضع اختياره لهذا التأثير، يصف المجتهد اللبناني محمد جواد مغنية هذا البعض منهم "أن كثيرًا من الذيول والأتباع يتجاوزون كل حد ويغالون فيمن رضوا عنه ويوهمون البسطاء عن قصد أو غير قصد أن صاحبهم أعلم أهل الأرض[١]".

هناك من المجتهدين من ينتبه لهذه الظاهرة فيعمل احتياطاته المسبقة، قبل وفاة المرجع الموجود، بأن يولي الاهتمام ببعض الوكلاء تحضيرًا لمرحلة ما بعد موت المرجع المكلف بمهمة المرجعية، فيلقى تأييدًا جاهزًا لمرحلة الانتقاء هذه، إنها حالة أقرب للانتخابات في دولة ديمقراطية، تبدأ فيها الإشاعات والإشاعات المضادة والقصص المفبركة التي تهدف للتأثير على عقلية عامة الشيعة، لا يعني هذا أن ننسى دور الأموال التي تقدم كرشاوي لبعض الوكلاء، أو من يقود حملات الدعاية والدعاية المضادة.

الدور الأساسي هنا للأموال الواردة من إيران من تجار البازار أو المجتهدين هناك لدعم من يرغبون بوصوله إلى المرجعية، لعبة لا تخلوا من الأساليب القذرة أحيانًا في الإشاعات، تحظى اللعبة أيضًا، بمساحات واسعة من اهتمام مخابرات أو شاهات إيران، الذين يرغبون في إبعاد المرجعية عن إيران لتبقى معزولة في النجف، ما يقلل من تأثيرها في شيعة إيران، بعيدة عن الانغماس في الشأن الداخلي الإيراني.. كان شاه إيران يعلن عن رغبته في ترجيح كفة من يرغب من المجتهدين، من خلال إرساله برقية تعزية للمجتهد المرغوب فيه بوفاة المرجع السابق، هذه التعزية تعني إقرار رسمي إيراني بمن ترسل له

١– محمد جواد مغنية، مصدر سابق، ص: ١٥٩.

البرقية على أنه الوريث أو المرجع القادم، كما حصل في برقية الشاه التي أرسلها إلى محسن الحكيم تعزية بوفاة المرجع السابق البروجردي[1].

يدرك المجتهدين من عرب العراق عناصر هذه اللعبة، وثقل وزخم الدور الإيراني فيها، فيتردد أغلبهم عن التصدي للمرجعية أو المشاركة باللعبة المعروفة النتائج، أشار المفكر المتخصص بمتابعة شؤون المرجعية الدينية عادل رؤوف في أحد كتبه إلى وجود مؤسسة متخصصة في تعيين المرجع الجديد، لكنه لم يفصل الموضوع.

كما يفهم شيعة العراق باللاشعور اللعبة؛ لكنهم يتعاملون معها بسلبية وقبول وتسليم، مع حس أو شعور بالمرارة، وهم يرون مراجعهم مشغولة عن متابعة همومهم بجمع أموال الخمس والزكاة وحق الإمام وثلث الميت، اهتماماتهم السياسية والاجتماعية تظل محصورة بما يجري في بلدهم الأم إيران، بحس أجنبي غريب عن هموم العراقيين.

شكلت الظاهرة محنة حقيقية للشيعة من عرب العراق، بل وجه آخر حقيقي من وجوه مظلومية الشيعة، لا شك أن اللغة تلعب دورًا رئيسيًا في تفاعل المرجع مع أتباعه، كان كل من أبو الحسن الأصفهاني والخوئي والسستاني لا يجيد التكلم باللغة العربية، هذا هو أحد أسباب ركون السستاني للعزلة ورفض الخروج ولو لمرة لمواجهة الجمهور[2]، نفس السبب كان وراء الشعبية الكبيرة التي لاقاها محسن الحكيم الذي كان يتقن العربية، فكانت هذه ركيزته في الإدعاء بأصالة النسب العربي.

١- فهمي هويدي، إيران من الداخل، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨، ص: ٢٧.

٢- عادل رؤوف، أنبياء وأصنام، مصدر سابق، ص:٢٣٢.

كيف يُفسِر القرآن ويَستخرج أو يَستنبط الحكم الشرعي من القرآن من لا يجيد الحديث بلغة القرآن.. كان الخميني نفسه يرى في معرفة اللغة العربية شرط أساسي من شروط الاجتهاد، بما يمكنه من فهم الكتاب والسنة[1].

يعاني أو يعيش الشيعة في كثير من الأحيان ازدواجية غريبة، فهم يقلدون الفقيه الإيراني ويقدمون له أموالهم، لكنهم يسيرون وراء ويتبعون ويستشيرون في شؤونهم العامة والسياسية الفقيه العربي، تجلت هذه الازدواجية، أيام مرجعية أبو الحسن الأصفهاني، الذي لا يلتجأ له إلا بعض الشيعة في مسائل الاستفتاء، ودفع الأموال الواجبة عليهم شرعًا له، لكنهم يلتفون حول قيادة محمد الخالصي أو محمد حسين كاشف الغطاء، يطلبون الفتوى والاستشارة منه في مواقفهم السياسية مع وجود المرجع أبو الحسن الأصفهاني.

نفس الأمر حصل مع الشيخ مهدي الخالصي الذي كان مرجعيًا حركيًا يقصده الشيعة للاستشارة في شؤون حياتهم الدنيوية مع وجود المرجع الديني كاظم اليزدي.. لذلك كانت ظاهرة تصدي السيد محمد صادق الصدر للمرجعية خطوة جريئة، حازت إعجاب ورضى وإقبال شيعة العراق، قلدته الملايين، والتفت حوله بسرعة.

الصدر رجل عراقي عربي أصيل لم يُزور شجرة نسبه ليدعي الانتساب لآل البيت، فهو معروف دون الحاجة لشجرة مصنعة عند خبراء الأنساب كما هو حال بعض المراجع الآخرين، فهو ابن البيئة والشعب، لم يُفرض على العراقيين من الخارج[2].

١- محمد جواد مغنية، مصدر سابق، ص:٩٥.

٢- للإطلاع عن تفاصيل أكثر عن حياة المغدور السيد محمد صادق الصدر يمكن الإطلاع على: عادل رؤوف، مرجعية الميدان: محمد محمد صادق الصدر، دمشق: المركز العراقي للإعلام والدراسات، ١٩٩٩/ عباس الزيدي المياحي، السفير الخامس، مرجع سابق.

أطلق الصدر بادرته الجديدة، عندما أفتى بجواز إقامة صلاة الجمعة وراء المجتهد حتى في غيبة الإمام، تلك المبادرة أو صلاة الجمعة مثلت للشيعة شعوريًا أو بدون وعي وسيلة للتعبير عن تحدي مكشوف للنظام وممارساته القمعية، مقارنة بموقف السستاني الذي اتسم بالعزلة والصمت، يطلق عليها جماعة الصدر اسم "المرجعية الصامتة" مقابل "المرجعية الناطقة" للصدر، مثلت صلاة الجمعة، من جهة أخرى موقفًا لتأكيدًا الهوية المذهبية استنكارًا لممارسات النظام التي غلب عليها التوجه الطائفي بشكل مكشوف بعد الانتفاضة الشعبية التي تلت حرب الكويت.

كانت صلاة الجمعة ومرجعية الصدر ظاهرة لتأكيد الهوية العربية للمذهب مقابل المرجعيات الفارسية، فصلاة الجمعة والصدر أعادا المذهب لأصله وهويته العربية، انتشرت ظاهرة صلاة الجمعة في جميع مدن الجنوب الشيعي، وفي مدينة الثورة (التي سماها صدام باسمه، ثم سُميت باسم الصدر بعد سقوط النظام) كانت جماعات المصلين تمتد لتقطع السير في كل الشوارع الرئيسية في مدينة الثورة، يقال إن عدد المشاركين بدأ يصل إلى عدد المليون أو المليونين في السُنَّة الأخيرة من حياة السيد الصدر، هناك من يفسر مقتل الصدر بمخاوف النظام من هذا الحشد الجماهيري وراءه.

انتشرت ظاهرة تقليد الصدر بين الفقراء والمحرومين من الشيعة، في حين وقف البازار الإيراني و الغالبية من تجار الشيعة وراء السستاني.

كان هذا هو الوجه الأول والأهم من وجوه النزاع بين الصدر والسستاني، مرجع عربي، من أهل البلد، يجيد لغة أتباعه ويخاطبهم بسلاسة وأريحية، ويعيش همومهم ويتفاعل معها، وأخر فارسي، لا يجيد التحدث معهم بلغتهم، تقف وراءه المؤسسة الدينية الإيرانية وتجار البازار، منزوي في بيته لا شيء يهمه من مشكلات العراق والعراقيين غير جباية الأموال.

إن دخول أولاد المراجع السابقين (محسن الحكيم والخوئي) على لعبة الصراع بين الصدر والسستاني، بقوة، مثل الوجه الأكثر شراسة في هذا الصراع، تختلف أسباب تورط أولاد المراجع عند آل الحكيم وآل الخوئي في بعض الوجوه وتلتقي بوجه واحد كما سنوضح.

هناك عُرف شائع عند الشيعة في العراق ألا تُسجل أوقافهم رسميًا أو في الدوائر العقارية بصيغة الوقف أو تحت هذا العنوان، مخافة أن تستولى عليها هيئة الأوقاف الحكومية وتستخدمها في غير الأغراض التي تمَّ وقفها عليها، تسجل عادة باسم أو أسماء أشخاص معروفين بتقواهم وورعهم، تخضع أملاك المرجعيات لنفس العرف أو القاعدة، أي أن جميع الأملاك والمؤسسات المسجلة في زمن مرجعية محسن الحكيم بأسماء أقاربه أو أولاده هي أوقاف شيعية، لا تُورث، يفترض أن تنتقل إدارتها تحت تصرف المرجع الذي يليه، إلا أن أولاد الحكيم وأقاربه بدأوا يتصرفون وكأن هذه الأملاك ملكيات خاصة وشخصية بهم، اختط أولاد الخوئي المرجع التالي بعده نفس السلوك، وغدت هذه الظاهرة كعرف أراد أولاد المراجع أن يفرضوه على المرجعية ليحظى بقبول وسكوت الشيعة على أموالهم التي يستخدمها الأولاد للتنعم بمتع الدنيا، ويتركوا للفقراء نعيم الآخرة.

جاء السيد محمد صادق الصدر ليطالب أولاد المَرجعين بضرورة وضع هذه الأملاك تحت تصرفه ليستخدمها كمدارس أو مراكز دينية، أو حسينيات لممارسة النشاطات الاجتماعية المختلفة فيها، رفض الأولاد طلبه، ما دفع أبناءه بإيعاز منه أو تصرف شخصي منهم؛ الاستيلاء على مدرسة دينية مهجورة مسجلة باسم سعيد الحكيم، أخو المرجع محسن الحكيم، هي بالأصل مدرسة بناها أحد التجار الباكستان، وأوكل إدارتها بالمرجع في حينها محسن الحكيم، ذهب سعيد الحكيم للشكوى ضد الصدر في دوائر الدولة، قِيل إنه رفع رسالة شكوى لصدام مباشرة أو لمحافظ مدينة النجف، وروج جماعة الحكيم أن إعادة

المدرسة تمت بقرار محكمة حكومية وليس بأمر من صدام نفسه[1]، رغم أن صدام بالنسبة لآل الحكيم، ظالم، طاغية، جائر، قتل ١٤ شخص من أفراد العائلة، والآية رقم ١١٣، من سورة هود تقول: (وَلا تَرْكَنُوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ)... يبدو أن آل الحكيم عندما يتعلق الأمر بالأموال والعقارات ينسون القرآن والروايات عن حديث الإمام الصادق!.

فقهيًا لا شك أن الصدر يمتلك الحق بتصرفه هذا، تُحسب الشكوى عليه في الدولة، غير شرعية أو منافية وخارجة على أصول الفقه الشيعي الذي يُلزم المتخاصمين بمثل هذه الأمور وغيرها، اعتماد حديث الإمام الصادق: "إياكم إذا وقعت بينكم الخصومة أن تتحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفساق، اجعلوا بينكم رجلاً قد عَرف حلالنا وحرامنا فإني جعلته عليكم قاضيًا، وإياكم أن يخاصم بعضكم بعض إلى السلطان الجائر"[2]، وهو أحد الأحاديث التي استند لها الخميني بإدعاءه بأحقية الفقيه بالولاية العامة، أو بحق الفقيه بالحكم في غياب المهدي المنتظر.

نفس الأمر حصل مع أبناء المرجع الخوئي، الذين طالبهم الصدر بضرورة رفع أيديهم عن مؤسسة الخوئي في لندن لتتولى مرجعيته إدارتها، بذل الصدر جهده معهم متمسكًا بالقاعدة الفقهية الشيعية التي تستند على قول الإمام الصادق، وسط كل من رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان الشيخ محمد مهدي شمس الدين، والسيد مصطفى جمال الدين لإقناع أبناء الخوئي في استرجاع مؤسسة الخوئي في لندن إلا أن الأبناء رفضوا، شنوا على أثر ذلك حرب تشهير

١- حول الخلافات على ملكية هذه المدرسة راجع: عباس الزيدي المياحي، مصدر سابق، ص: ٣١٣ -٣١٧.

٢- روح الله الخميني، الحكومة الإسلامية، بلا دار نشر، بلا تاريخ، ص:٨٦-٨٧. كذلك محمد جواد مغنية، مصدر سابق، ص: ٦٩-٧٠.

وتشويه لصورة الصدر من خلال مجلة النور الشهرية التي يصدرها المركز في لندن، مقابل الدعوة لأعلمية السستاني، والدعوة لتقليده.

عدا هذه الخلافات حول أموال وأملاك المرجعية، كان عند باقر الحكيم دوافع أخرى لإعلان العداء والحرب على الصدر، لا شك أن كل تصرفات باقر الحكيم تؤشر لنزعة حادة تتحكم بقوة بعقله في التطلع للانفراد بقيادة شيعة العراق، لا شك أنه نظر إلى بروز مرجعية الصدر بهذه القوة تهديدًا كبيرًا لتطلعاته، فمرجعية الصدر بدأت تستحوذ على رضى وتقليد أعداد كبيرة من شيعة العراق.

رغم أن العلاقة بين أولاد الخوئي وأولاد الحكيم يسودها البرود وحتى التنافر، إلا أنهما شكلا ما يشبه الحلف لتشويه صورة الصدر والتشنيع عليه والتشكيك في أعلميته، وبلوغه مرحلة الاجتهاد، ما لم يؤهله أو يعطيه الحق بالتصدي أو المطالبة بالمرجعية، أصدر مركز المبلغ الرسالي الذي يديره صدر الدين القبنجي (يعمل الآن إمام صلاة الجمعة لجماعة الحكيم)، المركز معروف أنه أحد واجهات جماعة الحكيم الإعلامية، كراس بعنوان "مرجعية السيد محمد الصدر" شكك فيه بشخصية الصدر، وما يدعيه من الأعلمية إلى حد اتهامه بالاختلال العقلي والجنون والعمالة للنظام، إلى أخر الاتهامات الأخرى، مع الترويج والترجيح لمرجعية السستاني[١]، يمكن القول بلا تردد إن الترويج لمرجعية السستاني ما كان يمكن أن يتحقق ما لم يضمن أبناء المراجع مسبقًا استعداد السستاني أو تعهد بعدم مطالبتهم بما بين أيديهم، كما هو ظاهر من سكوت السستاني عنهم، والاكتفاء هو وابنه محمد رضا بما عنده وما سيأتيه، وترك ما بأيديهم لهم.

١- يمكن الإطلاع على نص الكراس في: عادل رؤوف، مرجعية الميدان، مصدر سابق، ص:٣٨٤-٣٨٥.

سبق أن ذكرنا في الفصل الأول أن مقتدى الصدر الذي لا يمتلك من مؤهلات القيادة أو الموقع الذي هو فيه غير كونه ابن محمد صادق الصدر ، إلا أن سلوكياته تعكس تكرارًا لما رفضه واعترض عليه أبوه من سلوكيات أبناء المراجع الآخرين، أي أنه يمثل هو الآخر حالة خروج على تعليمات وتوجهات أبيه.

يعتقد أتباع الصدر أن هذه الحملات الدعائية لتشويه صورة مرجعهم كانت السبب المباشر في تشجيع النظام باغتيال الصدر ، تعرض بسبب ذلك باقر الحكيم الضرب بالأحذية عند حضوره للمشاركة بمجلس العزاء على روح السيد الصدر ، الذي أمر خامئني بإقامته في مسجد أعظم في قم[1].. نفس السبب كان وراء مقتل مجيد الخوئي عندما عاد إلى العراق بعد الاحتلال.

يظل السؤال الحائر: أين هي النزعات الطائفية التي يمكن أن يدعيها أو يتبجح بها أولاد الخوئي ، كما هو أولاد الحكيم ، وأين هو موقع شعار "مظلومية الشيعة" الشعار المركزي الذي يبرر به آل الحكيم تجمعهم في تنظيم حزبي (المجلس الإسلامي الأعلى)؟! هل هناك من مظلومية أكبر من أن تسرق أموالهم وتتحول إلى أملاك شخصية لأولاد المراجع؟.

لو أراد الإنسان أن يتابع مثل هذه الخلافات والنزاعات وصور التنافس بين المجتهدين أو المراجع يحتاج إلى كتاب جديد ضخم بمئات الصفحات بحجم ما يتعرض له الشيعة من مظلومية مسلطة عليهم من فقهائهم وأولادهم، نكتفي بهذا القدر ، يستطيع الراغب للإطلاع على تفاصيل أكثر العودة إلى مجموعة الكتب التي نشرها المفكر الإسلامي عادل رؤوف، أو ما كتبه باختصار عالم الاجتماع

١- حول ما حصل من اعتداء على باقر الحكيم في مسجد أعظم بقم، هناك تغطية للحدث وردود الفعل والمهاترات التي تلته في كتاب عادل رؤوف: مرجعية الميدان، ص:٢٨٣ – ٢٩٠. مع مجموعة الملاحق الخاصة بالموضوع.

العراقي علي الوردي تحت عنوان تنافس المجتهدين، في الجزء الثالث من دراسته القيمة المعروفة بعنوان "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث[1]".

يقولون طائفية، ومظلومية وقعت على شيعة العراق، إنها طائفية كل شيء وكل الموبقات والفسق فيها مباح لتحقيق طموحات وامتيازات فقهائها، لا دين ولا مذهب لها ولا أخلاق تضبط سلوكياتها، لا قيم آل البيت ولا قيم محمد، بضاعتها خرافات وأساطير وروايات سخيفة ليرفع هذا المسكين المستلب عقله المظلوم بفقهائه ورجال دينه بندقيته على ابن الموصل أو الفلوجة آخذًا بثأر الحسين، وثأر فاطمة الزهراء التي ضربها عمر على خدها وكسر ضلعًا منها بدفع الباب عليها.

إنها لشعوبية حقيرة تلك التي صنعت قصة هجوم عمر على منزل الإمام علي، تسخر من هذا العقل العربي المسلوب لتمرِّر قصصها هذه... أعتقد أن صُنَّاعها من الحاقدين جدًا على الإمام علي نفسه، راحوا يسوِّقون باسم محبة الإمام هذه القصة.

مهما قيل أو يقال عن حُبِّ الخليفة عمر للدنيا والحُكم، أو انفعالاته وسرعة غضبه، هل يعقل أن هذه العقلية الجبارة العبقرية التي أسقطت أكبر إمبراطوريتين عظميين في وقتها، باسم الإسلام ورسالة محمد؛ ألا يدرك معنى أن يُعتدى على ابنة محمد في يوم وفاة أبيها، ولم يكن الحكم قد استقر بعد لصاحبه أبو بكر، الأنصار فيهم المتردد، وشيخ الطلقاء أبو سفيان يرفض انتخاب خليفة من تيم ويهدد "لأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً".

أبو بكر حاجج الأنصار بأحقيته بقرابته من محمد، وعمر يضرب بنت محمد ويحرق بابها ويكسر ضلعها، هذا عذر كاف جدًا للرافضين لخلافة أبي بكر

١- د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص:٨٢-٨٨.

والمترددين في مبايعته لأن يثوروا عليه ويخلعونه، وبيعته ما زالت محصورة بقلة من الأنصار ، إن المدينة بحجمها في حينه قد تكون أصغر من أصغر مركز محافظة في العراق الآن، أي أن الخبر فيها سينتشر في دقائق.

مقابل علي ، الذي تقول الروايات إنه قتل أبطالاً وقطع رؤوس رجال ، وتقدم لمبارزة عمر بن ود العامري، يوم تهرب جميع المسلمين من مبارزته، فتقدم علي ليبارزه ويغلبه ، ثم نراه ذليلاً جبانًا خائفًا ، يختبئ مع عدد من أنصاره وراء فاطمة، وفاطمة هذه قبل أن تكون زوجته هي ابنة نبيه ونبي المختبئين معه من أنصاره وأقاربه ، ويجبن عن أن يدافع عنها ويترك عمر يحيفها ويسومها العذاب، ولم يحركه أو يدفعه الوفاء للنبي أن يدافع عن ابنته، ثم هي زوجته، وشيم وقيم العرب والدين ولابد أنه سمع محمدًا يقول إن الشهيد من مات يدافع عن دينه وعرضه وأرضه.

أي رجولة مهزوزة هذه لا تستحق إلا الاحتقار والنبذ، خاصة وأن الروايات تقول إن عمر جاء ومعه ٣ أو ٥ من أعوانه، وعلي معه ابن عمة الرسول وعمته الزبير بن العوام، وعم النبي العباس بن عبد المطلب وكل منهما يرتبط بفاطمة بقرابة أو نسب ، إضافة لمجموعة من أصحابه وأعوانه مثل سلمان الفارسي وأبي ذر ، وعمار بن ياسر وغيرهم... وكلهم صحابة يقال إنهم ومنهم علي كانوا يتمنوا الشهادة دفاعًا عن قيم الدين الذي اختلطت فيه بالقصة هنا قضية الدفاع عن الشرف وهذه ابنة محمد تضرب وتهان أمامهم! "كانت أمنية الإمام علي أن يُقتل شهيدًا في سبيل الله في ذات يوم قال: لرسول الله ﷺ أو ليس قد وعدتني بالشهادة؟ فأين هي؟ فقال له النبي ﷺ: إن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذًا ، فقال الإمام: ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشرى والشكر".. وهل هناك من فرصة للشهادة خير من هذه الفرصة؟!

ثم يُكَتف البطل علي، قاتل ابن عمر بن الود العامري، بل يَقبل مذعنًا أن يؤخذ مكتوفًا بطرق ودروب المدينة إلى حيث يستقر أبو بكر.

إن علي بهذه الصورة يبدو كافرًا مرتدًا، أليس هو من يقول الشيعة إن ولايته جاءت بوصاية من جبرائيل، أي أنها ركن من أركان الإسلام، فكيف لا يقاتل من أجل ترسيخ أركان الإسلام؟ الزكاة في الإسلام ركن من أركان الدين، والإمامة عند الشيعة ركن آخر، وإذا اعتبر الممتنع عن الزكاة مرتدًا، فالممتنع عن الدفاع عن الإمامة يخضع لنفس حكم المرتد، وعلي بسكوته عن القتال من أجل تدعيم إمامته، يمثل حالة ردة يستوجب عليها حد القتل.

لم يكتفِ مفبركو الرواية بهذا القدر من التحقير والاستصغار بالإمام علي، بل يضيفون عليها من بهاراتهم: أنه أَركب فاطمة الزهراء على حمار ومعه ولداه الحسن والحسين وراح يلف بهم على الدور بالشوارع طالبًا العون من الصحابة لإعطائه حقه الذي سلبه منه أبو بكر.

إن مفبركي القصة لا شك أنهم من النواصب الحاقدين على كل ما هو عربي- إسلامي، قلوبهم مليئة أو مشحونة بالحقد على الإمام علي وليس عمر، أرادوا أن يشوهوا بروايتهم صورة الإمام علي ليظهروه بصورة الجبان، المتخاذل، المرتد على حكم الله (حاشاه من ذلك).

إن المطلوب من القصة، أيضًا، تسفيه كل الصحابة وقادة العرب العظام، الذين يرون بأعينهم ما أصاب ابنة نبيهم والمُوصى له بالخلافة ابن عم نبيهم، وهم سكوت.. ينطبق عليهم هنا حد الردة أيضًا عن وصية نبيهم!.

يأتي اليوم هذا الجاهل المستلب العقل، المسكين المهدورة حقوقه والمظلوم من فقهائه ومجتهديه، لينتقم من أخيه في الدين والعروبة في الفلوجة والموصل انتقامًا لعلي والزهراء...

السؤال لمن يروج أو يتقبل هذه القصة المفبركة شعوبيًا: هل يستحق مَن يوصف علي بهذا الخور والجبن والضعف والارتداد عن دين الله أن يدعي الولاء لعلي؟!.

بالعودة لما يجري على الأرض الآن ؛ لم يكن حال السُنَّة أو النخب السُنّية بأفضل من حال الشيعة ، فقد اختلف وتنازع ممثليهم في فترة الاحتلال على حصص كل تجمع منهم في الوزارات المخصصة لهم ، بعد تشكيل وزارة المالكي الثانية ، انتقد صالح المطلق رئيس الكتلة العربية للحوار الوطني ، الحزب الإسلامي متهمًا إياه بالاستحواذ على المناصب الوزارية التي منحتها الحكومة للعرب السنة.

من قبله كان قد أعلن الشيخ خلف العليان رئيس مجلس الحوار الوطني ، انسحابه من جبهة التوافق السُنّية موجهًا نفس الاتهام للحزب الإسلامي ، الاستحواذ على الوزارات[1] ، كما تصاعدت الانتقادات والاتهامات المتبادلة بين قيادات الصحوات في بغداد والرمادي ، والحزب الإسلامي مع قرب موعد الانتخابات لمجالس المحافظات، كل طرف يدعي أنه يمثل الأغلبية السُنّية.

رغم هذا يتفق الجميع رغم خلافاتهم على الوقوف ضد هيئة علماء المسلمين والشيخ حارث الضاري ، ويلصقون بهما تهمة الإرهاب ، لأنهما رفضا القبول بالاحتلال[2] ، تشتعل الطائفية نارًا وقودها الشعب والوطن ليتدفأ بها قيادات الطرفين ، امتيازات وأموال وقصور ومزارع في لندن وباريس ، لك الله أيها الجاهل المنكوب بعقله ودنياه وجنات وحور عين وأنهار خمر في الجنة.

الأمر الأغرب والبعيد عن أن يستوعبه عقل عاقل، أن الجميع يتنافسون ويتهم بعضهم البعض الآخر بقصور أو عدم صحة موقف الآخر دينيًا، والدين عندهم كما يزعمون هو الإسلام ، لكن سلوكهم يكشف أنهم لحى وعمائم التفت في خدمة الشعوبية والشيطان ، شيعة وسنة بدون استثناء.. قومًا يدينون دينًا ما سمعت به عن الرسول ﷺ ولا جاءت به الكتبُ.

١- موقع صوت العراق، المطلك يتهم الحزب الإسلامي بالاستحواذ على المناصب الحكومية، ٢٤/٤/ ٢٠٠٨.

٢- موقع فضائية الفرات الحزب الإسلامي يطالب هيئة علماء المسلمين أن تتبرأ من تصريحات الضاري، ٩/٥/٢٠٠٨.

فمن يكن سائلي عن أصل دينهم فإنَ دينَهُم أن تقتَل العربُ، مرتدين عن دين محمد ﷺ إلى دين نبيهم الجديد جورج بوش الابن (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، لعلهم اجتهدوا (والمجتهد حتى وإن اخطأ فله أجر حسنة) في أن نبيهم بوش أفضل من محمد، بوش يتواصل مع الله مباشرة بدون وسيط، ومحمد بواسطة جبريل، الفرق كبير.. يقول نبي الله بوش (صلعم):

"God told me to strike at Al Qaida and I struck them , and then He instructed me to strike at Saddam, which I did.'(24)[1]

ترجمة الحديث الشريف: "الله أمرني أن أُهاجم القاعدة، فهاجمتها، ثم أخبرني أن أهاجم صدام، وأنا فعلتها"..

لم تعد الشريعة الإسلامية شريعتهم، بل دستور علماني، وضع من أجل تقسيم بلدهم، وإثارة الفتنة بينهم، كتبه لهم اليهودي الصهيوني المزدوج الجنسية (أمريكية – إسرائيلية) ناحوم فريدمان (ع)، وفرضه عليهم الإفرنجي المتعصب ولي نبي الله بوش (صلعم) بول بريمر (ع)!

أي مراجع وأي مجتهدين هؤلاء الذين يفتون بالجهاد الكفائي الذي ما تجرأوا أن يفتوا به لمواجهة الغزو الأمريكي للعراق، إن أولياء وأئمة نبي الله بوش (ص) هم أيضًا من يعين ويحدد من هو الأعلم من المجتهدين ليتولى المرجعية حتى من قبل غزو العراق واحتلاله، "في أحد الاجتماعات الأمريكية مع بعض المعارضين العراقيين شدد دجيرجيان (موظف في الخارجية من المكلفين بمتابعة الشأن العراقي) على رفض أي تدخل تمارسه (إيران) بخصوص المرجعية، مؤكدًا: نحن نرفض المراجع التي عينتها بغداد وطهران[٢]".

١- Dilip Hiro,secrets and Lies, New York: Nation Books ,2004, Page:1.24

٢- عادل رؤوف، مرجعية الميدان، مصدر سابق، ص: ١٨٩.

انظر أيضًا: د. موسى الحسيني، مرجعية السستاني والاحتلال، قراءة وطنية في مذكرات بريمر، نشرت بثلاث حلقات في جريدة القدس في شهر تموز ٢٠٠٦، كما يمكن الإطلاع عليها على الرابط http://articles-to-read.blogspot.co.uk/2006/07/blog-post_19.html?m=0

ويقتل ابن الرمادي ابن الناصرية، وابن النجف ابن الموصل، وابن مدينة الصدر ابن الأعظمية، وابن تكريت ابن العمارة، لا لشيء إلا لأنه يطعن بدينه؟!

يريد أن ينتقم من عمر لأنه ضرب فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، ويثأر من يزيد لقتله الإمام الحسين، يرد الآخر انتقامًا لشتم أم المؤمنين عائشة، وشتم الصحابي عمر بن الخطاب.. مسكين هؤلاء المتقاتلين، ما زالوا أغرار جهال لم تصلهم بعد أخبار دين العولمة الجديد.

أي دين هذا، وأين هو الدين من كل هذه الجرائم التي ترتكب ظلمًا باسم حب علي أو عمر؟!.

الفصل الخامس

البعث، المقاومة العراقية للاحتلال والطائفية

(الجزء الأول)

بعد سقوط ثورة العقداء الأربعة التي عُرفت بثورة رشيد عالي في ١ حزيران/ مايس ١٩٤١ وعودة النظام الملكي؛ شددت بريطانيا قبضتها المباشرة على الشأن العراقي.

كانت هذه الفترة تمثل في الوقت نفسه بدايات ظهور نُخب من المتعلمين من أبناء الطائفة الشيعية، ممن استفاد من المؤسسات التربوية التي أقامتها الدولة العراقية الناشئة، يمكن وصف هذه النخب بالعلمانية (لا تعني العلمانية هنا الكفر أو الإلحاد كما يشاع، بل هي موقف يرفض تدخل الدين بالسياسة) أي أنهم كانوا بعيدين عن أي ميول طائفية، بل يمكن اعتبارهم من المتمردين على الطائفة ومراجعها بانتسابهم لمدارس الدولة المحرمة، فهم من أولئك الذين لم يلتزموا بدعوة مجتهديهم لمقاطعة مدارس الدولة ووظائفها، توزعت هذه النخب بين التيارات السياسية المختلفة بدون أي حساسيات طائفية، لا منها ولا من أبناء الطائفة السُنّية، كانت أولوية ولاءاتهم لأفكارهم والأيديولوجيات التي اقتنعوا بها.

تشكل حزب الاستقلال كممثل للتيار القومي العربي برئاسة مهدي كبة الشيعي، وعضوية ٧ آخرين، ستة منهم من السنة[١]، تبوأ بعض من هذه النخب مواقع مميزة في الحزب الشيوعي العراقي[٢].. برز صالح جبر ممثل للتيار الموالي للسياسة البريطانية في العراق، كما كان كلاً من محمد الصدر، وفاصل الجمالي، من الموالين للملكية في التزاماتهما، إضافة لأسماء عديدة أخرى تحسب على التيار الوطني الناشط في العمل من أجل تحقيق استقلال العراق الكلي والتخلص من السيطرة البريطانية، دون الارتباط بتوجه أيديولوجي محدد، مثل جعفر أبو التمن، مهدي البصير، محمد رضا الشبيبي، وغيرهم.

عند وصول الأفكار الأولى لحزب البعث من سوريا إلى العراق، برز فؤاد الركابي كأكثر البعثيين التزامًا وتنظيمًا لأفكاره، ما أهله لأن يتولى عملية بناء الحزب وقيادته حتى أواخر ١٩٦٠.. تراجع خلال هذه الفترة بشكل واضح الحديث عن الطائفية التي انطوت بشكل منسي في التكايا والجوامع.

إن قراءة تاريخ المرحلة التأسيسية لحزب البعث فرع العراق تكشف بما لا لبس فيه مساهمة البعثيين الأوائل من أبناء الطائفة الشيعية، لا يكتمل الحديث عن

---

١ – حول تاريخ حزب الاستقلال، وظروف نشوءه وأبرز قياداته يمكن مراجعة أفضل دراستين عنه:

- عبد الله الجيزاني، حزب الاستقلال العراقي ١٩٤٦–١٩٥٨: التجربة الفكرية والممارسة السياسية، دمشق: دار العلم، ١٩٩٤.
- إبراهيم الجبوري، سنوات من تاريخ العراق: النشاط السياسي المشترك لحزبي الاستقلال والوطني الديمقراطي، بغداد: المكتبة العالمية، بلا تاريخ نشر.. إضافة إلى المصادر الأخرى التي تناولت تاريخ الأحزاب العراقية، خاصة كتاب مؤرخ الدولة العراقية الحديثة.
- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، بيروت: مركز الأبجدية للصف والتصوير للطباعة والنشر، ١٩٨٣، ص: ١٣٦–١٤٨.

٢ – حول مساهمة النخب الشيعية في الحزب الشيوعي العراقي راجع: حنا بطاطو، العراق – الكتاب الثالث: الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٢. خاصة الفصل ١٩ المعنون "تركيبة الحزب الشيوعي وتنظيمه"، ص: ٣٠٩–٣١٦.

تاريخ البعث في العراق بدون الدور الفعال لفؤاد الركابي، أول أمين سر لقيادة قطر العراق، وجهوده المميزة في تأسيس الحزب وتوطيد بناه وأطره، وهو شيعي من مدينة الناصرية[1].

يذكر بطاطو في إحصائياته عن امتداد الحزب في المدن العراقية، إن حجم التنظيم في مدينة الناصرية يأتي الثاني في التعداد بعد بغداد[2]، حتى بعد انشقاق الشهيد فؤاد عن الحزب، الذي تخلت قيادته القومية في سوريا عن شعار أو مبدأ الوحدة، مندفعة بقوة ضد وحدة مصر وسوريا واندماجهما بكيان واحد في (ج.ع. م)، بحجة دكتاتورية عبد الناصر الذي لم يسلمهم الحكم في سوريا، تشكلت قيادة الحزب في العراق بعد انشقاق فؤاد، تلك التي قادت حركة ٨ شباط ١٩٦٣ ضد عبد الكريم قاسم، من ٨ أعضاء، خمسة منهم كانوا من أبناء الطائفة الشيعية، وثلاثة من السنة[3].

عندما يمضي الإنسان بهذه الحسابات الطائفية، فإن أوائل الذين نقلوا أفكار الحزب من الطلبة السوريين كانوا من أبناء الطائفة العلوية المحسوبة على التشيع، مثل فائز إسماعيل ورفاقه، الذين يسجل لهم مؤرخوا الحزب السبق في نقل أفكاره للعراق ونشرها بين طلبة الجامعة، كان العلويون في سوريا من أبناء لواء الإسكندرونة الذين هاجروا لدمشق بعد استيلاء الأتراك على اللواء، هم القاعدة الأساسية أو الركيزة الأولى التي قام عليها الحزب أصلاً[4].

١- للإطلاع على الدور المميز لفؤاد الركابي في تأسيس فرع العراق لحزب البعث راجع: نفس المصدر، ص:٤٨- ٥٢. كذلك، مجيد خدوري، العراق الجمهوري، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤، ص:١٦٣-١٦٤.

٢- حنا بطاطو، مصدر سابق، ص:٤٩.

٣- نفس المصدر، ص: ٢٨٤

٤- نفس المصدر، ص: ٤٧.

قبل الانتقال للحديث عن تجربة الحزب بعد انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ ، هناك حقيقة أيضًا تخص حزب الدعوة ، وهو أكبر وأقدم الأحزاب الدينية في العراق..

ملاحظة ذات أهمية بموضوع الحديث عن الطائفية؛ يصر كتاب حزب الدعوة على إرجاع تاريخ تأسيسه إلى عام ١٩٥٧ ، على أساس أنه كان فعلاً وجهدًا إيجابيًا وليس ردة فعل تجاه المد الشيوعي الذي ساد الشارع العراقي بعد سقوط النظام الملكي ، رغم أني أعتقد أن التاريخ الحقيقي لنشوء الحزب وتحركه لكسب الأعضاء ونشر دعوته بين الموثوق بهم من رجال الدين والمتدينيين بدأ في ربيع عام ١٩٦١ ، ليس في الأمر إشكال كبير ربما كانت هناك أفكار أو حديث عن تشكيل الحزب بدأت في عام ١٩٥٧ ، إلا أن نشاطات المؤسسين بدأت في ربيع ١٩٦١، سواء كان التاريخ الحقيقي ١٩٥٧ أو ١٩٦١..

ففي عام ١٩٥٧ كان النظام الملكي قائمًا ، بفترة يمكن أن توصف بتراجع التوجهات الطائفية وانكفائها لصالح التيارات السياسية الجديدة، أي ما يؤشر إلى غياب التوجهات الطائفية للحزب ، في عام ١٩٦١ كان العراق خاضعًا لحكم عبد الكريم قاسم ، الناس أبعد ما يمكن أن تكون عن الدين والطائفية ، فهي منقسمة بين الشيوعيين ومناهضيهم من قوى مختلفة، ما يعني أن حزب الدعوة أو التحرك السياسي لبعض رجال الدين انطلق على أُسس دينية إسلامية غير طائفية ، حتى أن الحزب وإلى عهد قريب لا يخفي إعجابه بحزب الإخوان المسلمين في مصر ، وحزب التحرير ، وسيد قطب.

الخميني في حينها كان مجرد مجتهد إيراني لاجئ في العراق ، أي لا دخل لإيران أو ثورة الخميني بتشكيل الحزب ، كما كان نظام الشاه مكروهًا على العموم من غالبية العراقيين ، شيعة وسنة.. بما يعني أن حزب الدعوة انطلق بإرادة عراقية خالصة دون أي تأثيرات لإيران عليه، بغض النظر عن الموقف

الأيديولوجية، بالعكس قد تكون مراحل ولادته الأولى أكثر تأثرًا، كما قلت بتجربتي الإخوان المسلمين والتحرير، وسيد قطب.

ننتقل الآن للمرحلة الثانية من وصول البعث للسلطة، كان صدام محور أو سيد السياسات التي سادت خلال ال ٣٥ عام من حكم البعث، إن متابعة مسيرة حياته حتى ما قبل وصوله للسلطة لا تدل على أي توجهات طائفية عنده، يقر بذلك حتى أكثر أنصار الطائفية تطرفًا[١].. ضحاياه الأوائل كانوا من علماء السُنَّة مثل الشيخ عبد العزيز البدري، أمير ولاية العراق في حزب التحرير، الشيخ البدري كان معروفًا بتوجهاته الإسلامية التي ترتقي فوق الحساسيات الطائفية، عرف بعلاقاته الودية مع الكثير من مجتهدي الشيعة مثل الشيخ مهدي الخالصي ومحسن الحكيم.

إن صدام لا طائفة له ولا دين أو أي اعتبارات أخلاقية، كان دينه وكل معتقداته الأخرى تتمركز حول شخصه، مصلحته هو أولاً ومصلحة ومنافع أقاربه الأقربين جدًا أولاده وإخوانه، ومن ثم أولاد عمومته، حتى هؤلاء من يخرج منهم عن طوعه أو يمكن أن يشكِّل خطرًا أو تهديدًا محتملاً على موقعه؛ مهما تكن درجة قرابته سيكون عرضة وموضوع لانتقامه كما الآخرين.

تجربة أزواج بناته، حسين كامل وصدام كامل خير دليل، كما لم تتلاشَ الشكوك حتى الآن في أن مقتل ابن خاله وصديق طفولته عدنان خير الله، صهره، أخو زوجته ساجدة وخال أبناءه وبناته، الذي قُتل بحادث طائرة، بسبب رداءة الأحوال الجوية، إلا أن هناك الكثير من المعطيات تشير إلى أن الحادث كان مفتعلاً. اكتسب عدنان رتبته كضابط بكفائته الشخصية، فهو خريج الكلية العسكرية، لم يمنحه أحد الرتبة اعتباطًا، غير محكوم بإحساس التطفل على

١- مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية، أزمة شيعة العراق، لندن: منشورات مؤسسة الخوئي، ٢٠٠٢، ص: ٥٣. كذلك: علي المؤمن، سنوات الجمر، لندن: دار المسيرة، ١٩٩٣، ص:١٧٧.

الجيش كما هو صدام حسين نفسه، برز عدنان كقائد عسكري محبوب التف حوله الكثير من الضباط، ما يعني أنه يمكن أن يكون مرشح كبديل لصدام في أي عملية تغير داخلية وحتى خارجية، مع وجود لغط بدأ ينتشر بالحديث عن احتمال إبدال صدام حسين بوجه جديد بغية إيقاف الحرب العراقية – الإيرانية التي أنهكت البلدين، لعل ما جرى لأبيه خير الله طلفاح من إهمال وتحجيم لأنه كان يعلن اتهاماته لدور صدام في قتل ابنه، دليلاً.

خير الله هذا كان أول مؤشرات الطائفية (كعصبية أو اتجاه تعصبي) للنظام ضد الشيعة في السنوات الأولى لوصول البعث إلى السلطة، بخروجه المتكرر على شاشة التلفزيون الحكومي ليكيل الاتهامات للشيعة، بخلطه بين التشيع والشعوبية والغلاة، رغم أن التعليمات الحزبية كانت تخفف من انعكاسات تصرفاته هذه بالترويج لبسطاته وسذاجته، ما دفع الشيعة لأخذ هذه السلوكيات مأخذ الهزء والسخرية منه، يتفرجون ويتابعون برامجه الأسبوعية بتشوق كما يتابعون أفلام إسماعيل ياسين أو عبد السلام النابلسي، أو أي حكواتي أو مهرج ممن عرفتهم مقاهي الشام أو بغداد، كان الاعتقاد أن سكوت صدام عنه ليس إلا من قبيل احترام الابن لخاله الذي تولى تربيته، خاصة وأن خير الله لم يكن بعثيًا، ولم يسلم حتى حزب البعث من تلميحاته النقدية.

خير الله هذا رآه الناس بعد مقتل ابنه عدنان مكسور مشلول على كرسي بأربع عجلات، والتفسير لذلك أن صدام نفسه كان قد سبب بطريقة وأخرى شلله بعد أن كثرت انتقاداته لصدام واتهامه بمقتل عدنان، مات خير الله بعد كل تلك الشهرة التي أخذها في السنين الأولى للنظام دون أن يعرف أحد بموته.. مرت ظاهرة خير الله طلفاح، ليس بدون أنعكاسات نفسية على الكثير من الشيعة، رغم محاولة البعثين تخفيف آثارها بما يشيعونه عن هبالته، التي تحرج صدام نفسه بحكم آداب الوفاء لمربيه.

إن ضحايا صدام الأوائل من رجال الدين كانوا من السُّنة، وأولهم الشيخ عبد العزيز البدري، قيل في وقتها انتقامًا منه لأنه ألَّف كتابًا ضد الاشتراكية.

الخطوة الأخرى التي كانت تتحمل تفسيرات عدة، طائفية ولا طائفية، فسرها البعث على أنها نوع من الصراع على القوة، أو انعكاس لموقف وطني عراقي بمواجهة النفوذ الإيراني وتوجهات وأطماع الشاه في العراق، أو أنها شكل من أشكال الصراع بين التوجهات التقدمية البعثية مع القوى الرجعية، تمثلت بموقف النظام من أساتذة جامعة بغداد الشيعة الذين شاركوا أو ساهموا بطريقة أو أخرى لتأسيس جامعة الكوفة، رغم أنهم جميعًا من العرب، وليس لأي منهم علاقة بإيران، أو أي تحرك سياسي ديني أو علماني، ولو كان النظام يمتلك أي دلالة لمثل هذه العلاقة لما امتنع عن تصفيتهم، ولما اكتفى بإقالتهم فأقيلوا من مواقعهم الأكاديمية دون أي متابعة قضائية أو قانونية تشير لأي شك بارتباطاتهم السياسية بأحزاب أو منظمات عراقية أو أجنبية، جريمتهم أنهم شيعة، مثل الدكتور عبد الله فياض، رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب، والدكتور باقر عبد الغني عميد كلية اللغات التابعة لجامعة بغداد، الدكتور عناد غزوان أستاذ الأدب العربي في كلية الآداب بجامعة بغداد، الدكتور ضياء أبو الحب أستاذ محاضر بعلم النفس في كلية التربية بجامعة بغداد، وغيرهم كثير، وهم جميعًا كانوا من المتطوعين للتدريس في كلية الفقه في النجف، لا يستطيع أحد تقديم أي تفسير لإخراجهم وإحالتهم للتقاعد إلا كونهم من أبناء الطائفة الشيعية.

كانت أجهزة الحزب والمخابرات الخاضعة لإدارة وسيطرة صدام حسين الكلية تشير بإصبع الاتهام في مثل هذه المواقف إلى أحمد حسن البكر باعتبار أنه يمثل الخط الرجعي العشائري في الحزب، وتبشر بالخلاص من مثل هذه الممارسات الطائفية حالما يصل صدام لرئاسة الحزب، فكان صدام أملاً شيعيًا

عند البعثيين من الشيعة ليخلصهم من هذا الخط الرجعي العشائري المسيطر على الحزب.

إن قصة اتهام مهدي الحكيم ابن المرجع محسن الحكيم رغم وضوح التوجهات الطائفية فيها، رتبها النظام لكسر موجة التحدي التي واجه بها المرجع محسن الحكيم نظام البعث، إلا أنها مرت هي الأخرى بدون أن تترك كثير من الانعكاسات على مشاعر العامة من أبناء الطائفة الشيعية، كان المد الديني ما زال ضعيفاً، كما نجح النظام بالخلط بشكل ذكي بين مهدي الحكيم والبرزاني وعبد الغني الراوي ومخابرات الشاه.

ففي ٩ حزيران ١٩٦٩، ظهر على شاشة التلفزيون مدحت الحاج سري ليدلي باعترافاته كونه عميل لأمريكا والشاه، وأنه يخطط مع عبد الهادي الراوي ومهدي الحكيم لمؤامرة للإطاحة بنظام البعث لصالح أمريكا وإيران[١]، كان مهدي الحكيم حتى هذا الظهور التلفزيوني لمدحت الحاج سري، طليقاً في الشارع، تمتلك السلطة المعلومات الكافية عن أماكن تواجده، إلا أنها تحاشت على ما يبدو لحسابات معينة إلقاء القبض عليه وأعطته الفرصة للهرب بعد نشر هذه الاعترافات، وإلا فإن الموقف المفروض ألا تنشر هذه الاعترافات إلى ما بعد إلقاء القبض على المتهمين الذين ترد أسماؤهم بالاعتراف..

قد يكون إعدام الضابط راهي بن الشيخ عبد الواحد سكر في هذه المؤامرة، هو الحدث الأكبر الذي هز مشاعر أبناء الجنوب، فراهي لا يمكن أن يتهم بالميول الرجعية أو الموالية لإيران، أبوه عبد الواحد سكر هو واحد من أهم قادة ثورة ١٩٢٠، وقائد التحرك العشائري الذي أوصل الزعيم القومي العربي ياسين الهاشمي للحكم عام ١٩٣٦.

١- علي المؤمن، مصدر سابق، ص:٩٩.

ظلت آثار ممارسات أجهزة مخابرات صدام هذه محصورة بالنخب المتدينة ولم تتوسع أو تنتشر بين عامة الشيعة ، تأخذ لباس الصراع بين الحكم ومراكز القوى الشيعية المحسوبة على خط الرجعية، ولم تؤثر كثيرًا على توجهات عامة أبناء الطائفة ، أو أنها تتحمل التفسير كحالة صراع بين التطلعات التقدمية الاشتراكية ممثلة بالحزب، مع بقايا القوى الرجعية المتمسكة بالطائفية.

- مجزرة صفر/ شباط ١٩٧٧ ، ودور عزة الدوري فيها :

انقلبت الصورة، واهتزت تمامًا مشاعر الشيعة من العامة والنخب ، العلمانيين منهم والمتدينين ، عندما لم يتردد نظام حزب البعث عن قتل الشيعي لأول مرة بتاريخ الدولة العراقية منذ تأسيسها في أوائل عشرينات القرن الماضي ، فقط لأنه شيعي، لا لأي سبب معقول أخر ، كالاتهام بنشاط سياسي مثلما كان يجري من إعدامات وقمع لأعضاء حزب الدعوة ومنظمة العمل الإسلامي[١].. هذه المرة لا ، أنت شيعي يجب أن تقتل ، لعبة دبرها وزير الداخلية في حينها عزة الدوري ، عندما أصدر في شباط عام ١٩٧٧ أمر بمنع المسيرات الراجلة التي تنطلق عادة من النجف إلى كربلاء بمناسبة أربعينية الإمام الحسين، وهي عادة يرجع تاريخها لعشرات أو حتى مئات السنين ، رفض أبناء النجف الأمر ونظموا المظاهرات داخل المدينة مستنكرينه، أصر الوزير بدوره على قراره، ثم استخدم قوات الشرطة وأجهزة المخابرات في المدينة لمنع المسيرة بالقوة، جر النظام وراءه ليُنزل قطعات من الجيش لمواجهة المشاة الأبرياء المجردين من أي سلاح سوى تصميمهم على أداء شعائرهم المعتادة، تمَّ إلقاء القبض على الآلاف من المشاركين في المسيرة بغطاء مؤامرة سورية مزعومة، قامت بها

١- بدأت سلسلة الإعدامات لمنتسبي حزب الدعوة بوقت مبكر من بدايات عهد البعث، بدأ بإعدام عبد الصاحب الدخيل في أواخر عام ١٩٧١ ووصلت أرقام الضحايا الى بضعة آلاف، للإطلاع على ذلك لاحظ: علي المؤمن، مصدر سابق، ص: ٢٣٥.

سوريا بتوزيع البرتقال لرشوة المشاة وتشجيعهم على المسيرة لترسل من طرف آخر شخص يحمل كمية من المتفجرات يريد بها تفجير مرقد الإمام الحسين لإحداث بلبلة وفوضى في العراق، لعبة لا يصدقها حتى عقل الأطفال[١].. بعد أسبوع تمَّ تشكيل محكمة حزبية خاصة لتحكم بإعدام ٨ ممن أسمتهم المحكمة قادة المؤامرة.

كان البيان الأول بتشكيل المحكمة قد خصص بالأسماء ٣ من أعضاء القيادة القطرية كرئيس و٢ من الأعضاء، إلا أن كل من الدكتور عزت مصطفى، عضو القيادة القطرية وفليح حسن الجاسم رفضا القرار لعدم اقتناعهما باللعبة، فأصدر الحزب قرار بفصلها من الحزب وتنحيتهما من وظائفهما، وتم تشكيل محكمة جديدة برئاسة طه الجزراوي، أصدرت المحكمة الجديدة أحكامها ببيان أعلن بالتلفزيون بعد ٣ ساعات من إعلان تشكيلها، بما يعني أن الأحكام كانت جاهزة، لم تكن الغاية من تشكيل المحكمة إلا التمويه بقانونية أو شرعية الأحكام من تشكيلها.

كان يمكن أن تهدأ نفوس الناس مع الأيام، ومشاعر الدهشة والاستغراب من هذا التوجه العدائي المكشوف للطائفة، كانت ما تزال مشاعر بالغصة والألم يتحكم في الناس ليظهر عزة نفسه بعد حوالي ٢٠ يوم، بخطوة فُسرت أنها استفزازية متعمدة، مشاركًا باحتفالات المولد النبوي في جامع الإمام أبي حنيفة في الأعظمية، مع نقل حي ومباشر على التلفزيون الحكومي، عارض مشاركته بانفعال بالحركات الراقصة وهز رقبته وأكتافه بمصاحبة الدفوف.

١- د. موسى الحسيني، المقاومة العراقية والإرهاب الأميركي المضاد، بيروت: دار الكنوز الأدبية، ص: ٧٦.. كذلك: علي المؤمن، مصدر سابق، ص: ١٣٠.

- محمد رضا النعماني، الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار، قم: بلا دار نشر، بلا تاريخ، ص ك ٢٠٦.

اهتزت مشاعر عامة الشيعة حتى الكثير من البعثيين منهم، تحت ثقل السؤال: ما معنى أن يمنع الشيعة من ممارسة شعائرهم، ويعدمون؟!، وتصف وسائل إعلام النظام تلك الشعائر بأنها بقايا تقاليد رجعية متخلفة بالية وجهل، ثم بأقل من شهر يشارك الوزير الاشتراكي التقدمي جدًا في شعائر مماثلة ينقلها التلفزيون مباشرة، بما يوحي بأنها استفزاز مقصود ومتعمد.

من ردات الفعل التي خبرتها شخصيًا عند شباب من أبناء الطائفة ، ممن كانوا أبعد الناس عن التوجهات الطائفية :

١: كنت جالسًا مع أحد معارفي، بعثي منذ عام ١٩٦٣، عضو قيادة شعبة كربلاء، الرتبة التي تؤهله لأن يقف في صف المسؤولين بالمناسبات، كان واقفًا وقت مؤامرة البرتقال السورية المزعومة في صف المسؤولين في باب مرقد الإمام الحسين، شاهد بعينه وعن قرب الشخص الذي أحضروه مقبوضًا عليه مع علاقته (زنبيله) المملوءة بالمتفجرات الوهمية التي أراد أن يفجر بها مرقد الإمام الحسين. كنا ننتظر أن يعرض التلفزيون مقابلة مع هذا المتآمر السوري الذي أراد أن ينفذ التفجير، ما أن عرض التلفزيون المتآمر السوري حتى وجدت صاحبي يقفز بشدة من مكانه صارخًا معقول.. معقول، فاجئني بحركته وصراخه، بالكاد أجاب على تساؤلاتي عن سبب هياجه، فقال لي: إن الشخص الذي أحضروه أمامهم على أنه يريد تفجير المرقد الحسيني، كان شخص آخر لا يشبه بأي حال هذا المعروض على الشاشة أمامنا.

بعد سنة أو أكثر قليلاً سمعت أن هذا المناضل البعثي تمَّ إلقاء القبض عليه بتهمة الانتماء لحزب الدعوة، تمَّ إعدامه دون أن تسلم جثته لذويه عدا كتاب من مدير مديرية الأمن يقول إنه تمَّ إعدامه لانتماءه لحزب الدعوة العميل.

لا أدري كم من البعثيين ارتد بنفس طريقة صديقي المرحوم، وكم منهم من احتفظ بنقمته بقلبه خوفًا؟ مع ذلك فإن أول حركة مقاومة جدية لقوات الاحتلال

الأمريكي المتقدمة باتجاه بغداد انطلقت من مدينة الناصرية – كما سيأتي الحديث عنها – في الوقت الذي لم نسمع خبرًا عن إطلاق ولا طلقة بندقية على الأقل تجاه القوات الأمريكية المتقدمة من الشمال ، التي كانت بعهدة عزة الدوري، الجندي الفار والمتخلف عن الخدمة العسكرية الذي ألبسه صدام البدلة العسكرية مع رتبة فريق ركن وانتدبه مسؤولاً عن قاطع الشمال ، كأن الفرار سليقة وطبع متجذر في تركيبته السيكولوجية.

من هو سمير نور علي ، منفذ عملية الجامعة المستنصرية ؟،
وما علاقته بإيران وحزب الدعوة؟

في أحد أيام شتاء أواخر عام ١٩٧٦ ، قال لي أحد معارفي إنه تكلم عني مع اثنين من أصدقاءه، فطلبوا بإلحاح رؤيتي ، دون أن يوضح لي ما يرغبون به ، عدا أنهم من الشباب اليساريين ويحبون الاستفادة من تجربتي في المقاومة الفلسطينية ، وفعلاً حضرا إلى بيتي في اليوم التالي ، كانا في بداية العشرينات من أعمارهم ، قدما نفسيهما على أنهما من المؤمنين بالفكر الشيوعي – خط تروتسكي والثورة الدائمة – وأنهما ثقة بمن أحضرهم وما عرفاه من تجربتي كوني كنت ضابطًا معارض للنظام ولي تجربة بالمقاومة الفلسطينية ، لذلك يتمنيا لو أني وافقت على تدريبهما على السلاح ، فهما ومعهم مجموعة من الشباب ينويان تنفيذ مجموعة من العمليات ضد النظام كخطوة تجاه تحقيق الثورة المستمرة ، كما كشفا لي أنهما مع المجموعة يمتلكان قطعتي سلاح كلاشنكوف ومسدس على ما أعتقد وأتذكر من نوع توكاريف ، كان اسم أحدهما والأكثر اندفاعًا هو سمير نور علي ، الثاني كما عرفت أنه ما زال يعيش في ألمانيا لا أتذكر من اسمه غير الاسم الأول محمد.

كنت حينها مشمولاً بقرار عفو من حكم إعدام أصدرته محكمة أمن الثورة بتهمة التآمر على الحزب والثورة، لذلك أربكني طلبهما بل وأرعبني، خاصة وأن لا معرفة مباشرة تربطني بهما سابقًا ، حاولت التهرب من طلبهما بالنصيحة بألا يندفعا ويتعجلا، وأن يبذلا جهودهما لتوسيع التنظيم قبل التفكير بأي عمل مسلح، كان الجميع سمير ورفيقه ومعرفتي الذي جاء بهما طلاب في كلية السياسة والاقتصاد بجامعة بغداد، كنت حينها أنا أيضًا أدرس في الجامعة المستنصرية – الدراسات المسائية – كلية الآداب – قسم الإرشاد النفسي والتربوي.

التقيت بسمير بعدها أكثر من مرة، واحدة في الجامعة المستنصرية، وكما أخبرني أنه جاء للقاء صديق له، تمشينا لوقت قد لا يتجاوز النصف ساعة، ثم التقينا عدة مرات بأحد معسكرات العمل الشعبي الإجبارية للخريجين أو طلاب السُنَّة الأخيرة من مختلف الكليات والجامعات في صيف عام ١٩٧٨، كنا نسرق بعض الوقت في ساعات الليل المتأخرة لنجلس نتداول همومنا السياسية، حتى تلك السُنَّة كان سمير أبعد الناس عن الدين أو الطائفية فهو لا يخفي ميوله العلمانية – التروتسكية.

بعد سنة من هجرتي من العراق، كنت في فرنسا في حينها عندما سمعت بحادث المستنصرية ومحاولة اغتيال طارق عزيز التي نفذها صديقي سمير نور علي نفسه.

أستطيع أن أقدم الآن شهادة للتاريخ: أعرف جيدًا المشاركين بالعملية أو المخططين الرئيسين لها، كما هم يعرفوني جيدًا وما زالوا أحياء، إن سمير كان من الأكراد الفيلية وأبيه صاحب محل لبيع الثريات في سوق الشورجة، شاب وطني عراقي أصيل لا علاقة له بإيران لا انتماءً ولا ولاءً، شيوعي، تروتسكي كان يقود مجموعة تتراوح بين ٥-٦ أفراد بنفس الميول، أي شيوعيين على خط تروتسكي.

ملخص القصة، كما فهمتها فيما بعد من القريبين من الواقعة، أن سمير وبعض الطلاب غير البعثيين أو المعادين لحزب البعث من اتجاهات مختلفة إسلامية ويسارية وقومية كانوا يتكتلون في الكلية (كلية الاقتصاد والسياسة) بعلاقات صداقة، أحدهم كان عضوًا في منظمة العمل الإسلامي (صادق الشكرجي)، انتبه صادق لتوجهات سمير فراح يشجعها، وهو الذي أحضر الرمانتين اليدويتين اللتين استخدمهما سمير في العملية، وبناء على طلب سمير وبوقت أقدم بكثير من تنفيذ عملية المستنصرية، قد يكون كل من عبد الله الموسوي والشيخ حسين الحسيني، عضوا المنظمة لهما دورًا في إحضار الرمانتين، فكانت عملية الجامعة المستنصرية.

إني لمتأكد أن العملية وبقدر تعلقها بسمير لا علاقة لها بإيران أبدًا، ولا بحزب الدعوة أو منظمة العمل الإسلامي، هي إرادة خاصة وفكرة خاصة بسمير نفسه وفهمه الخطأ لمفهوم الثورة المستمرة التروتسكية، إلا إذا كان المقصود بهذه العلاقة ارتباطات صادق الشكرجي، وهو عراقي من أصول عربية بدليل لم تخضع عائلته للتسفيرات التي شملت العراقيين من أصول إيرانية.

أتذكر جيدًا في أحد لقاءاتنا في معسكر العمل الشعبي سألني سمير عن رأيي في مجزرة صفر ١٩٧٧ التي تعرض لها المشاة الشيعة، كانت وجهة نظره أنها عملية طائفية قذرة يريد النظام من خلالها مشاغلة الناس عن همومهم الطبقية، ومحاربة تيار اليسار بدفع الناس للانغماس بالتناحرات الطائفية، ولا استبعد أن انعكاسات العملية النفسية هي ما أثرت بسمير للقبول بالتعاون مع منظمة دينية وهو اليساري العلماني.

شاءت الصدف أن يستغل صادق علاقته بأحد أقاربي ليلجأوا إلى إحدى المنظمات الفلسطينية مستغلين علاقتي بها، وادعى صادق معرفته بي وأنه معرض للاعتقال لأنه عضو في حزب الدعوة، دون أن يخبر أصدقائي بدوره في عملية المستنصرية، ساعدتهم المنظمة في السفر بجوازات سفر مزورة،

إكرامًا لي رغم أنهم لم يعلموني بالأمر إلا بعد تسفيرهما صادق إلى بلغراد في يوغسلافيا ومنها سافر إلى طهران.

يبدو أن المخابرات العراقية اكتشفت فيما بعد علاقة صادق بعملية المستنصرية، فظلت تتابعه للانتقام، وفعلاً تمكنت من دس السم له مع عبد الله الموسوي، عن طريق أحد المعارف ، شفي عبد الله الموسوي بسرعة إلا أن صادق تعرض لشلل نصفي ، أعاقه عن المشي أو الحركة بشكل طبيعي ، دون الاعتماد على كرسي متحرك، عاد بعدها إلى إيران وضاعت أخباره عني.

كانت المجزرة التي خطَّط لها عزة إبراهيم بذكاء وتقصد أو بغباء وعنجهية الصبي في محل بيع الثلج؛ الذي أراد أن يؤكد ذاته وقدرته وينتفض على مرارة تاريخ الضعة والدونية التي كان يعيشها، تلك كانت الخطوة الأولى تجاه ما نراه من احتراب طائفي ، فلأول مرة يُقتل الشيعي لا لذنب أو موقف سياسي معارض، أو لشك ما يمكن أن يمس بوطنيته، بل فقط لأنه شيعي.

قدَّم عزة بعمله هذا خدمة كبرى لحزب الدعوة، وهو أنشط الأحزاب والتجمعات الدينية على الساحة العراقية، كان النظام ينسب للحزب كل العمليات التي جرت في حينها حتى عملية الجامعة المستنصرية ، وجد الشباب الناقم علي سلوكيات النظام التي أصبحت طائفية مكشوفة لا تقبل اي تفسير آخر ؛ تعبيرًا عن غضبهم ورفضهم لهذا التمايز الطائفي للنظام ، في حزب الدعوة خير وسيلة للتعبير عن غضبهم وتحديهم ، عززت الثورة الإسلامية في إيران معنويات الحزب وأعضائه بإمكانية إسقاط النظام ، ثم قام النظام بإعدام المرجع السيد محمد باقر الصدر وأخته بنت الهدى.

أربك توسع حزب الدعوة، وامتداد تنظيماته في بغداد ومدن الجنوب بسرعة لم توقفها الإعدامات الكيفية لأعضاءه ، ولا القانون المجحف الذي أصدره صدام باسم مجلس قيادة الثورة ، الذي ينص على إعدام أي شخص يرتبط بالحزب بغض النظر عن مدة ارتباطه، وينفذ بشكل رجعي ، أي أنه يشمل حتى من كان

مرتبطًا بالحزب وانسحب منه أو ترك الالتزام به[1].. لم يجد النظام أمامه غير إعدام السيد محمد باقر الصدر ، وأخته الفاضلة بنت الهدى ، كمحاولة لدفع حزب الدعوة ليصعد عملياته ويكشف عن منظوماته السرية، كما فسر لي ذلك في لقاء شخصي بلندن عام ١٩٨٢، مدير مكتب نعيم حداد أسباب تهور النظام بإعدام الشهيد الصدر والشهيدة أخته[2].

يحتل باقر الصدر عند شيعة العراق مكانة خاصة مميزة وفريدة، إضافة لما كان يطرحه السيد باقر الصدر من الاجتهادات العلمية الجديدة المميزة، التي ساهمت بذيوع شهرته كنموذج جديد من المراجع، يقف بعيدًا بخطوات كبيرة عن المرجعيات التقليدية، كما ظهر ذلك من خلال كتبه اقتصادنا وفلسفتنا، البنك اللاربوي؛ وغيرها من الدراسات والاجتهادات التي تناولها بلغة جديدة تختلف عن لغة الحرام والحلال التي اعتاد المراجع الذين سبقوه ترديدها ، كما هو عربي – عراقي يمثل رمز لعودة الحوزة لهويتها العربية.

أما عن علاقة الصدر بإيران الدولة ، يمكن فهمها من خلال علاقة الصدر بالخميني خلال فترة عيشه في العراق، أي علاقة شخصية بين مرجع ومرجع، أو "عالم بعالم" كما وصفها الصدر ، عند استجوابه من قبل فاضل البراك مدير الأمن العام في إحدى مرات اعتقاله ، ليس لها أي صفة أخرى، كأن تكون علاقة رجل مع أي مؤسسة من مؤسسات الدولة الإيرانية لا في زمن الشاه ولا في عهد الخميني[3].

بالعكس تمامًا قد يكون الخلاص من السيد محمد باقر الصدر رغبة خفية عند بعض المؤسسات الإيرانية، كما هي رغبة النظام البعثي من إعدامه، هذا ما يفسر الأسباب التي دفعت الإذاعة الإيرانية الناطقة باللغة العربية أن تذيع نص

١- يمكن الإطلاع على نص القرار في: علي المؤمن، مصدر سابق، ص:٤٣٦.

٢- يمكن الإطلاع حول تصاعد الخلافات بين النظام والسيد محمد باقر الصدر في: محمد رضا النعماني، مصدر سابق.

٣- نفس المصدر، ص: ٢٢٧.

المكالمة التليفونية بين السيد الصدر والخميني، التي كانت سببًا في مضي النظام لمحاصرة الصدر ومن ثم إعدامه[1]، إذا كان صدام حسين يريد بإعدامه إهاجة وكشف الخلايا السرية لحزب الدعوة، لتخرج من مخابئها دون أن تكون مستعدة كليًا للمواجهة وإسكات صوت معارض جريء.

لعل بعض المؤسسات الحكومية أو الدينية الإيرانية كانت تتمنى أو تريد عمدًا أن تدفع صدام من خلال إذاعة تلك المكالمة بتكرار، أن تحقق غرضين: أولهما التخلص من مرجعية عربية واعدة يمكن أن تهدد نفوذ المرجعيات الإيرانية في العراق مستقبلاً، ثانيهما: ما يترتب على هذا الإعدام من انتفاض وثورة أتباع الصدر لحد الانتصار، وإسقاط نظام صدام حسين، أو على الأقل مشاغلته بأزمات داخلية يمكن أن تضعف وضعه في الحرب.

لا شك أن مقتل الصدر عزز بقوة التوجهات الطائفية عند المتدينين الشيعة، لكن الطائفية الشيعية في هذه المرحلة لم تكن موجهة ضد إخوانهم من أبناء الطائفة السُنّية، بل ضد حزب البعث ونظامه المتهم بالطائفية.. تجسد هذا التوجه بشكل مكثف بعد الهزيمة التي مُني بها النظام في حرب الكويت، في الانتفاضة التي اندلعت في مدن الجنوب والوسط، إن التحليل المنطقي والعقلاني الموضوعي للانتفاضة يرغم الباحث للتقليل من أثر التوجهات الطائفية الكامنة وراء تلك الانتفاضة[2].

١- نفس المصدر، ص: ٢٦٥-٢٦٨.

٢- للإطلاع على أحداث الانتفاضة وأسبابها يمكن من وجهات نظر مختلفة بالعودة إلى الملف الخاص بالانتفاضة الذي نشرته دورية دراسات عراقية.. العددان ٤ و٥، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٧، ص: ٢٥٤ – ٢٧٥. لاحظ أيضًا: عادل رؤوف، العمل الإسلامي في العراق، دمشق: المركز العراقي للدراسات والإعلام، ٢٠٠٦، ص: ٤٣٣-٤٧٥.

انتفاضة ما بعد حرب الكويت:

يشكِّل شيعة العراق ما يقارب الـــ ٦٠% من تعداد العراق، ولنقل إنهم يمثلون نسبة ٥٠% وحتى أقل، هم عرب عراقيون، هموم الوطن تمثل همومهم الخاصة كعراقيين بغض النظر عن انتمائهم الطائفي أو ولائهم المذهبي، كان وقع الهزيمة التي تعرض لها الجيش العراقي شديد عليهم كمواطنين عراقيين، فالجيش جيشهم، والبلد بلدهم.. كان تهور صدام الذي ظل إلى يوم الحرب يبشر بالانتصار وهزيمة الأمريكان، هو السبب في ما جرى لهم كجزء من الشعب العراقي، يبقى للحرب أيضًا انعكاساتها النفسية على الإنسان العراقي بغض النظر عن انتماءه الديني أو الطائفي، لسنا بصدد مناقشتها تفصيلاً، ذلك ما يحتاج لدراسة خاصة..

تفاعلت تصرفات باقر الحكيم والإعلام الإيراني مع إعلام صدام لصبغ الانتفاضة بالصبغة الطائفية، أراد الحكيم أن يُظهر الانتفاضة على أنها انتفاضة أنصاره؛ ليعزز دعاويه بكونه يحوز على قدر كبير من الأتباع في الداخل، في حين أنه جند أنصاره في إيران خلال فترة الانتفاضة التي استمرت حوالي شهر؛ ليرابطوا على الحدود لمنع تسلل أي متطوعين ينوون الدخول للعراق للمشاركة بالانتفاضة، لم يرسل أي مساعدات كالسلاح أو المال أو أي شيء من هذا القبيل لدعم المنتفضين، بل أرسل وبالاتفاق مع القوات الأمريكية السيارات المحملة بصوره لإلصاقها على الحيطان أو لدس بعض من أنصاره بين المنتفضين، رافعي صورته[1].

لعل هذا هو السبب الأقوى، الذي يجب أن يُؤخذ بالحسبان كعامل من عوامل فشل الانتفاضة وعدم امتدادها للمدن السُنِّية، أعطى باقر الحكيم ومن وراءه الإعلام الإيراني عامل قوة ودعم لصدام حسين لينقض على مدن الانتفاضة

١- عادل رؤوف، مصدر سابق، ص:٤٤٤-٤٤٥.

بقسوة، مثيرًا رعب السُنَّة والضباط منهم خاصة، من طائفية الانتفاضة، الذين ما زالوا يحملون توجهات العداء لإيران بعد حرب ٨ سنوات، لم يمر الوقت الكافي لمحوها، ما جعل الكثير منهم يعتقد أو يرى الانتفاضة وكأنها امتداد لتلك الحرب لتعوض إيران عن خسارتها، لذلك اندفعوا بقوة ضد الانتفاضة، مع أن إشارة الإعلان أو البدء بالانتفاضة كان قد أطلقها ضابط سني بعثي؛ شاهد صورة كبيرة لصدام حسين في مدخل مدينة البصرة خلال انسحابه من الجبهة، فقام بإطلاق النار عليها بصليات متعددة.. مؤشر يكشف حجم امتعاض الجيش واستياءه من تهور صدام الذي ورطه بحرب غير متكافئة، كما يثير الإيحاء باحتمال تمرد عسكري سينقلب على النظام ويستبدله، نقلت الحادثة في حينها محطة **CNN** ، وتناقلتها بقية المحطات ، فكانت كالإعلان للبدء بالانتفاضة الشعبية.. تحركت خلايا حزب الدعوة النائمة للمشاركة بالانتفاضة للسيطرة عليها وتوجيهها[١].

إن فهم سيكولوجية الحكيم تمكن الإنسان من القول: بقدر ما حاول استثمار الانتفاضة دعائيًا لدعم مركزه عند الدول المحيطة والمجاورة للعراق متظاهرًا بالقدرة على تحريك الجماهير الواسعة، كانت أمنياته تتجه نحو الرغبة في إفشال الانتفاضة التي يمكن أن تُحسب انتصاراتها لصالح حزب الدعوة.

إن القسوة التي استعملتها قوات النظام ضد المنتفضين تقتيلاً، مع زج الآلاف في السجون والمعتقلات، ومعاملتهم بقسوة، مع إعلام غبي ظل يشكك بأصول الشيعة ويجردهم من هويتهم العربية بروايات مفبركة، وشعارات "لا شيعة بعد اليوم" المكتوبة على دبابات حسين كامل، أثارت مشاعر الأسى والخيبة عند الشيعة تجاه إخوانهم السُنَّة الذين تخلوا عن مؤازرتهم، وتركوهم عرضة للقمع الوحشي للنظام، إن تأجج المشاعر الطائفية عند الشيعة حتى ذلك الوقت كانت موجهة ضد النظام فقط، وليست ضد إخوانهم السنة.

١- نفس المصدر، ص: ٤٣٦ – ٤٤١.

إن تراكمات تلك الأحداث، وما تعرض له الشيعة من إرهاب وقمع جمعي بعد حرب الكويت هي ما هيأ العقل الشيعي لقبول التحريض الطائفي والميول الطائفية التعصبية عند الشيعة التي بدأت جماعة الحكيم وأمثالها من الجماعات التابعة لإيران، تحفزها.

أعيد تكرار وتلخيص تطورات الطائفية عند الشيعة للتأكيد، إن الصورة الطائفية حتى يوم الاحتلال عند تجمعات الشيعة تمحورت في توجهاتها على الشكل التالي:

جماعة الصدر: اتجهت توجهاتهم الطائفية نحو ما يلي:

التحدي والرفض، بل والكره لنظام طائفي مارس كل أشكال العنف والقمع ضد الشيعة، تطور هذا الاتجاه ليتخذ شكل الميل العدائي للبعث بعد اغتيال السيد محمد صادق الصدر، بقي إلى حد نسف مرقدي الإمامين العسكريين محدد في اتجاهه نحو النظام والبعث فقط، وليس ضد سنة العراق بالمطلق.

كان هذا التيار وما زال يمثل توجهًا يتمركز حول الاعتزاز بهوية التشيع العربية، وعودة المذهب لأصوله العربية، مع نفور من التأثيرات الإيرنية أو محاولات المؤسسة الشيعية الإيرانية للهيمنة على المذهب.

حزب الدعوة:

يمثل اتجاه كُره وعدوانية ضد البعث، دون أن يعمِّم توجهاته لسائر السُنَّة في العراق أو الوطن العربي، بالعكس ظل الحزب إلى ما بعد الاحتلال يُظهر اعتزازه بأطروحات سيد قطب ويتطلع لوحدة إسلامية تنتفي فيها الحساسيات الطائفية، إلا أن هذا لا ينفي وجود تيار داخل الحزب يشعر بالنفور من السُنَّة عمومًا.

موقفه من إيران يتذبذب بين النفور والقبول تبعًا للموقف الإيراني منه، مع اعتزاز لا يُخفى بأصوله العربية دون حساسيات قومية تجاه القوميات الأخرى، يحترم الخميني كاحترامه لبقية المجتهدين أو المراجع دون القبول بأطروحاته الفقهية بما يعرف بولاية الفقيه، تعاون مع إيران كأي حزب يبحث عن قواعد تسمح له للانطلاق بالعمل والتجمع، تقلصت علاقاته مع إيران بشكل ملحوظ بعد أن بدأت جماعة الحكيم تتحرك بنشاط ظاهر ضده، وبعد أن وجد له القواعد البديلة في سوريا وبريطانيا.

جماعة الحكيم:

تميزت بولائها المطلق لإيران، والتمسك بما يسمونه بالولاء للولي الفقيه، الخميني ومن بعده خامئني، بميول لا تخلو من الانتهازية في استثمار هذا الولاء في خدمة الطموحات الخاصة لأبناء الحكيم في السيطرة الكلية على شيعة العراق بما يحقق نزعاتهم المرضية للسيطرة والتعالي على البشر، هم أكثر تيارات الشيعة المعروفة بتوجهات الكره والعداء لعموم السُنَّة دون أن يظهروها علنًا أو يصرحوا بها، لكنها تكشف عن طبيعتها من خلال شعارهم المركزي "مظلومية الشيعة"، واندفاعهم في تشجيع الشعائر الغريبة وغيرها من البدع التي تسفه المذهب... يحملون نفس مشاعر الكُره الشعوبي لكل ما هو عربي، شيعي وسني، ويتداولون فيما بينهم مصطلح (معيدي) لتوصيف العربي حتى لو كان من أتباعهم.

كنموذج لألاعيبهم بالألفاظ والمصطلحات، موقف باقر الحكيم من المؤتمر الوطني الذي طرحه أحمد الجلبي، أيدوا المؤتمر بالبدائية بأمل الإقرار برئاسة باقر الحكيم له، إلا أن إصرار الأطراف الأخرى على تكون القيادة ثلاثية، قال باقر الحكيم إن قيادة من هذا النوع تكرس الانقسام الطائفي، ثم أضاف اعتراضًا آخر هو أن الشيعة في العراق يمثلون نسبة أكثر من ٦٥%، ما يغدو

غبنًا لهم وتكريسًا لمظلوميتهم أن تكون حصة تمثيلهم بالثلث كما بقية مكونات الشعب العراقي، لذلك لم يحضر المؤتمر لكنه أرسل مندوبين عنه للمشاركة[1].

دعى باقر الحكيم منذ الأيام الأولى إلى تطبيق الفدرالية وتقسيم العراق؛ يقول باقر الحكيم تبريرًا لذلك: "أصل فكرة الفيدرالية لا تعني التجزئة، بل قد تكون حلاً لبعض مشكلات هذا البلد أو ذاك".. وهو الوحيد من بين أطراف المعارضة الذي أيد مشروع الملك حسين لبناء عراق بثلاثة تجمعات فدرالية[2].

الموقف الآخر من نماذج هذه الانتهازية واللعب على عقول البشر، كان موقف عبد العزيز الحكيم من التوقيع على الدستور الذي أحضره بريمر جاهزًا من أمريكا، حضر حفل التوقيع، لكنه رفض التوقيع شخصيًا عليه، بحجة أنه دستور غير شرعي لا يمت للشريعة الإسلامية بصلة، رشح عادل عبد المهدي ليوقع نيابة عنه كممثل لحزب المجلس الأعلى!

السؤال: ما الفرق؟، وهل كان المجلس يعني شيء غير تجمع لأنصار آل الحكيم وهل يستطيع عادل أن يتخذ هذه الخطوة بمحض إرادته؟، ثم هو لم يوقع بصفته الشخصية بل كنائب أو ممثل للمجلس، لم يتردد عبد العزيز فيما بعد في تصريحاته عن القول إن الدستور مرجعيتنا، وليس الشريعة، كرر ذلك عدة مرات في عدة مقابلات لتبرير وشرعنة دعوته لفصل المحافظات الشيعية الجنوبية بفدرالية بسلطات تتمتع بالاستقلال على نمط المنطقة الكردية، واضح جدًا أن الغاية من هذه الدعوة هي خطوة نحو تفكيك العراق، متممة لما كان يطرحه باقر الحكيم حتى في مرحلة ما قبل الاحتلال.

---

١ – نفس المصدر، ص: ٣٤٠-٣٤١.

٢ – نفس المصدر، ص: ٣٢٧.

منظمة العمل الإسلامي:

اختفت من الساحة كتجمع أو تيار سياسي، إلا أنها بقيت تمارس نشاطاتها في الخارج كجماعة مقلدي الشيرازي، ما زالت أينما تواجدت مجموعاتها تمارس نشاطاتها المكثفة في إحياء الشعائر الحسينية.

تلك كانت صورة التوجهات الطائفية في ساحة العمل السياسي عند الاحتلال، وبقيت تقريبًا بنفس الحال إلى يوم تفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء، الحدث الذي لا أُبرأ وزير الداخلية في حينها باقر صولاغ، عضو قيادة الحكيم من دور في هذا التفجير، صغير أو كبير؟!.

المقاومة العراقية والطائفية:

معركة جسر الناصرية:

من الناصرية، المدينة التي عانت كثيرًا من قمع صدام وأجهزته، انطلقت الشرارة الأولى للمقاومة، حتى قبل أن تصل القوات الأمريكية إلى بغداد، في فجر ٢٣ آذار ٢٠٠٣، أرسل الأمريكان وحدة من قوات المارينز لتأمين وحماية مرور القوات المتقدمة نحو بغداد على الجسرين الذين تمت إقامتهما في المدينة، بتوقع أن يستقبلهم أهالي المدينة بالورود والترحيب، لأن الغالبية المطلقة من أهل المدينة هم من الشيعة، ومن ضحايا ممارسات صدام القمعية، إلا أن قوات المارينز تعرضت لهجوم قوي من قبل عشرات من أهل المدينة، تصف صحيفة نيويورك تايمز المفاجأة التي اصطدمت بها القوات المتقدمة "فوجئوا عندما وجدوا أن القليل منهم فقط كان يرتدي بدلات عسكرية، ذلك أن أغلبهم كان مرتديًا اللباس الأسود الذي يلبسه الشيعة، والحال أنه كان يُفترض أن يكون الشيعة إلى جانب الأمريكان" (عدد ٢٠ /١١ /٢٠٠٦).

قتل في هذه المواجهات ١٨ من جنود المارينز، وتقول صحيفة نيويورك تايمز: "في ما تبين لاحقًا أنه أكثر مرحلة دموية من مراحل الغزو"، تأخر بسببها الجيش الأمريكي من التقدم لعدة أيام واضطرت دبابات المارينز أن تسلك طريقًا تفضي لمستنقعات أدت إلى غرق الآليات العسكرية وأخرت تقدمها، ما لم تذكره الصحيفة هو العملية الفدائية الاستشهادية التي قامت بها إحدى بنات المدينة التي واجهت بسيارتها المفخخة الدبابات الأمريكية لعرقلة تقدمها، بنفس الوقت الذي كان فيه الصبي بياع الثلج عزة الدوري ينعم بمكرمة مسعود بحمايته مقابل مئات الدبابات والمدفعية الثقيلة العراقية التي سلمها للأكراد.

ما قد يتفاجأ به الكثير أن جوهر القوة العراقية المهاجمة في عملية جسر الناصرية، كانت من أعضاء حزب الدعوة، الهاربين من قمع النظام بالأهوار، تسندهم عناصر مدنية من القوميين من خط المرحوم فؤاد الركابي، وأخرى مستقلة من المدنيين الذين يريدون الدفاع عن ديارهم ضد غازي أجنبي.

كان حزب الدعوة ولحين وقوع الاحتلال ووصول القوات الأمريكية إلى بغداد منقسمًا بين تيارين أو وجهتي نظر، فرع سوريا الذين كان يرى أن واجب الحزب أن يُنظم أو ينضم إلى مقاومة الاحتلال، وفرع بريطانيا الذي يرى ضرورة التعاون مع المحتل كي لا يجري للشيعة من مقاطعتهم ما جرى في بدايات الاحتلال البريطاني، لم يكن الأمريكان غافلين عن هذا الاتجاه، ليجبروا الخط السوري أو خط المالكي على التعاون، أحضروا عميلهم التاريخي باقر الحكيم بتلك الطريقة الاستعراضية لمواجهة الخط الرافض للتعاون من حزب الدعوة وجماعة الصدريين، ليقولوا لهم جميعًا، ها هو البديل الممثل للشيعة موجود، نجحت اللعبة الأمريكية، وافق المالكي على التعاون مفضلاً أن يبقى بعيدًا عن اللعبة، ولم يُذكر له اسم طيلة الثلاث سنوات الأولى من الاحتلال، إلى أن بدأ جماعة الحكيم يتآمرون على الجعفري لإسقاطه وإحلال من يمثلهم محله فاندفع المالكي باللعبة.

عندما بدأت التحضيرات لاحتلال العراق قمتها، أصدر حزب الدعوة في حينها أمر لأنصاره ومنتسبيه في أوروبا بضرورة العودة للعراق لتنظيم مقاومة ضد الاحتلال، أما جماعة الحكيم فأصدرت نفس الأمر لتابعيها أي العودة للعراق، لأن الإمام المهدي المنتظر سيخرج وعليهم القتال تحت رايته.

إن عملية جسر الناصرية تؤكد أصالة وتمسك أبناء المدينة باستقلال وطنهم ورفضهم لأي احتلال أجنبي، فهي امتداد لعملية الشجرة المباركة الخبيثة التي أعاقت تقدم القوات البريطانية عند الشروع باحتلال العراق في عام ١٩١٤، (اقرأ قصتها كاملة في الفصل الثالث من هذا الكتاب).

لو عدنا لتفاصيل مجريات الحرب، لوجدنا أن نفس التاريخ الذي يقاتل فيه أهل الناصرية الذين يريد عزة أن يجردهم من عروبتهم ويتهمهم بالخيانة والعمالة لإيران ملصقًا بهم صفة الصفوية، بالضبط نفس اليوم كان عزة يسلم دون أن تطلق قواته ولا إطلاقة واحدة، المعسكرات التي بعهدته لعصابات مسعود البرزاني بما فيها من أسلحة ثقيلة، مقابل الحفاظ على سلامته وتأمين حمايته، ثم يهرب للسعودية ليظهر بعد انسحاب الأمريكان بكل وقاحة ليدعي أنه قائد المقاومة، وقد كان ينعم طيلة الفترة حتى نهاية عام ٢٠١١، بالحماية والرعاية السعودية له ولعائلته، يظل السؤال الضاغط، هل يمكن أن يتحدى مسعود البرزاني والسعوديين الأمريكان من أجل عيون عزة العسلية؟! أن يشهد لك العدو ولو بعد سنوات عن محنته التي صادفها، خير من ألف عملية من عمليات مقاومة عزة الوهمية على الإنترنت.

تشكل المقاومة وبداياتها:

انبثقت المقاومة العراقية كموقف وطني حيال احتلال أجنبي لا دخل له بانتماءات المبادرين، أو بتوجهاتهم نحو النظام ضد أو مع، دون أي حساسيات طائفية، نوياتها الأولى كانت قد تشكلت حسب المناطق بشكل عفوي، أينما وجد

مجموعة من الشباب في المنطقة الواحدة، يملكون السلاح ليتصدوا لهذه الدورية الأمريكية أو تلك الدبابة التي تمر قرب منطقتهم، لذلك ظهرت في الأسابيع الأولى ما بعد الاحتلال أسماء عديدة لتنظيمات سرعان ما تختفي، إن هذه النويات بدأت تتكتل وتتعاون، فتشكلت بأربع فصائل رئيسية[1]:

١: **جيش محمد:** غالبيته من الضباط والعسكريين من بقايا الجيش الوطني، وغالبيتهم أيضًا ممن كان ينتمي لحزب البعث، لم يطل العهد بهذه المجموعة بعد أن شاهدت قياداتها تستسلم بإذعان وذل لقوات الاحتلال، ثم انتشار خبر هروب عزة الدوري إلى السعودية، ما يعني وجود تآمر من داخل قيادة صدام على العراق والحزب وصدام نفسه، فليس من المعقول أن تتولى السعودية نقل عزة الدوري إلى أراضيها وتوفر له الحماية الكاملة، ما لم يكن هناك اتفاق مسبق بين عزة والمخابرات السعودية منذ زمن يتجاوز كثيرًا بالسبق لزمن الاحتلال، لا شك أنه كان من العوامل الكبرى التي أحبطت معنويات أعضاء التنظيم.

٢: **فدائي صدام:** كما هو واضح من الاسم غالبيتهم من الشباب البعثيين، يقودهم أو يقف بالدعم ورائهم عدي وأخوه، لذلك اختفت أخبار هذه الفصيلة بعد مقتل الأخوين عدي وقصي، واختفى اسمها من قائمة العمليات المواجهة قوات الاحتلال بعد اعتقال صدام حسين.

١- حول بدايات تَشكل المقاومة العراقية راجع:

- **عادل الجوجري، أسرار وخفايا المقاومة العراقية، القاهرة: دار الكتاب العربي ٢٠٠٥.**
- **د. عبد الكريم العلوجي، ٥ سنوات احتلال: أين العراق اليوم، دمشق، ٢٠٠٨.**
- **حسن خليل غريب، المقاومة الوطنية العراقية، بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٤.**
- **د. موسى الحسيني، المقاومة العراقية والإرهاب الأمريكي المضاد، بيروت: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٧.**

٣: كتائب ثورة العشرين: تنظيم يجمع مختلف الوطنيين العراقيين، غالبيتهم من أبناء الطائفة السُنّية، ساهم بتشكيل هذه الجبهة بفعالية ونشاط هيئة علماء المسلمين بقيادة الشيخ حارث الضاري، كانت عملياتها تتميز بالدقة والفاعلية أكثر من أي من بقية الفصائل المقاومة، كانت مع الجبهة الوطنية لتحرير العراق تمثل تعبيرًا عن مقاومة شعب لا دخل له بالبعث.

٤: الجبهة الوطنية لتحرير العراق: تجمع وطني أسسه مجموعة من القوميين الناصريين (تيار الشهيد فؤاد الركابي)، مع مجموعات من البعثيين انضموا للجبهة بصفاتهم الشخصية وشخصيات مستقلة، انضمت للجبهة فيما بعد فصيلة من الشباب القومي الأحوازي من عناصر الجبهة العربية لتحرير الأحواز، أصدرت الجبهة جريدة باسم "صوت الحق"، صدر منها سبعة أعداد على فترات مختلفة بين كل أسبوعين وشهر أحيانًا، كانت الجبهة تجمع يضم عناصر شيعية وسنية عملوا بشكل مشترك دون أي اعتبار لانتماءاتهم الطائفية، يجمعهم حب الوطن والرغبة في الخلاص من الاحتلال، اعتمدت الجبهة في تمويل عملياتها على مساهمات وتبرعات أعضائها دون مساعدة من أي طرف آخر باستثناء هيئة علماء المسلمين التي تكفلت بدعم عوائل من يستشهد منهم.

لم يطل العهد بنشاطات كل من جيش محمد وفدائي صدام، واختفت كليًا نشاطاتهم من الساحة بعد إلقاء القبض على صدام حسين، وهروب عزة الدوري للاختباء في السعودية، ثم مقتل عدي وقصي.. يمكن تفسير هذا الغياب بسبب خيبة مناضلي الفصيل بما شاهدوه من هروب قياداتهم وتخاذلهم، ما جعلهم مكشوفين وعرضة لضغوطات العيش والتسليح، انضم غالبية ضباط جيش محمد إلى كتائب ثورة العشرين وقلة منهم التحق بصفوف الجبهة الوطنية لتحرير العراق، وتلاشت نشاطات فدائي صدام دون أن يعرف مصير أعضاء التنظيم.

هرب عزة الدوري من ساحة المعركة دون أن يسمع أحد صوت ولو إطلاقة واحدة من قطعات الشمال التي بعهدة عزة تجاه القوات الأمريكية التي تقدمت من الشمال، ملتجئ في البدء لمنطقة نفوذ مسعود البرزاني، مقابل تسليمه الأسلحة والمعدات في المعسكرات والقواعد العسكرية العراقية التي كانت تابعة له، ثم انتقل إلى السعودية للاختباء هناك رغم أن جماعته كانت تروج لفكرة أنه موجود في اليمن، إلا أن المعلومات المؤكدة من عائلته أنه كان يعيش وعائلته في السعودية، كان هذا مؤشر خطير يترجم أو يفسر الكثير من تصرفات عزة بعد ظهوره من غيبته هذه عقب انسحاب القوات الأمريكية من العراق، فلا مسعود ولا السعودية يمكن أن يجازف بمثل هذه الخطوة دون موافقة أمريكية مسبقة لحماية واحد من المطلوبين لها.

شكلت الجبهة الوطنية لتحرير العراق صورة فريدة للتآخي الطائفي البعيد جدًا عن أي مؤثرات طائفية، تجلى ذلك بوضوح من خلال التعاون والتنسيق بين قيادة الجبهة وهيئة علماء المسلمين ومعها كتائب ثورة العشرين التي كانت تضم أيضًا عناصر شيعية ولو بشكل محدود، في أواخر ٢٠٠٥ بدأت تظهر على الساحة بدعم مالي قطري – سعودي، تجمعات لا تخفي توجهاتها الطائفية، هي في الغالب تجمعات صغيرة منشقة من كتائب ثورة العشرين أو بقايا جيش محمد، كما ساعدت الأموال الخليجية على كسب مجموعات من الضباط الجيش الوطني العراقي المنحل لتتشكل عدة فصائل أخرى، كانت أسماء لتنظيمات تقود معارك على الإنترنت في الغالب.

اتخذت سلطة الاحتلال والجماعات الموالية لها، من علاقة كتائب العشرين بهيئة علماء المسلمين أرضية لاتهام المقاومة بأنها ليست إلا جماعات من السُنَّة تقاتل لأنها فقدت امتيازها بالحكم، أو جماعات ضباط فقدوا وظائفهم، إلا أنه وطيلة الفترة التي نشطت بها الكتائب منذ الأيام الأولى لتأسيسها وحتى توقف

نشاطاتها، لم يبدُ على سلوكيات قياداتها ولا عملياتهم ما يشير إلى أي توجه طائفي، بالمقابل وبسبب ارتباطها بالهيئة اتُهم الشيخ حارث بالإرهاب.

فاجأت المقاومة العراقية قوات الاحتلال والعالم بسرعة انطلاقها، كمقاومة مُدن، فعادة ما تبدأ المقاومات في الأطراف وتدريجيًا مع مرور الوقت وما تحققه من انتصارات تتوسع لتشمل المدن، الأمر الذي لم يكن موضوعًا بالحسابات الأمريكية، بعد ما كانت تتوقعه من استقبال شعب العراق لقواتهم بالورود والأحضان.

تبقى عمليات هذه التنظيمات محدودة بمعدل ٣٠-٥٠ عملية، تتصاعد إلى ١٨٠ عملية باليوم الواحد، دون أن تتحول إلى حرب تحرير شعبية، تلك التي برزت بوادرها مع ما عُرف بانتفاضة الصدريين التي بدأت في نهاية شهر آذار ٢٠٠٤ في مدينة الصدر ببغداد بعد إغلاق جريدة الحوزة الناطقة (اسم التيار)، ثم في مدينة الصدر والنجف بعد إصدار بريمر أمر بإلقاء القبض على مقتدى الصدر، تزامنت هذه الانتفاضة مع الهجوم الأمريكي على الفلوجة في أوائل نيسان/ إبريل ٢٠٠٤ على أثر كمين نصبه بعض الشباب من أهالي الفلوجة برأس الجسر المُوصِل إلى بغداد، قتلوا ٤ من منتسبي شركة بلاك ووتر، و٥ من الجنود الأمريكيين.

كان حجم المعارك وأعداد المشاركين بها يبشر بانتشار المقاومة إلى بقية المدن وتحولها لحرب تحرير شعبية.. تحقق مستوى عالي من التعاون بين المدينتين النجف والفلوجة، حيث أرسل ثوار الفلوجة مجموعة من ضباط الجيش العراقي الوطني المنحل إلى النجف لتدريب مقاتلي الصدر على استخدام الأسلحة وقواعد الاشتباك بالمدن وحرب الشوارع، الأمر الذي أرعب إدارة بوش والحاكم المدني بريمر وقواته، التي صادفت في كلا المدينتين مقاومة شرسة، أجبرتهما على إيقاف العمليات العسكرية ضد الفلوجة دون الاستطاعة من إلقاء القبض على منفذي كمين الجسر، إن غالبية هؤلاء الضباط الذين تطوعوا

للالتحاق بجماعات الصدر من منتسبي كتائب ثورة العشرين، الأمر الذي صعد من غضب الأمريكان ومجموعات الطائفيين الشيعة من الشيخ حارث الضاري لتتصاعد أيضًا اتهاماتهم له بالإرهاب.

في النجف، أثارت عمليات السيد مقتدى مخاوف السستاني الذي بدأت المعارك تقترب من منزله، فهرب إلى لندن بحجة العلاج، إلا أنه وفي عز المعارك، بدأ يطالب مقتدى من لندن بتسليمه مفاتيح الحضرة العلوية، ليحول المعركة عن أهدافها الحقيقية من معركة ضد الاحتلال تطالب بإنهاء سلطة الحاكم المدني وتسليم الحكم لممثلي الشعب العراقي، إلى معركة من يمتلك الحق في ملكية مفاتيح الحضرة العلوية، مُسفهًا بذلك المقاومة، بلعبة لا شك تمت بالتنسيق مع بريمر، الذي اعتبر أن موافقة مقتدى على تسليم المفاتيح خطوة نحو إيقاف العمليات العسكرية في النجف وانسحاب قوات الاحتلال دون أن تنفذ الغرض الرئيسي الذي جاءت من أجله، وهو اعتقال السيد مقتدى.

هناك ظاهرة مهمة ذات دلالة طائفية مخططة ومقصودة، وهي إصابة بعض إطلاقات القوات الأمريكية قبة الإمام واحد منائر الحضرة إصابات ظاهرة، كما أدى القصف بالدبابات إلى تهديم السور الجنوبي للحضرة، إلا أن عمليات ترميم سريعة تمَّ إجرائها دون ذكر لهذا الحدث، الذي عرضته شاشات التلفزيون خلال تغطيتها لمعارك النجف، الحدث الذي لو قارناه بما جرى من ضجة واسعة لحدث مماثل، عندما أصابت بعض إطلاقات قوات حسين كامل إحدى منائر مرقد العباس، تمَّ تصويرها بالفيديو ونشرت حولها أفلام وقصص، وكَتب الشعراء القصائد والمقالات التي لم تنقطع لسنوات طويلة حتى حصول الاحتلال... المفروض أن العباس ليس إمام بل ولي، يكتسب كل قدسيته من كونه أحد أولاد الإمام علي من زوجته أم البنين، إضافة لأدواره الشجاعة في معركة كربلاء، وعلي هو الإمام، أبو الأئمة، منه يكتسب الأئمة من أولاده وأحفاده قدسيتهم، أي أن العدوان على قبره يفترض أن يكون أشد إيلامًا من

الاعتداء على قبر ابنه العباس، إلا أن زعماء الطائفية يتصرفون على طريقة المثل العراقي (يريدونها كبار تصير كبار – يريدونها صغار تصير صغار) وفقًا لأهوائهم ومصالحهم.

حصار المقاومة بالطائفية:

للأسف تمكن بريمر بالتعاون مع السستاني وبقية زعماء الطائفية من تحويل مقتدى وتياره إلى معارضة سلمية وديعة، تقاوم بالكلام والشعارات الفارغة، بعد أن زرع الرعب في قلب وعقل إدارة بوش، التي اعتمدت استراتيجية جديدة في عزل المقاومة العراقية عن بقية الشعب العراقي، وحصرها في المدن ذات الأغلبية السُنّية، من خلال إضفاء تهمة الطائفية عليها، فبعد أن كانت وسائل الإعلام تروج لتوصيف المقاومة على أنها مقاومة بعثيين، أو ضباط ومجموعات ممن خسروا امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في عهد النظام السابق؛ ابتدعوا مقولات ومفاهيم جديدة مثل المثلث السُّني والمقاومة السُنّية، وقاموا بتصنيع عمليات ذبح جماعي وتفجيرات في مدن الشيعة ونسبتها لأبو مصعب الزرقاوي.

في تفجير تمَّ في عاشوراء بأحد شوارع كربلاء عام ٢٠٠٥، كان مراسل محطة الجزيرة ينقل مشاهد عن عملية نقل جثث الضحايا من مكان الحادث، ويسأل المتواجدين عن التفاصيل، الذين أجمعوا في وصفهم بأن الحادث كان نتيجة صاروخ جاء من بساتين كربلاء الشمالية وليس مفخخة، ثم ظهر فجأة موفق الربيعي والشريط التلفزيوني وراءه ما زال يصور، بنقل حي عملية إخلاء جثث الضحايا، قال الربيعي مستنكرًا: "هذا العمل الخسيس من تنفيذ أبو مصعب الزرقاوي"، تغيرت لهجة المذيع بعد هذا التصريح لتكرر الجزيرة أن الحادث كان نتيجة مفخخات زرعها الزرقاوي[١].

١– د. موسى الحسيني، مصدر سابق، ص:٨٦.

من جهتها بدأت جماعة عزيز الحكيم ترسل دوريات طيارة على طريق بغداد كربلاء، مقابل أو قريب من المدن الصغيرة المعروفة بسكانها من أبناء الطائفة السُنّية، بما يوحي وكأن هذه الدوريات جاءت من هذه المدن، يحمل أفرادها صورة الإمام، لتقطع الطريق على السيارات الذاهبة لكربلاء وتطلب من الركاب البصق على الصورة، وقتل من يمتنع عن البصاق، ليخرج عزيز الحكيم نفسه في اليوم التالي مستنكرًا هذه العمليات الطائفية التي نسبها للمقاومة السُنّية، لم تتوقف هذه العمليات إلا بعد أن كتبتُ عنها مقالاً نشرته مجموعة من المواقع، كما نشرته مجلة المستقبل العربي اللبنانية العدد ٣١١ لشهر كانون ثاني ٢٠٠٥، تحت عنوان "تبت أياديهم إنهم يقتلون الشيعة على الهوية"، فاضحًا فيه من يقف ورائها، كما كشفت فيه من هو المستفيد الحقيقي من هكذا عمليات، تظل المقاومة بكل أطرافها براء منها، فانقطعت أو توقفت هذه الدوريات (المقال منشور ضمن فصول الجزء الثاني من هذا الكتاب).

في أواخر عام ٢٠٠٥، دخلت الأموال السعودية والقطرية على المقاومة، فبدأت تظهر فصائل جديدة بأسماء طائفية تقاوم على الإنترنت، استمرت حتى الآن تقاتل أشباح من العملاء، تعلن عن عمليات قتل شرطي حكومي صفوي، كما تسميه هنا، وتدمير سيارة للصفويين (حكومية) هناك، لم نسمع بالمقابل عن إعلان أو ردات فعل أو استنكار من الطرف الآخر، ما يؤكد صحة هذه العمليات الشبحية.

في حين ينعم قادة الطائفية بما ينهبونه من أموال الشيعة في قصورهم ببغداد، ويتمتعون بكل النعم التي أنعم عليهم بها الاحتلال دون خوف، أو حتى سماع أي خبر عن تعرض أحدهم لأي عمل مسلح فاشل أو ناجح، استثناء مقتل الدكتور علي العضاض، عضو قيادة المجلس الأعلى (مجلس آل الحكيم)، في شهر تشرين ثاني / نوفمبر ٢٠٠٦. ولدي معلومات خاصة ودقيقة عن كون العملية كانت من تخطيط وتنفيذ عزيز الحكيم نفسه لخلافات بينهما تصاعدت

على أثر اختطاف شخص يهم الأمريكان وحلفاؤهم من قبل جماعة عزيز، قام الدكتور العضاض بتسريب الخبر، والمطالبة بتحرير المخطوف، سأكشف تفاصيلها بالوقت المناسب.

نعود للسؤال الغريب عن مقاومة عزة الدوري وضجيجها الإعلامي المتواصل عن نفسها، والدعايات التي لم تتوقف يومًا عن وجودها دون أن نسمع عن عملية مقاومة واحدة تستطيع القول إنها نفذتها ضد الاحتلال، ثم أين كانت هذه المقاومة التي لم نسمع لا منها ولا من غيرها عن عملية أو محاولة ولو واحدة لإنقاذ رئيسها صدام حسين، الذي ظل يُقاد من قبل الاحتلال قرابة عامين بين السجن والمحكمة؟.

بعد انسحاب القوات الأمريكية في نهاية عام ٢٠١١، عاد عزة الدوري من غيبته الكبرى، ليعلن نفسه قائدًا عام للمقاومة العراقية الوهمية، التي لم يجد بينها فصيلاً واحدًا يمكن أن ينتمي لحزب البعث، فتبنى تنظيم الطريقة النقشبندية، وهي مجموعة من المجموعات الصوفية التي يفترض أنها بعيدة عن أن تكون جزء من حزب علماني، أسسه مفكر عربي مسيحي! كل شيء جائز في عصر العولمة والإسلام الأمريكي.

إن متابعة خطابات عزة المتكلم باسم المقاومة وتحليلها، توحي وكأنه جاء ليكمل مشروع بريمر في عزل المقاومة عن إطارها العراقي العام، ويكمل المشوار الذي بدأه في عام ١٩٧٧، بإثارته للحساسيات الطائفية، فهو لا يتطرق ولا يذكر شيء عن الاحتلال الأميريكي الذي ما زال قائمًا فعليًا من خلال سفارته التي يقال إنها تستوعب أكثر من ٥ آلاف شخص، ليخلط خلطًا عجيبًا بين مفهومي الاحتلال والنفوذ، فيطالب الأمريكان على إعانته للتخلص من الاحتلال الإيراني الصفوي.

إن استخدام صفة الصفوي هنا تدل أنه يريد تحويل الصراع العربي – الفارسي الذي يتمحور حول احتلال إيران للأراضي العربية في الأحواز، جزيرتي

عربيي وقرزان السعوديتين ، الجُزر العربية الثلاث ، إلى صراع طائفي لا قومي ، بين أمتين متجاورتين ، إن المقصود باستخدام صفة الصفوي تعني بالضبط إيران الشيعية مقابل السُنَّة العرب، عندما يكون جوهر الصراع طائفيًا بهذا الشكل الذي يسعى له عزة وحزبه، لا يدري الإنسان أين يضع عزة رائد القومية العربية وبطل الوحدة العربية ما يقارب من حوالي ٤٠ مليون شيعي عربي ، يلقيهم في البحر أو يرحلهم لإيران ، أو يقتطع جنوب العراق مع المنطقة الشرقية السعودية، ليعزلها بدولة شيعتستان، ويفصل شمال سوريا في دولة وجنوب لبنان في إمارات شيعية ، ويقسم اليمن إلى إمارة شيعتستان الجنوبية وأخرى سنية، تمامًا كما طرح شارون وإيتان في مخططهم فيما عُرف بـــ"استراتيجية إسرائيل لثمانينات وتسعينات القرن العشرين".

الشعار طائفي بحت، لا يتردد الطائفيين الشيعة من التذكير باستخدامه من قبل الطائفيين السنة ، لتخويف شيعة العراق من هؤلاء الذين يهددونهم ويشككون بهويتهم العربية، وينزعون عنهم أصالتهم العربية بنسبتهم إلى إيران.

كما لم تكن دماء ١٧٠٠ من الجنود الشيعة الأبرياء الذين تخلوا عن أسلحتهم وانسحبوا من الموصل بعد دخول داعش، ليتم ذبحهم جميعًا في مجزرة معسكر سبايكر، تستحق لأن يقدم قائد المقاومة العراقية تعازيه لأهاليهم مثلاً، أو إعلان أي استنكار للعملية التي بكل المفاهيم كانت مجزرة طائفية، وهو من يقدمه أو أعوانه على أنه رئيس جمهورية العراق ، يبدو أن رئيس العراق بالحلم لا يعرف أن أكثر من نصف الشعب العراقي هم من الشيعة، والطائفية انطلقت من عقالها ما عاد يخيفها ولا يصدها إرهاب ، بالعكس نراه يقدم تحياته بدون مناسبة للدولة الإسلامية في بلاد الشام والعراق (داعش)، التحية التي تُفهم على أنها مباركة تهنئة لداعش على تنفيذ تلك العملية المجزرة.

نهج شعوبي واحد مستمر يعكس نزعات شعوبية تعصبية ضد العرب والعروبة من خلال نزع الهوية العربية عن ما يقارب نصف الشعب العراقي، بدأ للظهور علناً عند عزة في ١٩٧٧ وما زال مستمرًا حتى الآن.

إن تفسير هذا النزوع يخضع لعدة احتمالات:

الأول: إن الرجل بسماته وطلعته الخارجية يؤشر إلى حقيقة كونه من سقط المتاع من بقايا الغزاة الذين مروا بالعراق، وإن حاول أن يدّعى الانتساب والموالاة لبعض عشائر الدور العربية، ما هو ثابت تاريخيًا أن بعض الموالي كانوا من الرواد الأوائل للشعوبية، وتوجهات الكره للعرب، وقديمًا قالت العرب "إن العرق دساس".. لعل هذا الاحتمال هو الأقوى لتفسير حقد عزة الدوري على العرب في العراق وسوريا واليمن بحجة التمسك بمواجهة إيران.

الثاني: أن الرجل معد مسبقًا كما هي حالة غورباشوف، ليلعب هذا الدور، فلعبة تقسيم العراق لا تتحقق بدون هذا الثلاثي؛ عزة ومسعود البرزاني والسستاني وآل الحكيم. كله نضال من أجل الوحدة العربية، تقسيم العراق وسوريا واليمن؟!.

الثالث: رجل متخلف، كل تجربته بالحياة تتلخص بصانع أو صبي في محل لبيع الثلج، قضى أكثر من ١٥ سنة محبوسًا بذلك المحل الصغير لا يفارقه، خوفًا من أن يقع بيد الانضباط العسكري (الشرطة العسكرية)، أتذكره إلى حد صيف ١٩٦٤- ١٩٦٥، عندما كنت أعود للفندق الذي أعيش به لأراه جالسًا على ذلك الصندوق الخشبي الفارغ، سكران يردد قول الشاعر:

إذا سكرت فأنا رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فأنا رب الثلج والمنشاري

عندما أعود برقة صديقي محمد أمين محسن عتوك الذي يسكن بنفس الفندق ، ومحمد أمين يميل للمزح والسخرية منه، يسلم عليه:
- شلونك عمي عزوز، يبين مصعدها اليوم..

يجيب:
- أي والله عمو، اقرو زين لا تصيرون مثل عمكم عزوز.

ويعيد قراءة بيت الشعر ، يظل معلقًا على كرسيه بانتظار أن تفرغ القهوة المحاذية للمحل من زبائنها ليقوم للنوم على إحدى مقاعدها الطويلة.

من أين لعزوز أبو الثلج أن يفهم أبعاد السياسة الدولية والفرق بين الاحتلال والنفوذ، والصراع العربي – الفارسي، والصراع السُّني – الصفوي، الفرس أمة أو قومية محاددة أو مجاورة للأمة العربية، تشكلت بحكم التجاور هذا مجموعة من المشكلات والخلافات التاريخية، الصفوية مدرسة من مدارس الاجتهادات الشيعية، قد تكون مخطئة في غلوها بحب آل البيت، لكن خطئها هذا لا ينفي عنها إسلاميتها، بما يعنيه الإسلام من الإقرار بالشهادتين، وهم في اجتهاداتهم هذه مأجورين بحسنة واحدة إن أخطأوا.

كما يرى أو يجتهد في ذلك ابن تيمية الذي يرى بخروج معاوية على الخلافة الراشدية اجتهادًا خاطئ، وكذلك خدعة عمر بن العاص للصحابي أبو موسى الأشعري، على أنه اجتهاد خطأ أيضًا يؤجر عليه عمر بن العاص بحسنة واحدة فقط، ما يصح على معاوية وعمر بن العاص يصح على بقية المسلمين، والفرس أو الإيرانيين لا يخجلهم أنهم صفويون، كما لا يخجل عزة من أن يلبس البدلة العسكرية برتبة مهيب ركن وهو الجندي الفار من أداء الخدمة، أو أن يدعي قيادة المقاومة وهو من فر من أرض المعركة ليحتمي عند مسعود أولاً ثم السعودية، ليخرج علينا عام ٢٠١٢ بدعوى أنه قائد مقاومة الإنترنت الوهمية، واضعًا إشارة الركن الحمراء على أكتافه وهو الجندي الفار؛ فإذا كان يعتقد أن الصفويين مشكوك بإسلامهم، فكل ما فيه يؤكد زيفه وكذبه ونصبه

واحتياله على الحزب والمقاومة ، البدلة العسكرية والرتبة والشارة الحمراء وإدعاء قيادة المقاومة ، أليس من العار أن يذم الآخرين وكل ما فيه مذمة وزيف، عزة ليس ابن الله، يحق لغيره ما يحق له!

الرابع: أن الرجل كما قلنا كل تحصيله الدراسي أنه راسب في الصف الرابع الابتدائي، وكل تجربته العملية في الحياة أنه كان صبي في محل لبيع الثلج، أي أنه غير موفق وفاشل، دراسيًا ومهنيًا، سواء بسبب ظروف اجتماعية قاهرة خاصة، أو بسبب تدني القدرات والخبرات العقلية، عاش لسنوات طويلة تحت ضغط الشعور بالدونية والنقص، تركيبة سيكولوجية كهذه عادة ما تكون السبب للحقد على المجتمع من حول صاحبها ، ورؤية الدماء الجارية والتخريب الحاصل في العراق وسوريا واليمن، ترضي هذا النوع من المرضى وتطمئن أحقادهم على المجتمع من حولهم.

قد تكون هذه الاحتمالات تفاعلت مع بعضها لنرى هذه الشخصية الخبيثة الحاقدة على الأمة العربية تقف بعلم ومعرفة، أو بغباء وهبالة في صف المؤامرات الداعية لتقسيم العراق، وبقية البلدان العربية كما هي سوريا واليمن، وهذا حتى بمقاييس البعث عندما كان في السلطة يمثل حد الخيانة العظمى، التي بمجرد الشبهة بها كان البعث ينفذ فيه حكم الإعدام، وما ينطبق على عامة أبناء الشعب ومواطنية، على الحزب أن يكون عادلاً ومنصفًا في تطبيق نفس القوانين على هذا الخائن للأمة العربية.

لو كان المتخلف عزة يمتلك ولو قليلاً من الذكاء، أو سلامة النيات، لكان تعلم ممن صنع منه رجلاً؛ رئيسه صدام، شيء من الحكمة في التعامل مع موضوع الطائفية ، أعلن صدام الحرب على إيران وغالبية الجنود ومعظم المراتب ومئات الضباط في الجيش العراقي كانوا من الشيعة، أي تربطهم بإيران روابط مذهبية ، كسرها وعطلها صدام بالتركيز على الأطروحات القومية ، والأبعاد التاريخية للصراع العربي – الفارسي، بعيدًا عن أي شعار استفزازي يمكن أن

يمس المعتقدات المذهبية، صَنع له شجرة نسب تُرجع نسبه للإمام علي، سافر بعدها للنجف ليقول "سأحاربهم بسيف جدي علي", زار مدن الجنوب وتقرب من الشيعة، مستنهضًا في الشيعة مشاعرهم العروبية، رغم أن الشارع العراقي في السماوة والديوانية والنجف والناصرية يغلي بالصراع بين أجهزة الأمن ومنتسبي حزب الدعوة، الذين رفضوا التسليم لقوى الأمن بعد صدور القرار بإعدام كل أعضاء حزب الدعوة بأثر رجعي، فكان القتال يوميًا يجري بمشهد من الناس، لكن صدام حقق انتصاره على الجبهتين بتركيزه على المشاعر القومية تجاه عدو قومي.

إن مقاومة عزة لم تخرج عن الإطار العام الذي رسمه لها بريمر، متخصصة بقتل الشيعة العرب، لا دخل لها بالاحتلال وما ترتب عليه من نتائج، كان توسع النفوذ الإيراني أحدها، لم نسمع يومًا في خطابات عزة ولا في خطابات المواقع التابعة له وجهة نظر وطنية حول الدستور الذي فرضه بريمر على العراق، ولا عن حجم التخريب الذي خلفه الاحتلال في البنى التحتية، عملية التخريب التي أصابت الوضع التربوي أو الصحي، مؤامرة التقسيم التي يسير نحوها الجميع بما فيهم مقاومة عزة وحزبه.. الموقف من قضية العرب المركزية في فلسطين، الأطماع التركية في الموصل، لا شيء إلا الصفويين، وقال قاسم سليماني، وسافر قاسم سليماني وشُوهد قاسم سليماني.. سندباد على الحصان الطائر، مرة في سوريا وثانية في العراق وثالثة في اليمن أو لبنان.

يبدو أيضًا أن عزة لا يعرف أن هناك من دعموا الاحتلال ويشاركون في تنفيذ مخططاته وسرقة أموال العراق من السنة، هؤلاء براء من الخيانة ولم يتجرأ أحد من كتاب حزب البعث السعودي المعولم على انتقاد أي منهم، يبدو أن معايير عزة الوطنية، لا تستوي إلا بتقسيم عرب العراق وزرع الفرقة بينهم، من أجل تحقيق الوحدة العربية أولى شعارات حزب عزة.

إن الإنسان ليشعر بالأسى والحزن لبعض المرتزقة من أعضاء حزب عزة ممن هم من خلفيات شيعية، يتنططون كالقرود من محطة فضائية ثانوية إلى أخرى ليصبوا الزيت على النار، بتوجه واضح أنهم يريدون أن يبرئوا أنفسهم من خلفياتهم الطائفية، لم يقدموا فكرًا، ولا تحليلاً ولا رأيًا ذو محتوى قومي أو سياسي، غير شتائم انفعالية، أو يتظاهرون بالانفعال بها، التي يكيلونها لشيعة العراق، إنهم الأخطر في عملية التحريض الطائفي، لأنهم الأكثر اندفاعًا في استفزازاتهم لأبناء العروبة من العرب الأصائل من شيعة العراق.

إن المشروعات المطروحة لتقسيم العراق لا يمكن أن تتحقق إلا بوجود قطبين متنافرين، يمكن فهم واستيعاب ذلك جيدًا عندما يكون كلا القطبين يستند لأطروحات دينية – مذهبية، لكن ما لا يمكن استيعابه أن يصطف مع واحد من الجانبين حزب يفترض فيه أنه قومي علماني، يندفع بقوة للمنافسة على احتلال الصف الأول في هذا التجاذب الطائفي.

الطائفية والقومية :

الطائفية بأبسط معانيها تعني الولاء المتعصب لأبناء مذهب واحد... أما الالتزام القومي يعني الولاء لأمة كاملة بكل ما تتضمنه هذه الأمة من طوائف وإثنيات وطبقات، لا لجزء منها.

يشكِّل الشيعة العرب لا أقل من ٣٠ مليون وحتى ٥٠ مليون من هذه الأمة، موزعين على العراق وبلدان الخليجي، الأحواز، السعودية، سوريا ولبنان... عزلهم أو تهديدهم بالإفناء والقتل على طريقة الشعار الذي وضعه عدنان عرعور في سوريا (العلوية للتابوت والمسيحية لبيروت)، لا شك سيضعهم بموقف المستعد للدفاع عن النفس لأخر حد، عندما يكون الخيار بين الفناء أو التقسيم والعزل بأوطان طائفية من دون أن يكون هناك سبب فقط غير خلفياتهم المذهبية يغدو القبول بأي مشروع تقسيمي سهل، ما يفرض على أي توجه

قومي الانتباه إلى معطيات الأمر الواقع واتخاذ الخطوات الكفيلة بطمئنة هذه الجماعات أو مكونات الأمة ببرنامج وخطاب توحيدي، يبعدها عن أن تتحول إلى أداة بيد أعدائها وأعداء الأمة العربية.

الأمة تتمزق، مهددة بالفناء، العربي فيها يقتل بأيادٍ وأموالٍ عربية، التقسيم النفسي على الأقل بدأ يأخذ أقصى مداه في كل من العراق، سوريا، اليمن، وليبيا ولو بمظاهر أخرى غير طائفية، ما يفترض بحزب قومي يرفع شعار الوحدة أن يترفع عن المشاركة بلعبة التقسيم هذه، ويضع البرامج أو الخطط الكفيلة بمواجهة هذا الانقسام والتشظي، لا أن يكون جزء من المشاركين به!.

في شهر نيسان ٢٠١٤، تسلمت دعوة من قيادة حزب البعث لحضور مؤتمر في تركيا قيل لي إن الغاية منه تشكيل قيادة سياسية للمقاومة العراقية، اكتشفت في الجلسة الأولى أن إدارة الجلسات والإشراف عليها خُول لناصر الجنابي واثنين آخرين من شيوخ الطائفية، لم يكن هناك برنامج محدد، ولا منهجية توضح ما المطلوب فعلاً من اللقاء، افتتح الشيوخ بالتناوب الحديث المكرر والمستهلك عن الاحتلال الصفوي للعراق، ترك الشيوخ بعدها الحرية لمن يرغب الحديث من المشاركين، أما عملية اتخاذ القرارات القطعية والمعدة مسبقًا فهي حق للشيوخ الثلاثة فقط..

طلبت السماح لي بمداخلة قصيرة، وضحت فيها كيف أن التركيز على مصطلح صفوي لن يخدم المقاومة بما له من انعكاسات على نفسية الشيعة، العرب كاتهام ينزع عنهم هويتهم العربية، ما يمكن أن يستفيد منه الطائفيين من الموالين لإيران لإثارة الحساسيات الطائفية، ويعزل المقاومة عن عرب الجنوب، إن مقاومة لا يشارك بها عرب الجنوب محكوم عليها بالفشل مسبقًا، كما شرحت الفرق بين النفوذ والاحتلال واقترحت استخدام مصطلح الصراع العربي– الفارسي كما هو مصطلح الصراع العربي – الصهيوني، بدلاً عن الترويج لفكرة الصدام بين السُنَّة العرب والشيعة الفرس، أيدني الدكتور ضرغام

عبد الله في مداخلته عن كونه توصل من خلال تجربته وتفاعله مع الكثير من الشخصيات الشيعية إلى نفور الشيعة العرب بما فيهم منتسبي حزب الدعوة من إيران ومحاولاتها التغلغل والسيطرة على شيعة العراق، اختفت بعد ذلك حدة الحديث عن الاحتلال الصفوي، لتظهر بالبيان الختامي لما يسمى ب: "المجلس السياسي لدعم المقاومة العراقية" مكررًا ثلاث مرات.

من حينها تأكد لي بالجزم أن مقاومة مواقع الإنترنت هذه على ما يبدو لا همَّ لها ولا هدف غير تنفيذ المخططات الأمريكية والصهيونية في تقسيم العراق وتجزئته إلى ثلاث دول، كما اقترح ذلك "مشروع إسرائيل لثمانينات وتسعينات القرن العشرين[١]"، وكما جاءت أمريكا لتنفيذه على الأرض، مع سبق الإصرار والتعمد، هي لا تريد فعلاً التخلص من الاحتلال الأمريكي وآثاره، والنفوذ الإيراني هو أحد تلك الآثار، بل هي تريد تقسيم الشعب العراقي والعراق، طلبًا لمرضاة الله على ما يبدو، والسعودية والغرب والصهيونية من بعده؟!.

صدام حسين، وحُكام نُخب الجهل والدونية والنقص:

إن مراجعة تجربة مسيرة البعث بعد المؤامرة التي نفذها صدام حسين ضد الوحدة والحزب وقيادته من ذوي الاتجاه الوحدوي، وإعدامه لقياداته المبدئية في تموز ١٩٧٩، تثير بنتائجها العجب في قيادته الجديدة التي صَنعها من عصابة غريبة من سقط المتاع من المتخلفين والأميين والجنود الفارين من الخدمة العسكرية، ممن هم وفقًا حتى لقوانين صدام حسين نفسها مطلوبين للقضاء، فكل من صدام نفسه وإخوته الذين سلمهم أعلى المراكز، برزان،

١- للإطلاع على نص المشروع يمكن العودة للرابط التالي:
http://www.ikhwanpress.com/Abhat%20wa%20Dirasates/Watika%20Zionist.pdf
نص المشروع كما علقت عليه صفحة قناة الجزيرة على الإنترنت:
http://www.aljazeera.net/news/presstour/2016/2/19/

وطلبان إضافة لعزة الدوري كانوا من المتخلفين عن أداء الخدمة العسكرية، يتميز صدام بينهم في أنه الوحيد الذي يحمل شهادة الدراسة الثانوية العامة، أما البقية فأفضلهم لا يحمل أكثر من الشهادة الابتدائية، ونائبه عزة كان طالبًا لم يتجاوز في تعليمه الصف الرابع الابتدائي.

أيضًا كان ممن تبوأ أعلى المناصب في الدولة والجيش هما حسين كامل، وعلي حسن المجيد كانا جنود عاديين في الجيش العراقي[1]، ويعرف الخبراء في قوانين الخدمة العسكرية العراقية، لو كان أي منهم حاصلاً على الشهادة المتوسطة (الصف التاسع) كان يمكن أن يرتقي لرتبة رئيس عرفاء سرية أو وحدة، أو نائب ضابط كاتب.

منح صدام ثلاثة منهم: عزة الدوري، حسين كامل، علي حسن المجيد، إضافة لابنه قصي، أعلى الرتب العسكرية (فريق ركن، رفع عزة نفسه إلى مهيب بعد أن أصبح بالوهم رئيس جمهورية العراق، والأمين العام للحزب)، احتل كل من عزة الدوري ووطبان وزارة الداخلية، وعلي حسن المجيد قيادة قطعات الشمال ووزير دفاع، وحسين كامل رئيس هيئة التصنيع العسكري، واختص برزان بالإشراف على الأجهزة الأمنية، هؤلاء كانوا الإسفين الذي دقه صدام بظهره، فلا شك أنه كان يمتلك شيء من خصائص الكاريزما التي تجعله مقبولاً من قبل الكثير من أبناء الشعب من غير المسيسين، إلا أن سلوكيات بطانته من سقط المتاع هذه، التي تُظهر تركيبة نفسية مشحونة بالشعور بالدونية والنقص والضعة، وتعاملهم الما فوقي المتكبر على الشعب، ما جعله وكل ما يمت للحزب بموقع المكروه.

إن إصرار عزة على ارتداء اللباس العسكري، وهو بالقانون مدرج تحت قوائم الجنود الفارين من الخدمة العسكرية، ليدعي بلباسه أو يتظاهر بأنه أصبح قائدًا

١- غسان شربل، صدام مر من هنا، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٠، ص::١٩٥.

للمقاومة، يعني أنه يجب أن يخضع لقوانين الخدمة العسكرية التي كانت سائدة في زمن البعث، والتي تنص بحكم الإعدام لأي ضابط يفر من ساحات الحرب، وعزة بفراره بعد دخول القوات الأمريكية للعراق وحتى قبل أن تتوقف المعارك، ارتكب جريمة الفرار من ساحة المعركة، ولو كان هناك فعلاً حزب للبعث ما زال يتمسك بقيم البعث وقوانين صدام؛ عليه أن يقدم عزة لمحكمة عسكرية ميدانية لمحاسبته على جريمة الفرار.

جريمة أخرى تندرج تحت باب الخيانة العظمى كونه سلم باتفاق غادر أسلحة ومعدات ومعسكرات القوات التي كانت بإمرته للعدو، فقوات مسعود البرزاني كانت تقاتل كحليف للقوات الغازية، وهذا يندرج أيضًا تحت إطار الخيانة العظمى وفقًا لقانون الخدمة العسكرية، أين هي الجماعات التي تزعم بأنها تمثل المقاومة العراقية، وهي تمثل بإيوائها لهذا الخائن الجبان وكر لحماية الخونة، بل أن تقيم محاكمها الميدانية، ووفقًا للقوانين التي كانت سائدة في زمن البعث.

لعل تقديم عزة الشكر للمملكة العربية السعودية لما قدمته من خدمات جليلة للشعب العراقي، كما قال في أول خطاب ظهر به بعد عودته من السعودية عند انسحاب القوات الأمريكية، كأنه يشكر لا شعوريًا المملكة على عملها ومساعدتها الأمريكان للتخلص من صدام حسين، ليموضع بائع الثلج الجندي الفار وحامل شهادة الصف الرابع الابتدائي نفسه، بديلاً، جزاء سنمار لمن صنع منه رجلاً وأنقذه من واقع الدونية والصغر الذي كان يعيشه.

أولئك هم جماعة اتخاذ القرار في ربع القرن من استفراد صدام بالحزب بعد إعدام قيادته وتنحية البكر... عليهم اعتمد في قراره بغزو الكويت، دون معرفة وزير الدفاع في حينها الفريق عبد الجبار شنشل، ولا رئيس أركان الجيش الفريق نزار الخزرجي[1]، كذلك كان حال وزير الخارجية عضو قيادة الحزب

---

١ – نفس المصدر، ص:٢٠٧ –٢٠٨.

طارق عزيز الذي لم يعرف بالأمر إلى أن سمع عنه في الأخبار في التليفزيون كما هم سائر الناس[1].

بهؤلاء الأميين قاد مجازره وقمعه غير المنضبط ضد الأكراد والشيعة والسُنَّة حتى؛ فهيأ الإنسان العراقي للقبول بأي حل من أي طرف، كما قمع مثقفي الحزب ومنعهم من استعمال ملكة التفكير أو المساهمة بصنع القرار، ليرددوا وإلى اليوم كالببغاوات شعارات التفتيت والتقسيم الطائفي على أنه نضال من أجل وحدة الأمة العربية، اختزل صدام حسين عقول ملايين العراقيين بعقله هو فقط، فكان أزمة حقيقية أصابت العقل العراقي بما فيه عقول مثقفي ومتعلمي الحزب نفسه، إن اجتماعاته بوزراءه التي كانت تعرض بالتلفزيون الحكومي، تظهرهم كمجموعة من الكتبة مستمعين فقط، كل بقلم وورقة يتظاهر بتسجيل ملاحظاته دون أن يحق له الحديث أو إبداء رأي أو ملاحظة.

الاحتلال الأمريكي وما ترتب عليه من نفوذ إيراني:

لذلك أيضًا لا يستغرب الإنسان من أن حامل الألقاب الكبيرة، رئيس جمهورية العراق بالوهم حاليًا، الأمين العام لحزب البعث، القائد العام للقوات المسلحة العراقية، قائد المقاومة الوطنية القومية الإسلامية، الضليع بسياسة بيع الثلج والهروب من الخدمة العسكرية؛ لا يدرك الفرق بين مصطلح الصراع العربي- الفارسي، والعراقي – الصفوي، ولا معنى الاحتلال والنفوذ.

الاحتلال: يعني سيطرة أو غلبة دولة على أخرى بحيث تصبح الدولة المُحتلة هي المُهيمنة كليًا على عملية اتخاذ القرار في الدولة الواقعة تحت الاحتلال.

١ – حميدة نعنع، طارق عزيز: رجل وقضية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ص: ١٧٩.

النفوذ: يعني قدرة دولة ما في التأثير في قرار دولة أخرى من خلال تأثيرها أو علاقتها ببعض من المشاركين في عملية اتخاذ القرار في الدولة الواقعة تحت النفوذ أو الهيمنة.

أمريكا من خلال سفارتها ما زالت تمثل دولة محتلة مهيمنة كليًا على عملية اتخاذ القرار، يستلم رئيس الوزراء العراقي تعليماته من السفارة الأمريكية لا من إيران، السفارة الأمريكية في بغداد هي من يحدد حتى هامش الحرية في اتخاذ القرارات الجزئية والتنفيذية، دون حساب لما تريده إيران إلا ما كان لا يتناقض مع التوجهات الأمريكية أو يصب في صالح الأهداف الأمريكية.

أمريكا لم تُسلم العراق لإيران لغفلة أو عفوية منها، كما أن إيران لم تدخل بقوتها وإرادتها للعراق بل استجابة لدعوة أو تشجيع أمريكي.

سمحت أمريكا لإيران بالتدخل بالشأن العراقي كمرحلة جديدة أو خطوة متقدمة لتنفيذ مشروعها التقسيمي، فالتواجد الإيراني، سيثير غضب سنة العراق، ويشكل نوع من الطمأنة للشيعة، ليس عبثًا ولا غفلة من بريمر أن يغلق في فترة حكمه كل الحدود مع الدول العربية، كما سلم مسؤولية مراقبة الحدود مع تركيا للأكراد وترك الحدود الإيرانية مفتوحة بدون أي رقابة.

يعرف المواطن العادي من سكان بغداد أماكن وبيوتات تواجد المخابرات الإيرانية، الإسرائيلية، التركية وكل المخابرات العالمية المعنية بالشأن العراقي، أين منها مقاومة عزة الوطنية – القومية – النقشبندية.

إن أمريكا لم تأتِ للعراق بقرار اعتباطي أو مستعجل بدون دراسة، يقول بيتر غالبريت مؤلف كتاب "نهاية العراق": "كانت وزارة الخارجية قد أمضت عامًا كاملاً قبل الحرب، وأنفقت ملايين الدولارات في العمل مع المنفيين العراقيين لإعداد خطة بخمسة عشر مجلد لكيفية حكم العراق بعد الحرب"[١]، أي أنها ليس

١- بيتز وغالبريث، نهاية العراق، ترجمة إياد أحمد، بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧، ص:١٣٧.

اعتباطًا أيضًا أو عدم خبرة أن تسمح بعودة رجل إيران الأول باقر الحكيم بذلك الشكل الاستعراضي، بموكب واستقبالات في المدن التي يمر بها موكبه، بنقل حي على التلفزيون الرسمي، لا شك أنها تعرف من مجلداتها ال ١٥ أن باقر الحكيم ومجلسه ليس إلا مؤسسة إيرانية صرف لاعلاقة لها بالعراق إلا اسمًا.

يعتقد الباحث في الشؤون العربية فتحي رشيد، أن أمريكا لم تكن تسمح لتواجد باقر الحكيم في العراق فقط لإرهاب السُنَّة بل "لإثارة الصراع مع الأطراف الشيعية الأخرى، من أجل أن تستخدمه للوقوف في وجه القوى الشيعية الأخرى المقاومة للاحتلال، ومن المحتمل أن يكون السيد الحكيم مدركًا لما تبيته الإدارة الأمريكية له ولمجلسه ومؤيديه[١]".

يعرف عزة وجماعته حدود المهمات الموكلة بهم ممن نصبهم أدعياء بالمقاومة العراقية، مثله مثل المعنيين بالشأن العراقي من الأجهزة الإيرانية، أدوارهم محددة ومختصرة بتأجيج الصراعات الطائفية، إثارة وشحن النزعات الطائفية بتصعيد التهديدات بالموت والفناء للآخر... أمريكا وحدها من يحق لها وتمتلك القدرة على تحريك أدواتها عند الضرورة، تسمح باحتلال داعش للموصل، مقابل السماح للطائفيين من الشيعة بتشكيل الحشد الشعبي، وستبقي الدماء جارية إلى أن يتعب الطرفين ويستهلكا كل قواهما ويصلا إلى حد القبول برغبتهم بالتقسيم كحل نهائي لمشكلاتهم، كما فسر باقر الحكيم فائدة التقسيم الفيدرالي في أعلاه.

يبدو أن إشارة الأركان الحمراء التي يحملها عزة الدوري، ستظل كما هي مجرد شريط أحمر لا دلالة له ولا تأثير في عقلية الجندي الفار من الخدمة العسكرية قائد المقاومة، والقائد العام للقوات المسلحة العراقية، الفاشل في الحصول حتى على شهادة الابتدائية.

١- فتحي رشيد، حدث ويحدث في العراق والمنطقة – أمركة أم صهينة، دمشق: ٢٠٠٣، ص: ٢٦٤.

تلك هي لعبة طائفية العولمة والقرن ٢١، لا دخل لها بالاختلافات المذهبية، يندفع ورائها تجار ومحترفين لإرضاء أطراف خارجية تتفاعل مكافآتها مع نزعات نرجسية وذات مريضة تتمحور حول "أنا" مضخمة، ومشاعر ضاغطة بحدة بالنقص والدونية، يتحركون بتناغم، كل حسب دوره الذي تحدده له، المؤسسات الأمريكية والصهيونية المعنية بالشأن العراقي، يبارك عزة الدوري لداعش تنفيذها لمجزرة سبايكر، ليُكره عرب الجنوب بكل ما هو قومي عربي، ويلعن أحدهم اليوم الذي ولدته أمه بالهوية العربية.

حان دور السستاني الذي ألغى من رسالته فريضة الجهاد كفريضة إسلامية ليتقدم مستثمرًا ما زرعه عزة من كره للعروبة، ليقول بضرورة الجهاد الكفائي أي أن الجهاد يغدو واجب فرض على كل مؤمن ومؤمنة عندما لا يكون هناك ما يكفي من القوة لممارسة هذا الجهاد، ويفترض أن الجيش العراقي الذي أسسه بريمر معني بهذا الجهاد بما لا يحمل المسلم واجب الجهاد الكفائي، بلغ تعداد هذا الجيش حوالي أكثر من نصف مليون، إن لم يكن العدد كافيًا لمواجهة داعش، فالجهاد الكفائي يفرض التطوع بالجيش أو تطوير وحداته الخاصة بحرب المدن، ليتطوع من يريد الجهاد والشهادة كسبًا لرضى الله وطمعًا بحورياته، أن يتطوع في الجيش لا بعصابات الحشد الشعبي، أما أن يترجم هذه الفتوى عملاء أمريكا – إيران – إسرائيل – بتشكيل قوات الحشد الشعبي، يعني مواجهة الإرهاب باسم السُنَّة بإرهاب باسم الشيعة على أرض مدينة كافح أهلها بشدة ومنذ الحرب العالمية الأولى من أجل الحفاظ على هويتها العربية ضد الأطماع التركية[1].

١– **حول الأطماع والمحاولات التركية للاستيلاء على محافظة الموصل وضمها لتركيا كما حصل للواء الأسكندرونة، راجع: ساطع الحصري، مذكراتي في العراق، الجزء الأول، بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧، ص: ٤٨٧ –٥١٢**

لا أشكك هنا بنوايا المتطوعين في الحشد الشعبي المغيبة عقولهم والعاجزة عن فهم معنى الجهاد الكفائي، لا أشكك أبدًا بصدق سرائرهم في الدفاع عن وحدة أراضي بلدهم، لكن الحديث هنا يعني تجار الطائفية من عملاء الغرب والصهيونية ممن أسس وقاد هذه المليشيات.

أعتقد أو أظن (وبعض الظن إثم)، إن كُل من السستاني وعزة الدوري لو مات كلاهما أو أحدهما، سيُمْنع وبأمر المخابرات المركزية الأمريكية الإعلان عن موتهما إلى أن ينجزا مهماتهم في تقسيم العراق وتدميره، بحروب أهلية حتى يبدو التقسيم حلاً نهائيًا مقبولاً باسم الله، واسم أبو حنيفة وأحمد بن حنبل والإمام علي والإمام المهدي المنتظر، والوحدة العربية.

وتسيل دماء الآلاف من الشباب، وتعطل طاقات من يسلم منهم ويُستلب عقله ليغدو معزولاً عن الحياة من حوله، مشغولاً بخلافات حصلت بين أجدادنا قبل ١٤٠٠ عام، مع أنهم كانوا جميعًا من قريش تربط بعضهم ببعض أواصر نسب بشكل أو آخر، فما زال هناك من يتجادل بانفعال وبالسلاح حول من هو الأجدر فيهم أن يتولى الحكم؛ الإمام علي أم الشيخين، مع أن التاريخ يقول لنا إنهم تعايشوا وتعاونوا من أجل الحفاظ على كيان دولتهم ودينهم!

على الشباب العروبيين من الشيعة أن ينتبهوا ويتأملوا حقيقة كون تشكيل الحشد الشعبي يمثل الخطوة الأخيرة لتعميم الاقتتال الداخلي وصولاً لمرحلة التقسيم، وفقًا للمخطط الصهيوني الرامي لتقسيم العراق إلى ٣ دول صغيرة ستتناحر وتتقاتل على حصتها أو حقها في هذه المدينة أو تلك!.

الفصل السادس

الطائفية وحاكمية الله

فرعونية تتلبس بعمامة إسلامية

ظهرت الفِرق الأولى في الإسلام كأحزاب أو شيع، فقيل شيعة علي وشيعة معاوية، توقف استعمال مصطلح شيعة معاوية عن التداول بعد وفاته، وبقي الاسم ملتصقًا بالموالين لعلي[1]، كان السبب الأولي للخلاف سبب سياسي بحت لا دخل له باختلافات فقهية، ثم ظهر الخوارج حزب جديد بين هذين الشيعتين، كفَّروا الطرفين، وطرحوا مفهومًا جديدًا في الحكم تحت شعار "لا حكم إلا لله".

وضعوا من خلاله معايير وشروط جديدة لمن هو الأصلح في أن يكون ممثلاً أو وكيلاً للخالق في إدارة شؤون خلقه، إن متابعة الحركات والدعوى الطائفية أو المذهبية المختلفة تشير إلى أن أطروحاتها يمكن أن تندرج تحت نفس العنوان، لا حكم إلا لله، فالكل يعتقد بأنه الممثل الوحيد لحاكمية الله في الدنيا، تحت شعار حاكمية الله هذا أباح الخوارج لأنفسهم قتل آلاف المسلمين على امتداد أكثر من قرنين، استخدمت داعش الشعار بنصه الصريح لتسلك أفعالاً قريبة من تلك التي مارسها الخوارج، إلا أن فقهائها طوروا اجتهاداتهم

١- حول تسمية الشيعة بهذا الاسم، وبداية نشوء حركتهم، راجع:

- عبد الله فياض، تاريخ أشيهة الإمامية وأسلافهم من الشيعة، بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٦، ص:٣١-٧١.
- أحمد أمين، فجر الإسلام، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٥، ص:٢٦٦-٢٧٨.
- محمد جواد مغنية، الشيعة والتشيع، بيروت: دار الكتاب اللبناني، بلا تاريخ، ص: ٩-١٦.
- كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٢، ج١، ص: ١٧-٢٥٣.

وتصوراتهم الفقهية لتتماشى مع عصر العولمة وشيوع الاهتمام بكرة القدم، فراحت تُجيز قطع رؤوس المشركين من المسلمين للاستعاضة بها عندما لا تتوفر كرات رياضية، لعله قياس على طريقة جواز التيمم بالتراب عند عدم توفر الماء، أو لربما استنكروا اللعب بالكرات الرياضية لأنها من صنع الكفار.

يظل الشعار في حقيقته مبطن أو غارق في لجة من الغموض والإبهام، يطرحه البعض دون تفسير، ويترك للمتلقي حرية تفسيره على أساس ما يمتلك من أوليات لفهم الدين.

تتفق جميع الفرق على أن مصادر التشريع أو أحكام الله، كما يتصوروها، تقوم على مصدرين أساسيين هما القرآن والسُنَّة، واختلفوا في من يفسر الكتاب ومن هو الأكثر موثوقية للاعتماد عليه في نقل الحديث، تعددت الاجتهادات، حصرت الشيعة قبولها بالتفسير ورواية الحديث بما هو منقول عن أئمتهم الاثنى عشر، وتمسكت المذاهب السُنّية بالصحابة باعتبارهم الأقدر على تفسير القرآن ورواية للحديث.. اتفق الطرفان – الشيعة والسُنَّة – على أن إجماع الآراء كمصدر آخر من مصادر استنباط الأحكام الشرعية، أضاف الشيعة العقل كمصدر رابع باعتبار أن الأحكام الربانية لا يمكن أن تتنافى مع العقل السليم، وانقسم السُنَّة بين من تمسك بالنص (الحديث) كما ورد عن الصحابة، وبين من قال بالرأي والقياس وأضاف له المصلحة والاستحسان[١].

أين يجد الإنسان حكم الله في وسط هذه المعمعة، هذا يقول لك لن تجده إلا عند بن حنبل، وذاك عند الشافعي، وآخر يخص أبو حنيفة، أو مالك بن أنس، أو جعفر الصادق، أو الرازي أو الطبري إلى أخر سلسلة المفسرين.. يحمد الإنسان الله لو انتهت هذه السلاسل عند هذا العدد، يأتي بعدهم الشُرَّاح، وشُرَّاح الشُرَّاح.

---

١ – حول الفروق بين اجتهادات الأئمة، راجع: عبد الرحمن الشرقاوي، أئمة الفقه التسعة، بيروت: دار اقرأ، ١٩٨١.

الإنسان ميَّال بطبعه للاعتزاز برأيه، ما أن يقتنع برأي أو اجتهاد عند واحد من هؤلاء الفقهاء أو المفسرين، ويقع الحكم على هواه أو يوافق مزاجه؛ عند تلك اللحظة التي قرأ أو سمع بها، ليؤكد صحة رأيه، يرفض الآخرين ممن لا يقرون على وجهة نظره، الذين سيشعرون نفس الشعور من الامتعاض ممن خطَّئهم، فيقابلون التخطئة بتخطئة.

التصق شعار "لا حكم إلا لله"، في العصر الحديث بأبي الأعلى المودودي، كما فصله في كتابه الخلافة والملك، وكتاباته الأخرى... بعد أن يورد المودودي مجموعة من الآيات التي تشير أن إرادة الله ترفض أي حكم غير أحكامه، فيقول "إن هذا القانون الذي أمرنا الله في الآيات السابقة باتباعه والسير عليه ليس من وسيلة لتبليغه للإنسان سوى رسول الله ﷺ، فهو وحده الذي يوصل أحكام الله وشرائعه إلى البشر، وهو وحده الذي يفسِّرها ويشرحها بقوله وفعله، فالرسول إذن هو ممثل حاكمية الله القانونية في حياة البشر[1]".

من الواضح أنه حدَّد الحاكمية أو كما سماها بالقانون الإلهي أو أحكام الله وشرعته بمصدرين القرآن والسُنَّة، أو هو وكل بها النبي، والنبي كان قد مات منذ قرون عدة، كيف نتابعها إذاً؟ يعتقد أبو الأعلى أن الحاكم التالي هو الخلافة "كنائبة عن الحاكم الحقيقي تبارك وتعالى[2]"، ويشترط بالخلافة أن تكون جماعية بشرط ألا تكون ديمقراطية على شاكلة "الديمقراطية الغربية التي تقوم على مبادئ الحاكمية الشعبية، أما في خلافة الإسلام الديمقراطية فالشعب يسلم بحاكمية الله ويجعل سلطاته محدودة بحدود قانون الله برضاه ورغبته[3]".

يقول المتفقهة وأصحاب شعار أن "لا حكم إلا لله" أن الكتاب حوى كل العلوم، وهو صالح لكل العصور والأزمان، بشرط أن تفهمه وتقرأه بالطريقة التي

١- أبو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، الكويت: دار القلم، ١٩٧٨، ص: ١٧.

٢- نفس المصدر، ص: ١٩.

٣- نفس المصدر، ص:٢١.

يقرؤونه هم، قراءاتهم تخضع لمدارس واجتهادات محكومة بمصالح ونزوات أصحابها، والظرف السياسي والتاريخي الذي عاشوه.

لا شك أن القرآن كتاب الله الذي: (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت:٤٢). قد يحتاج الإنسان في بعض آياته إلى معرفة باللغة العربية، ولهجات عرب صدر الإسلام، فيذهب مستعيناً بالمفسرين، ليصطدم في أن بعضهم لا يكتفي بإيضاح سبب نزول الآية ومعناها اللغوي، بل يجد أنهم محكومين بنزعة فرعونية غريبة، تتطلع لأن تشارك الله أحكامه وإرادته، كأن بعضهم يريد أو يميل إلى أن ينتقص من قدر الباري، الذي عطل أحكامه بانتظار، أو أنزلها ناقصة إلى أن يأتي هذا الفقيه ليكملها له.

لو أخذنا مثلاً الآية ٣ من سورة المائدة: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ....... ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحيم).

لعل الحكم واضح: حرم الله بعض الأكلات، ثم عاد وأباحها عند الضرورة، قد يحتاج الإنسان لتعريف بعض الكلمات في النص، فيحتاج لمن يفسرها له، لكن التحريم والإباحة المشروطة بالاضطرار واضحين مع وعد بالغفران والرحمة للمضطر، ترك الخالق حرية تقدير ظرف الاضطرار، ومقدار الحاجة لمن اضطر، يأتي المفسرون ليتدخلوا بين العبد وغفران ربه، يموضعون أنفسهم فراعنة شركاء لله في أحكامه، الخالق أجاز الأمر عند الاضطرار، ووعد بالغفران.. فبأي حق يتطاول الفقهاء على أمر الخالق وغفرانه، ويتدخلون بينه وبين عباده، ليحددون ما هي حالة الاضطرار، ثم يقرِّرون أو هم يخمنون الكمية التي سمح بها، فيقصرون أو يمطون في غفرانه ويحرمون البشر من هذا الغفران وفقًا لما يرونه ويختلفون عليه من آراء حول ما يجب تناوله من هذه المحرمات حد الشبع أو حد الحاجة التي تضمن الاستمرار بالحياة، من أين

لهم معرفة حدود غفران الخالق وما يريده، وما حكمته في جعل الاضطرار حلال، والغفران في الآية مطلق بدون حدود، لم يشر إلى هذه الحدود التي تجادل بها الفقهاء، بل ترك للإنسان المضطر الحق في تقدير حاجته هو، لا هذا الجالس في صومعته مملوء بالشبع من الطيبات ولا يشعر بمرارة الجوع.

لا شك أن المضطر إما أن يكون في صحراء أو غابة أو مدينة في حالة حرب، أو أي من الأماكن التي لا يتوفر له أكل الحلال بها، وإلا فالإنسان في الوضع الطبيعي قد يأنف حتى من أكل بعض المأكولات مع تأكده من كونها تخضع لشروط الحلال.

سبحان الله كأن الباري أراد أن ينبهنا إلى النزعات الفرعونية عند هؤلاء المفسرين، فقطع الحكم بالآية بقوله الكريم: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ)، بما لا يجيز أو يحق لأن يتصور الإنسان أن هناك نقص في أحكام الله ليسد هو هذا النقص، لا يفهم هذا القطع بالحكم بهذه الآية إلا بمعنى: ليخرس من يعتقد أن هناك نقصًا بالإسلام تركه الله للنزعات الفرعونية لتكمله..

يرى أحمد أمين، أن بعض طبقات المفسرين كانت تتصل بالمسلمين من أصول يهودية، نصرانية، مجوسية، يأخذون منهم معلومات عن روايات وقصص "يرونها عن التوراة والإنجيل وشروحها وحواشيها"[١]، تلك هي أول مشكلة من مشكلات "حكم الله"، كل يريدك أن تأخذه بالطريقة التي يتصورها هو، وإلا فالحكم بالتكفير أو الشرك، أو التحريم جاهز.

عند الانتقال إلى المصدر الثاني من تطبيقات حاكمية الله، تأتي السيرة النبوية، وهي ما لا يختلف عامة المسلمين مع المتأسلمين من أصحاب الدعوات البدعية في أنها مصدر من مصادر الشريعة تتمم ما جاء في كتاب الله.

١- أحمد أمين، ضحى الإسلام، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦، ج٢، ص:١٠٧

لا أدعي العلم بالحديث وفنونه، معرفتي لا تتجاوز ما قرأت عنه في كتابي أحمد أمين "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" مع بعض الملاحظات هنا أو هناك، غير معني بهذا البحث بما هو صحيح أو معلق أو موقوف، أو مسند أو مرسل وغيرها من شروط مسلم أو البخاري في الحديث ورواته[1] أحمد أمين ٨٢-١٠٥ /ج٢).

قطع الشيعة أمرهم في كونهم لا يأخذون الحديث إلا ما ورد من أئمتهم، لكنا نجد أن الأئمة كانوا يكثرون من الشكوى في زمنهم مما يدسه الشعوبيون والغلاة على أحاديثهم، فمما يروى عن الإمام الصادق قوله: "كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المستترون [أصحاب أبي] آخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة، فكان يدس فيها الكفر والزندقة ويسندها إلى أبي، ثم يدفعها إلى أصحابه فيأمرهم أن يبثوها في الشيعة، فكلما كان في كتب أصحاب أبي من الغلو فذاك مما دسه المغيرة بن سعيد في كتبهم[2]".. لم تقتصر شكوى أئمة الشيعة على الإمام جعفر الصادق بل اشتكى الإمام الرضا بنفس المعنى من الغلاة[3]، ومن قبلهم كان الإمام علي السجاد رابع أئمة الشيعة، يشكو من نفس الظاهرة[4].

كان الغلاة يضعون الأحاديث والروايات في أهل البيت لا حُبًا بآل البيت بل ليكسبوا العامة من محبيهم لأغراض هي في الغالب إما سياسية تنزع للسلطة والحكم، أو شعوبية تهدف لتشويه الإسلام، وزرع الخلافات بين المسلمين، يفسر الباحث د. كامل مصطفى الشيبي أسباب الغلو الذي يدفع الغلاة إلى افتعال هذه الأحاديث عن الأئمة والنبي هو: "أن للغلو والتصوف هدف مشترك؛ هو أن

١- نفس المصدر, ص: ٨٢-١٠٥.

٢- عبد الله فياض، مصدر سابق، ص:١٢-٢١.

٣- نفس المصدر، ص:٨٧-١٢٩.

٤- كامل مصطفى الشيبي، مصدر سابق، ج١، ١٦٢.

يكون للإنسان موضع قدم في الألوهية وتصريف شؤون الدين والدنيا بقدرة غيبية، وهذا هو السبب الذي من أجله رفع الأئمة أولاً إلى الإلهية وارتفع رؤساء مدارس الغلو إلى النبوة ثم استقلوا فارتفعوا إلى الإلهية بأنفسهم[1]".

مما يروى من قصص الغلاة، كشاهد على صحة ما قاله الدكتور الشيبي، قصة عن المختار وهو أول من طرح فكرة المهديه في محمد بن الحنفية، لأنه "أراد أن يحكم باسمه دون إشراكه بالسلطة الفعلية، وعندما هَمَ محمد ابن الحنفية أن يأتي إلى الكوفة، وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه، فقال إن في المهدي علامة يقدم بلدكم هذا فيضربه رجل في السوق بالسيف لا تضره، بلغ ذلك ابن الحنفية فأقام بالمدينة ولم يذهب للكوفة[2].

كثر وضاع للحديث من الطرفين في زمن بني أمية، من يغالي في حب الإمام علي، ومن يغالي في بقية الخلفاء الراشدين، ويضع الأحاديث في مدح آل أُمية[3] عندما أُخذ عبد الكريم بن أبي العوجاء الوضاع ليضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أُحرِّم فيها وأُحلِّل[4].

لم ينفرد طه حسين بالقول بهذا الرأي حول أثر الفتنة على الحديث، بل تلك ملاحظة يكاد يصل لها جميع من كتب من المعاصرين حول الحديث سيصل إلى النتيجة التالية:

"إن بدايات الفكر الديني الإسلامي ارتبطت بوقائع الفتنة الكبرى، وإذا كفَّر حملة العلم الأول بعضهم بعضًا، فإن درجة الثقة في معارفهم يجب أن تؤخذ بحذر فعلم ابن عباس مثلاً يختلف كثيرًا عن علم عبد الله بن عمر، علم عبد الله بن مسعود بعيد الصلة عن علم سابقيه، وأحاديث عبد الله بن عمر غير أحاديث

١- نفس المصدر، ص:١٣٨.

٢- عبد الله فياض، مصدر سابق، ص: ١١٥ -١١٦.

٣- أحمد أمين، فجر الإسلام، ص: ٢١٢-٢١٤

٤- نفس المصدر، ص:٢١١.

أبي هريرة، وهكذا... لذلك نرى أن من الخطأ البين إضفاء القدسية على معارفهم جميعًا، والواجب الأخذ عنهم بعد نظر وروية[1]".

على ذكر أبي هريرة، هناك موضوع شغلني منذ سنوات وهو إني ما قرأت كتابًا في الدين، وما سمعت موعظة من مواعظ الواعظين إلا ووجدت أبو هريرة ينبز فيها كراوي للحديث أكثر من غيره من الصحابة الآخرين، حتى لكأن المسلمين يدينون بدين أبو هريرة لا دين محمد بن عبد الله، يقفز السؤال في ذهني عن السبب بحثًا عن تفسير، لكني لم أتابع الموضوع إلى أن اطلعت على البحث القيم الموثق الذي كتبه الباحث المغربي الدكتور مصطفى بو هندي بعنوان: "أكثر أبو هريرة".

يرتبط موضوع أبي هريرة ببحثنا هذا بقوة بآصرتين؛ مرة كونه من الصحابة، وهم السلف الصالح المطلوب، وفقًا لرأي من يقولون بحاكمية الله، أن نقتدي بهم ونتبع سبيلهم، فهو صحابي مميز، ليس كغيره من الصحابة، التجار الجشعين، المشغولين عن صحبة النبي، بجني الأرباح وصفقاتهم التجارية، كما وصفهم أبو هريرة، وهو من جهة أخرى واحد من أهم رواة الحديث ما لا يمكن المرور العابر به، أو تجاوز ذكره.

إن عدد الأحاديث المنسوبة له أو المنقولة عنه قد بلغ عددها ٨٧٤٠ حديث من أصل ٦٢١٦٩ حديث، تمثل نسبة ١٤,٠٥ % من مجموع الأحاديث، وتصل هذه النسبة إلى ٢٦,٢٥ % عند البخاري، ٦٨,٤٩ % عند مسلم[2]... تتعقد لمشكلة عندما يعرف الإنسان أن أبو هريرة كان أميًا لا يجيد الكتابة والقراءة، أي يعتمد على الذاكرة في نقله الحديث.

١- محمود إسماعيل، الخطاب الديني المعاصر بين التقليد والتجديد، القاهرة: ٢٠٠٥ دار مصر المحروسة، ص:٢٩.

٢- د. مصطفى بو هندي، أكثر أبو هريرة، الدار البيضاء: مطبوعات الصباح الجديدة، ٢٠٠٣، ص:٢٣.

كان بإكثاره هذا موضوعًا لتشكيك أُم المؤمنين عائشة بصحة ما يرويه، اتهمته بالكذب صراحة بوجهه يوم قالت له:

- إنك لتحدث عن النبي ﷺ حديثًا ما سمعته منه.

أجابها أبو هريرة:

- يا أَمَةْ طَلَبتها وشغلك عنها المرآة والمكحلة، وما كان يشغلني عنها شيء[1].

كما اتهمه الخليفة الثاني عمر بسرقة أموال المسلمين عندما عينه واليًا على البحرين، وخاطبه قائلاً (برواية أبي هريرة نفسه): "يا عدو الله وعدو الكتاب؛ سرقت أموال المسلمين، ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمر الحمير"، أميمة هذه هي والدة أبو هريرة، ثم ضربه بدرته[2].

يبدو أن أبو هريرة كان معروفًا بين عموم الصحابة الذين عاصروه من مهاجرين وأنصار بكذبه وتلفيقه للأحاديث النبوية، ما اضطره أن يدافع عن نفسه بقوله: "إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة من الحديث،......إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وأن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل بأموالهم، وكان أبو هريرة يلزم رسول الله ﷺ فيسمع ما لا يسمعون، ويحفظ ما لا يحفظون[3]".

ألا يضعنا تمسك وعَّاظ السلاطين، القائلين بشعار لا حكم إلا لله، بأبي هريرة في محنة وارتباك، بل يضعهم هم قبل غيرهم في تضاد وتناقض: إما أن نأخذه بمحمل الصحابي الجليل ونقبله ككل، وهو هنا وبشهادة الصحيحين البخاري ومسلم ومسند أحمد يعطي صورة غريبة عن الصحابة المشغولين عن النبي ﷺ

١- نفس المصدر، ص:٣٢.

٢- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، ج١، ص:٤٤.

٣- محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، تحقيق د.علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ج٢، ط١، ٢٠٠١، ص٣١٤.

بصفقاتهم وتجارتهم، ويتركونه مع المسكين أبو هريرة، ما يسقط عنهم ميزة الصحوبية والمرافقة!.

أو أن الرجل كذب عليهم، وهو معروف بكذبه لأم المؤمنين وللخليفة العادل عمر، فكيف يستوي حكم الله بروايات كذاب اتهمه الخليفة عمر بأنه عدو الله وعدو الكتاب، سارق.. ألا يُلزم هذا وعاظ السلاطين أن يصححوا موقفهم مما يتناقلونه من أحاديث قبل أن يتهموا المسلمين بالشرك ويكفرونهم، بل يقطعون رؤوسهم للعب كرة القدم بها.. استعجلنا بذكر أبو هريرة لارتباطه بالحديث، المصدر الثاني من مصادر حاكمية الله.

المصدر الثالث لشريعة حاكمية الله، ما يرددون من سرد الروايات عنه كمثل لليوتيبيا الإسلامية، فترة حكم الخلفاء الراشدين، لكن من أين لنا بأمثال أبو بكر وعمر وعلي، تلك المثالية الإسلامية التي اتسمت بالعدل ونكران الذات والسماحة.

جاء الخليفة الثالث، وهو من المهاجرين الأوائل والعشرة المبشرة بالجنة، صهر رسول الله ﷺ ليحول الدولة الإسلامية إلى إقطاعية خاصة له ولأقاربه، من الطلقاء والمؤلفة قلوبهم والفُسَّاق، كأنه بمصطلحات اليوم كان خطًا أمويًا مائلاً اندس في الإسلام، أو خلية نائمة تنتظر الفرصة لتعيد لآل أمية زعامتهم لقريش وامتيازاتهم.

عندما سُئل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان عن تبريره للخروج على سنة الخليفتين أبو بكر وعمر بن الخطاب، في تقريبه لأقاربه وعشيرته وتميزهم عن بقية المسلمين والإغداق عليهم بالأموال والمناصب، أجاب "إنهما منعا قرابتهما ابتغاء وجه الله، وأنا أعطي قرابتي ابتغاء وجه الله[1]"، أو كما ورد

١- د. علي الوردي، وعاظ السلاطين، لندن: دار كوفان، ١٩٩٥، ص: ٢٥.

بنص آخر: "أن عمر كان يحرم قرابته احتسابًا لله، أنا أعطي قرابتي احتسابًا لله، ومن لنا بعمر[1]".

أي أن مرضاة الله تتقبل كلا الموقفين، المساواة والعدل بين المسلمين دون تميز أو حساب لصلة القرابة، وتميز القرابة وإغداق الامتيازات عليهم، حتى من كان منهم مَن هو فاسق بشهادة القرآن بفسقه، أو من طرده النبي وأبعده وأجلاه عن المدينة للطائف كما هو مروان بن الحكم، وعبد الله بن سعيد أبي سرح لتطاوله على النبي[2].. يعني يمكن للمسلمين القبول بالشيء وضده لبلوغ مرضاة الله.

إن تفاصيل قصة الشورى واختيار الخليفة الثالث بعد مقتل الخليفة عمر، واستقرار رأي جماعة الشورى على اختيار واحد من اثنين، علي أو عثمان، عرض عبد الرحمن بن عوف عليهما التعهد بالالتزام بكتاب الله وسُنة رسوله وسيرة الشيخين لا يحيد عن شيء من ذلك، رفض علي التعهد بذلك قائلاً:
- اللهم لا، ولكن اجتهد في ذلك رأي ما استطعت.

ووافق عثمان على الالتزام بهذا التعهد[3].. لنراه يجتهد منحرفًا بعيدًا بمسافات كبيرة عن سيرة عمر تقربًا لرضى الخالق كما فسر هو أسباب انحرافه، ونكثه للعهد، ومع ذلك ما زال هناك من يرى أن عثمان مظلوم، وهو على حق في كل انحرافاته فهو صحابي من العشرة المبشرين بالجنة، مع أن مطالب الثوار أو المتمردين منه كانت لا تتجاوز الشكوى للخلاص من ظلم وتجبر أقرباءه من الولاة من الطلقاء، الذين نصبهم بدلاً من صحابة معروفين بسبق إسلامهم وتقواهم، وحسن إسلامهم، مثل سعد بن أبي وقاص، وأبو موسى الأشعري الذين وَلاهما عمر على ولايتي الكوفة والبصرة.

١- طه حسين، الفتنة الكبرى: عثمان، القاهرة: دار المعارف، ط١٢، ص:٤٢.

٢- نفس المصدر، ص: ١٢٤. ود.علي الوردي، مصدر سابق، ص: ١٣١.

٣- طه حسين، الفتنة الكبرى: عثمان، ص:٤٣.

سعد بن أبي وقاص هو ثالث أو رابع المسلمين الأوائل، عزله عثمان عن الولاية واستبدله بالوليد بن عقبة بن أبي معيط، وهو من يقول المفسرون من نزلت بحقه سورة الفاسق الكذاب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)، فهو فاسق بحكم القرآن الذي هو حكم رب العالمين، لأنه كذب على النبي وغشه عندما أرسله لجمع أموال الصدقة من بني المصطلق، فعاد ليكذب على النبي ويقول إنهم ارتدوا عن الإسلام، ورفضوا أن يعطوه الصدقات[١].

كان أهل الكوفة يتشكون من شرب واليهم للخمر، ويصلي بهم الصبح أربع ركعات بسبب سكره، ولا يقيم عليه عثمان الحد إلا بعد ضغوطات وشكاوى مستمرة من أهل الكوفة[٢]، وهو الذي تعهد بالتمسك بسيرة الشيخين، في حين لم يتردد عمر بإقامة الحد على ابنه بنفسه حتى يموت بين يديه[٣]، ألا يمثل هذا الموقف وحده عين الانحراف عند عثمان عن سيرة الخليفة عمر.

يضفي البعض كثيرًا من القداسة على الصحابة، ويخص بها الخلفاء الراشدين، مصدر القداسة هذه هي صحبتهم للنبي، ومكانة النبي تأتي من كونه رسول الله، والله نفسه يلعن من ينكث بالعهد، تعميمًا بدون استثناءات، فمن أحل لهم أن يستثنوا عثمان من أحكام الشريعة لا لشيء إلا لأنه صحابي، يتجاهل ويتحدى إرادة الله بتنصيب الوليد بن عقبة بن أبي معيط الفاسق كما جاء توصيفه بالقرآن، أميرًا أو واليًا على الكوفة، ويكرر فعلته بتعيين قريبه الآخر عبد الله بن سريح، واليًا على مصر، وهو الملعون بالقرآن والمبعد من المدينة بأمر رسول الله ﷺ[٤].

١- نفس المصدر، صك ٩٣.

٢- أبو الأعلى المودودي، مصدر سابق، ص:٢٨-٢٩.

- د. هشام جعيط، الفتنة، بيروت: دار الطليعة، بلا تاريخ، ص:٨٠.

٣- د.علي الوردي، مصدر سابق، ص: ٢٧.

٤- طه حسين، الفتنة الكبرى: عثمان، ص: ١٢٤

ينقل ابن تيمية في كتابه "السياسة الشرعية" حديثًا عن النبي ﷺ، نصه: "من قلد من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله"، والسؤال: هل تنطبق مواصفات الخيانة هذه على عثمان[1]؟.

لا يعترض أحد على ضرب عثمان لعبد الله بن مسعود حتى يكسر أضلاعه في المسجد وأمام الناس، لمجرد وصول وشاية فاسق على ابن مسعود بأنه كان ينتقد عثمان وانحرافاته عن سيرة الشيخين، ويقطع عثمان عن ابن مسعود عطاءه ويحتجزه في المدينة ويمنع عليه مغادرتها، وابن مسعود صحابي أيضًا فبأي حق يُضرب ويقطع عطاءه[2].. الإطلاع على القصة كاملة في (**طه حسين: عثمان – ص ١٦٠-١٦١**).

يعترض عمار بن ياسر على تصرف عثمان ببيت المال، فيأخذ منه جواهر تتحلى بها ابنته، ويعترض المسلمين (وجلهم من الصحابة)، فيخطب عثمان قائلاً "لناخذ حاجتنا من هذا الفئ وإن رغمت أنوف أقوام"، فيعترض عمار عليه بالقول: "أشهد الله أن أنفي أول راغم"، فيخاطبه عثمان: أعليّ يا ابن المتكأ تجترئ؟ خذوه، ودخل عليه عثمان وضربه حتى أغشي عليه، وخرج محمولا مغشيًا عليه[3].

فبأي حق يُضرب الصحابة من قبل صحابي آخر لا لشيء أو ذنب اقترفوه غير أنهم اعترضوا على انحرافاته عن سلوك ومسار الشيخين.

يعترض صحابي آخر على تكدس الأموال عند قلة من الصحابة وأقرباء عثمان، فيردد أبو ذر آية ٣٤ من سورة التوبة: "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ

١- أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، السياسة الشرعية، تحقيق أنور الباز، مصر – المنصورة: ٢٠٠٩، ص:٣٤.

٢- طه حسين، مصدر سابق، ص: ١٦٠-١٦١.. هشام جعيط، مصدر سابق، ص: ٧٦.

٣- طه حسين، الفتنة الكبرى: عثمان، ص:١٦٧

وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"، فيُمنع من قراءة القرآن ويُبعد ويعذب رغم أنه هو الآخر صحابي[1].

واضح جدًا أن قداستهم هذه ذات نزعة طبقية تميِّز بين فقراء الصحابة وأغنيائهم، تبرر للأغنياء منهم وتجار قريش كل أفعالهم تجاه فقراء الصحابة، لعل هذا دليل آخر يوضح كيف أن الفقهاء لا يمكن أن يمثلوا بعدل وحق أحكام الشريعة أو ما يسمونه حاكمية الله... ألا يحق القول: "إن عثمان، إذ صبَّ جام غضبه على عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر، بعد حدث نفي أبو ذر، إنما مزق أواصر التكافل التي كانت تربط بين الصحابة، وتطاول بشكل خطر على سابقتهم وحصانتهم وهالتهم كقادة وأئمة طبيعيين للمؤمنين، بذلك بالذات ينسف أُسس شرعيته[2]".

تلك هي المقدمات الخارجة على أخلاقيات الإسلام، وكرامة الصحابة ما جعل الباحث هشام جعيط يصل للنتيجة التالية، التي أؤيده عليها كليًا: "أن الإسلام نفسه هو المُشرع ضد عثمان، والإسلام هو الذي سيقتله، فمقتل عثمان انتصار كامل للإسلام المستبطن في الوجدان العربي، على مخلفات الجاهلية، المجسدة في فرع من قريش، الأمويين ورجلهم عثمان[3]".

إن تجريد الإمام أو الصحابي من طبيعته البشرية، هو تجريد اعتباطي لا يلغي حقيقة كونهم بشر بطبيعة إنسانية، مهما أضفيَ عليهم من سمات القداسة، حتى النبي نفسه لم يجرده الخالق من صفاته البشرية، خصه بالوحي وعصمه من الخطأ دون أن يجرده من خصائصه الإنسانية.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف: ١١٠)

١- نفس المصدر، ص: ١٦٣- ١٦٥.

٢- هشام جعيط، مصدر سابق نص: ٧٧.

٣- نفس المصدر، ص:٦٧.

نحن نعرف أنه ﷺ كان يأكل ويشرب ويتعطر ويحزن، أي أنه كان يجوع ويشعر بالشبع بعد الأكل ويعطش، أن يعصمه من الخطأ فهو القادر على كل شيء، ليس هناك ما يثبت أن العصمة تنتقل بالرفقة والصحبة، فعصمته من الخطأ استثناء من رب العالمين، ليس هناك من دليل شرعي أن العصمة يمكن أن تنتقل بالقرب، أو التفاعل أو العشرة، لا شك أن تأثرهم بالنبي يختلف من شخص لآخر حسب القدرات الشخصية، وفقًا للفروق الفردية بينهم واختلاف مستويات الذكاء، وحتى أثر التجربة الشخصية السابقة على إسلامهم.

إن البشر مختلفة أهوائهم، كما أثبتت العلوم الإنسانية المختلفة، ومهما قيل عن تقوى هذا الإنسان أو ذاك، يبقى الإنسان ومهما يمتلك من الذكاء فوق المعدل الطبيعي أو دونه، يخضع عادة لنزعات الحب والكره، والغضب والفرح يجوع ويعطش، يتأثر بالبرد والحر، وهو ليس مجرد من حب الدنيا وما فيها من حاجات أو لذات، حتى يمكن أن يقال إن حب الآخرة ليس بجوهره الا امتداد لحب الدنيا، فما وعد الله به عباده المؤمنين من لذات الجنة ما هي إلا لذات خبرناها بالدنيا بصورة فنتازيا مثالية، والإنسان محكوم ببيئته التي نشأ بها وما فيها من قيم وثقافة ومثل، تندس في عقله الباطن، وتشكل عنده منظومة من الأفكار النمطية والأحكام المسبقة التي تتحكم في سلوكه حيال الآخرين ومواقف الحياة عامة، تؤثر في إدراكه للأمور، يستوي بذلك البدوي وابن المدينة، من يعيش اليوم أو عاش قبل مئات السنين.

إن اختلاف الأئمة والصحابة بنفس اليوم الذي مات فيه النبي، بين أنصار ومهاجرين، انقسمت قناعات المهاجرين بمن هو الأحق بالخلافة، من يتساءل منهم من هو الأحق بالخلافة؛ أبو بكر أو علي، وإلا ما توزع المسلمين من بعدهم إلى شيعة وسنة، واختلف أئمة السُنَّة فيما بينهم من متمسك بنصية الحديث وقائل بالرأي، كما اختلف علماء الشيعة بين إخباريين يرفضون القول بالاجتهاد وأصوليين يرون في الاجتهاد طريقًا أفضل للتدين والنسك، بل ورغم

إقرارهم بوحدة النص القرآني إلا أنهم اختلفوا في تفسيره، ما يؤكد أنهم كانوا بشرًا مثلنا فرقهم الهوى، أو الاختلافات في القناعات، وطريقة إدراك كل منهم للنص القرآني، والسيرة النبوية، إنهم يقعون جميعًا تحت تأثير العوامل التي تؤثر في عملية الإدراك.

المشكلة أن جميع هذه الأطراف تدعي الفقاهة والقدرة على الاجتهاد، أي استنباط الحكم الشرعي الصحيح وتخطئة الرأي الآخر، إن التأمل الموضوعي الهادئ لموضوع الفقاهة يصل الإنسان إلى قناعة كونها في جوهرها نزعة إنسانية بخصائص فرعونية لمشاركة الخالق في التحكم بخلقه، إن "الشريعة كونها قانون أملته الإرادة الإلهية، لا يمكن لذلك السبب أن يعدلها أي مشروع بشري، سلطة البشر الوحيدة على الشريعة تنحصر في الاجتهاد الذي يتضمن تطبيق مبادئ الشريعة على الظروف المستجدة[1]".

حتى ابن تيمية أكثر الفقهاء تمسكًا بقدسية الصحابة، يقر باحتمالية أن يسقط بعضهم بالخطأ، كتب بذلك كراسًا أو كتيبًا بعنوان "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، يورد فيه الأسباب التي تقف وراء أخطائهم، لكنه مع ذلك يبرر لهم هذه الأخطاء على أنها حسنات، فيملأ جعبة من يميل إليه من الصحابة بآحاد الحسنات، مستندًا على الحديث النبوي: "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر"، ثم يعقب على الحديث: "فتبين أن المجتهد، مع خطئه، له أجر، وذلك لأجل اجتهاده، وخطأه مغفور له، لأن درك (يقصد إدراك) الصواب في جميع أعيان الأحكام، إما متعذر أو متعسر[2]".

١- مونتغمري وات، الفكر السياسي الإسلامي، ترجمة صبحي الحديدي، بيروت ك دار الحداثة، ١٩٨١، ص: ١٢٨.

٢- ابن تيمية، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٢.

يعرض المودودي اجتهاد ابن كثير على أن تحايل عمر بن العاص على أبو موسى الأشعري في قضية التحكيم على أنه ليس إلا اجتهاد خطأ[1]، والمجتهد يخطئ ويصيب، وله إن أصاب حسنتين وإن أخطأ حسنة، يعني أن الله سيجيز ويحسن إلى عمر بن العاص تحايله وكذبه على الصحابي أبو موسى الأشعري وبقية المسلمين، مع أن حيلة عمر بن العاص تسببت بشق عصى المسلمين وكانت فتنة قادت لقتل مئات الآلاف من المسلمين، وما زالوا يدفعون ثمنها بفتن ومعارك ودماء جارية إلى يومنا هذا، مع ذلك يرى بعض الطائفيين من شيوخ الإسلام، مثل ابن تيمية: إن عمر بن العاص صحابي، يجوز له على ما يبدو أن يخوض في دماء المسلمين.

الصحابة أو بعض الصحابة وليس جميعهم حسب هوى شيوخ الإسلام، يجوز لهم القتل، أو الفتنة، الكذب والتحايل فهم فوق الشريعة، يعلق أبو الأعلى المودودي على رأي بن كثير هذا، بعد أن يقر بضرورة احترام الصحابة وعدم التطاول أو التعدي عليهم"، لكن الأمر الذي لا يقل عن هذا تطاولاً وتعديًا هو محاولة اعتبار خطأ أحدهم إذا - أخطأ - اجتهادًا، لا لشيء إلا لأنه صحابي، وإن أصبح خطأ الكبار اجتهادًا نظرًا لعلو مكانتهم وعظم قدرهم فكيف لنا أن نمنع من يأتون بعدهم من ارتكاب مثل هذه الاجتهادات[2]".

يلوي ابن تيمية الوقائع، ويسرد الأحاديث بعد عصرها وتحريفها ليبرأ معاوية من صفة البغي كما ورد في الآية الكريمة: "وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (سورة الحجرات، الآية:٩)، يعتبر أن البغي لا يمس إيمان الإنسان، ليثبت أن معاوية مؤمن لا يُطعن بإيمانه بسبب خروجه أو قتاله للحاكم أو الخليفة الذي تمت مبايعته من قبل عموم المسلمين.

١- أبو الأعلى المودودي، مصدر سابق، ص: ٩٠.

٢- نفس المصدر، ص: ٩٠.

إن ابن تيمية فقيه نظرية "إن السلطان ظل الله في أرضه" ويكفر الخروج عليه[1]. كما يرى أن طاعة الخليفة أو الحاكم من طاعة الله ولو كان حاكمًا جائرًا. وهو أيضًا يرى في اجتهاد آخر أن البغي حرام عقوبته كما يروي هو ابن تيمية: "قازوق أو كما سماه لواء في استه يوم القيامة[2]"، إلا معاوية وعمرو بن العاص فهم من الصحابة المستثنين من أحكام الشريعة، في موقع آخر من نفس الكتاب يرى أن الباغي فاسق، "ولكن أهل السُنَّة متفقون على عدالة الصحابة[3]"، تلك هي حاكمية الله كما يتعامل معها الفقهاء تحلل وتشرع وفقًا لأهواء المشايخ من وعاظ السلاطين، وحسب هوى الحاكم أو السلطان طمعًا في كسب رضاه وما يجود به، ومن لا يقبل هذه التفاسير والشروح التي يريدنا الإرهابيين المتعصبين أن نلغي عقولنا ونأخذ بها فهو كافر، فاجر أو طائفي، رافضي، مرتد يستحق القتل.

من لا يوافق شيخ الإسلام ابن تيمية على تخريصاته فهو مشرك، كافر.. لم يترك ابن تيمية واحدة من الفرق الإسلامية إلا كفرها واتهمها بالشرك فكل من الخوارج، المعتزلة، الجهمية، علماء الكلام، الشيعة. كما لم يترك أحد من المجتهدين غيره، العلماء، الفلاسفة إلا وكفره، واتهمه بالإلحاد وشكك بإيمانه، كما هو واصل بن عطاء والغزالي، النوبختي والرازي، ابن عربي، ابن رشد والجرجاني، كلهم كفرة مشركون، ما داموا يقولون بما لا يقول به ابن تيمية[4]، فهؤلاء لا يعرفون ما يعرف ابن تيمية عن كون الشرك هو شركان أكبر وأصغر، والإيمان أنواع أصغر وأوسط وأكبر، وباطن وظاهر، وأن المعاصي ثلاثة مراتب، وغيرها من التخريصات.

١- ابن تيمية، السياسة الشرعية ن ص:١٦١.

٢- ابن تيمية، الخلافة والملك، الأردن – الزرقا: مكتبة المنار، ١٩٩٤، ص:١٠٦.

٣- نفس المصدر، ص: ٦٣.

٤- لاحظ على سبيل المثال كتابه: الإيمان، تحقيق وتخريج عصام الدين الصباطي، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٤.

إن مجرد التفكير ؛ أي استعمال العقل لمعرفة الحقائق العلمية تغدو حالات كفر وشرك محرم عنده، فهو يرى: "المتفلسفة أسوأ حالاً من اليهود والنصارى، فإنهم جمعوا بين جهل هؤلاء وضلالتهم وبين فجور هؤلاء وظلمهم، فصار فيهم من الجهل والظلم ما ليس في اليهود ولا النصارى، حيث جعلوا السعادة في مجرد أن يعلموا الحقائق، حتى يصير الإنسان عالمًا معقولاً مطابقًا للعالم الموجود[1]".

من الأمثلة الغريبة على تلاعب الصحابة بالشريعة وتفصيلها بالطريقة التي تتناسب مع مصالحهم وأهوائهم وغاياتهم، تفسير معاوية للحديث النبوي في أن عمار ستقتله الفرقة الباغية، فقال إن من قتله هو من جاء به إلى المعركة[2].

من يتحمل وزر الآلاف ممن قتلهم الوهابيون أو داعش اليوم، أم تراهم سيحسبون جرائمهم تلك من قبيل الاجتهادات الخاطئة التي لن يكسبوا منها غير أجر حسنة واحدة للرأس الواحد، من يدري أن لا يفكر الواحد منهم، وهو يحسب حسناته في أنه قد لا يكون جمع بعد، من آحاد الحسنات، ما يكفي لدخول الجنة والفوز بالحور العين وأنهار الخمر، ما يفرض عليه الاستمرار بالقتل من أجل جمع عدد أكبر من آحاد الحسنات تلك، بما يكفي للتكفير عن خطاياه والفوز بالجنة؟!.

لا شك أن منتسبي داعش سيتمسكون بأذيال أبو هريرة تفسيرًا وتطبيقًا لمعنى حاكمية الله التي تلزم المؤمن بها بضرورة الاقتداء بالصحابة، يغدو الكذب وسرقة أموال المسلمين فريضة إسلامية، فها هو الصحابي الجليل أبو هريرة يكذب ويسرق بشهادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأم المؤمنين عائشة، ولا يمس ذلك إيمانه عند الواعظين.

١- ابن تيمية، الإيمان الأوسط، الجزائر العاصمة: الشركة الجزائرية اللبنانية، ٢٠٠٦ ص: ١٢٧.

٢- ابن تيمية، الخلافة والملك، ص:٩٠.

يبقى القتل، كفريضة من فرائض حاكمية الله، أفتى به لهم شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي يرى جواز قتل تارك الصلاة "مع إسلامه، فإنه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية[1]".

تغدو حاكمية الله وفقًا لمصادرها التي يقول بها ابن تيمية، وابن عبد الوهاب، والمودودي وسيد قطب، قائمة على الأسس التالية:

- من لم يسرق ويكذب متيمناً بسيرة سيدنا الصحابي الجليل أبو هريرة فهو مشكوك بإيمانه، كافر، مشرك، رافضي.

- من لا يغزو قرى ومدن هؤلاء المسلمين المشركين ولا يقتل ويسرق أموال الأمة على سنة الله ورسوله، التي يمثلها وكيلهما على أرضه محمد بن عبد الوهاب بعد ما وجد الدين الصحيح عند أستاذه ابن تيمية، فهو كافر، مشرك بالله.

- من لا يُكَفر هؤلاء المسلمين المشركين عبدة قبور الأنبياء والأولياء، فهو كافر لا يحظى برضى ابن عبد الوهاب وشيخه ابن تيمية، ولا يدخل ببوتقة إيمانه لا الأصغر ولا الأكبر ولا حتى الأوسط.

دين طائفة منحرفين عن دين الله، مجانين، وجماعات محبطين يعانون من أزمات ونزعات نفسية يتداخل فيها عوامل السيكوباث مع النرجسية وإحساس عميق بالدونية، تتمركز حول ذوات مضخمة تعاني من "أنواتها" المريضة.

في مصر التقط صالح سرية أساسيات هذا الدين والإيمان وتوصل إلى أن:

"الإيمان إقرار بالجنان وتكلم باللسان وعمل بالأركان[2]"، ويبقى المعنى بقلب الشاعر، مع التشديد على أن يكون التكلم باللسان لا بغيره، تبعه محمد عبد السلام فرج الذي انتبه بفضل الإيمان الأوسط ولربما الأكبر أو الأصغر الذي

١- ابن تيمية، الإيمان الأوسط، ص: ١٥٧.

٢- د. رفعت سيد أحمد، تنظيمات الغضب الإسلامي في السبعينات، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩، ص: ٨٢.

اكتشفه عند ابن تيمية، فدعى للجهاد منبهًا المشركين من المسلمين إلى ضرورة مشاركتهم بهذه الفريضة: قتل المشركين من مسلمي مصر ، وسرقة الذهب والمجوهرات من محلات الأقباط.

عندما يفكر هذا المسلم الكافر المشرك المسلم بالتوبة، ويرغب بالعودة للدين الصحيح عند ابن تيمية وابن عبد الوهاب، لا تقبل توبته إلا أن يبدأ بمعرفة أصول الدين كما كتبها ابن تيمية في كتابه "رسالة أصول الدين"، نورد على سبيل المثال لا الحصر، هذه الأصول التي عرفها الاثنان ولم يعرفها غيرهم من مشركي المسلمين:

- "إن المسائل التي هي من أصول الدين، التي تستحق أن تسمى أصول الدين، أعني الدين الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه لا يجوز أن يُقال: لم تنقل عن النبي فيها كلام[1]".. ثم أين هي الأصول؟!.

لا يستبعد الإنسان أن ينبز وعاظ الإرهاب، من الشعوبيين من طلاب الفتنة بالقول: إن ابن تيمية أوجز بحديثه هذا ألف حديث نبوي، وآية من الكتاب الكريم، فهذه تخريصات لا يعرفها إلا الغارقون بالجهل، ثم يتوسع شيخ الإسلام في تفسير أصول الدين:

- "إن أصول الدين، أما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ويجب أن تذكر قولاً، أو تعمل عملاً كمسائل التوحيد، والصفات والقدر والنبوة أو دلائل هذه المسائل[2]".

على طريقتهم بالاجتهادات والتفقه، إن هذا التعريف الدقيق لأصول الدين يُثبت بما لا يقبل الجدل، انحراف صالح سرية عن جوهر الإيمان كما يراه شيخه ابن تيمية، في تعريفه أعلاه عندما يقول إن الإيمان هو "إقرار بالجنان وتكلم باللسان

١- ابن تيمية، رسالة أصول الدين، دراسة وتعليق يوسف اللبان، القاهرة: مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٥، ص: ١٠.

٢- نفس المصدر، ص: ١٦.

وعمل بالأركان"، إن ابن تيمية حدد بما لا يقبل أي تفسير آخر أركان الإيمان الإيمان ب "القول"، وليس بالتكلم باللسان كما يقول صالح سرية، لأن الببغاء مثلاً يمكن أن يتعلم الكلام ويردد "أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله" بلسانه، فهل يصبح بذلك مؤمنًا ولا يدخل النار يوم القيامة، بل تكون الجنة مثواه وسيتمتع بما فيها من حور العين، والولدان المخلدون، وأنهار الخمر، وعناقيد العنب وما إليه من أنعام الحياة الآخرة.

لذلك حدد شيخ الإسلام ابن تيمية الإيمان بـــ"القول" وليس "التكلم باللسان" لأن القول يرتبط بالإنسان فقط، وقديمًا قالت العرب "قال فلان" ولم تقل "تكلم فلان"، إني لأزعم في أني أستطيع أن أسرح بالقارئ على طريقة ابن تيمية وابن عبد الوهاب على عشرات الصفحات مستندًا ببعض الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية، وروايات منقوله عن الصحابة وبعض قدماء العرب، لنتوصل بالنهاية إلى إثبات انحراف صالح سرية عن أصول الدين وحتى تكفيره، حسب مزاجي.

يستمر ابن تيمية على تفسير قوله ويؤكد مصادر معرفته بأصول الدين التي ذكرها وأشبعها تعريفًا في أقواله أعلاه، فيؤكد:

- "إنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصًا عقله وسمعه، وله نصيب من قول أهل النار الذين قالوا (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير)، إن كان ذلك كثيرًا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة، وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة[1]".

والمعنى يبقى في قلب الشيخ! رغم أن ابن تيمية يتهم من لا يفهم معنى تخريصاته بنقص في العقل، والمعروف أن نقص العقل سواء كان جزئيًا أو كليًا فهو يندرج تحت مفهوم التخلف العقلي المرضي، ويُفترض أن نقص العقل يعفي الإنسان عن مسؤولية مواقفه وسلوكه.

١ – نفس المصدر، ص: ١٨.

ومن لم يفهم بعد معنى التوحيد يمكنه العودة إلى كتاب محمد بن عبد الوهاب "التوحيد الذي هو حق الله على العبيد" ليتعلم أن التوحيد هو اجتناب الشرك، يتجسد الشرك عند ابن عبد الوهاب بالأمور التالية: لبس الأحجبة والتعاويذ، النذر لغير الله، الغلو في الصالحين، الصلاة في قبر رجل صالح، التطير والتنجيم، عدم الصبر على قدر الله، سب الريح، سب الدهر، عدم معرفة الفرق بين الشفاعة الشرعية والشركية، الخروج على طاعة الحاكم ولو كان فاجرًا ظالمًا[١].. وأن يحذر الجاهل من قول "التوحيد فهمناه، إن هذا من أكبر الحمق ومكائد الشيطان[٢]".

"إن دراسة ابن عبد الوهاب، كصاحب عقيدة (بقراءة أشهر كتبه التوحيد مثلاً) فسيكتشف أنه مجرد ناسخ لا يمتلك أي ذرة تجديد، وهو ما لم يستحق معه أن يعتبر مفكرًا، فالكتاب الذي ذكرت محشو بالاستشهادات، وهو يبين أن كاتبه ناقل أكثر منه مبدع، وفي الكثير من الكراسات العديدة التي ألفها يتأكد لنا أن نفسه القصير لا يُكسب الإيجاز في التأليف صفات البلاغة[٣]".

انتبه وعاظ ابن عبد الوهاب لهذا العيب فيما يسمونه أمامهم المجدد، فراحوا ينشرون كتاباته بكتب بحروف كبيرة، مع حواشي وتعليقات طويلة، فهارس وغيرها، كي يمنحوا مقولاته صفة كتاب، للإيحاء بأنه كان صاحب فكر واجتهادات كبرى.

لو أخذنا كتابه كشف الشبهات، مثلاً، الذي نشره د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، تحت عنوان: "شرح كتاب كشف الشبهات" والذي جاء في ١٣٣ صفحة، هو في جوهره عند رفع المقدمة والفهارس والتعليقات قد لا يتجاوز

١- محمد بن عبد الوهاب، التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، الرياض: جامعة محمد بن سعود الإسلامية، بلا تاريخ.

٢- د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزاني، شرح كتاب كشف الشبهات، ص: ٤٤.

٣- عبد الوهاب المؤدب، أوهام الإسلام السياسي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٢، ص:٥٦

الـ ٦-٨ صفحات أو على الأكثر ١٠، لو رفعنا منها الاستشهادات لن يبقى أكثر من ٢-٣ صفحة، يكرِّر بها ابن عبد الوهاب نفسه مع إضافة روايات منقولة لا يمكن أن توصف إلا أنها تخريصات أو هذيانات رجل لا يدري ماذا يريد أن يقول، يستغبى الناس والجهال على أن ما يقوله تجديدًا[١].

هذا لا ينكر أن الرجل كان ذكيًا بمفاهيم المرحلة التي عاشها، استغل النزعة البدوية للغزو والنهب والسلب ليلبسها بلباس الجهاد في سبيل إحياء الدين، الغزو عند البدو وسيلة من وسائل العيش، وكسب الرزق، مع تعزيز روح الجريمة والقتل الجماعي غير المبرر عند إتباعه لأهالي القُرى التي يختارها لغزواته، ليرعب ويرهب القُرى الأخرى ما يسهل عليه فتحها أو استسلامها... يبدو أنه كان يوصي أتباعه من الهمج والمتخلفين بالتمادي بالقتل مستندًا للآية الكريمة: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُم)... فالإرهاب هو دين آل سعود الجديد الذي يريدون منه كسب مرضاة الله وغفرانه.

لم يكتفِ ابن عبد الوهاب بتكفير من يختلف معهم، بل بتكفير من لم يكفِّرهم أيضًا[٢]، بنزعة فرعونية غريبة تمثل لمن يتأمل بها التموضع الذي وضع نفسه فيه بمكان الخالق ومشاركته في علمه وأحكامه: "إني لا أعتقد كفر من كان عند الله مسلمًا، ولا إسلام من كان عنده كافرًا، بل أعتقد من عنده كافر كافر، وما صح عن العلماء من أنه لا يكفر أهل القبلة فمحمول على من لم يكن بدعته مكفرة، لأنهم اتفقت كلمتهم على تكفير من كانت بدعته مكفرة، ولا شك أن تكذيب رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه قطعًا كفر، والجهل في مثل ذلك ليس بعذر[٣].

١- لاحظ نص كتاب شرح الشبهات المذكور في الحاشية ٥٠ أعلاه.

٢- أحمد الكاتب، الفكر السياسي الوهابي، دار الشورى للدراسات والإعلام، ٢٠٠٣، ٣٠-٣٦

٣- نفس المصدر، ص: ٢٩.

نفس الكلام يكرره بالنص تقريبًا عبد العزيز آل سعود بعد ما يقارب القرن، في رسالته التي كتبها لوالي بغداد العثماني في أوائل القرن الماضي[1]، من أين لابن عبد الوهاب أن يعرف من هو الكافر ومن هو المسلم عند الله؟، أليس هذا هو الشرك بعينه أن يدعي أحد أنه يعرف ما عند الله، من بلغه بهذا، جبرائيل مثلاً أو أنه التقى الخالق؟.

ثم من هم هؤلاء العلماء، تلك لازمة تتكرر في كتابات ابن عبد الوهاب، ويعتبرها حجة على الآخرين، هو لا يذكر غير عالم واحد في كل تخريصاته إلا ابن تيمية، الذي أصبح علماء؟!

بمثل هذا النوع من فتاوى التوحيد، قُتل ويقتل يوميًا الآلاف من المسلمين، حتى لو كان هذا المسلم المشرك من أتباع محمد بن عبد الوهاب نفسه ممن يخرج على طاعة ولي الأمر عبد العزيز آل سعود، كما حصل لقبائل المطير وعجمان، نفس القبائل التي قادها فيصل الدويش ليفرض الوهابية على أهل نجد والحجاز، إلا أن فيصل هذا عاد فارتد على عبد العزيز، بعد أن اكتشف أن ما يقوم به من غزوات لا علاقة لها بالدين، معترضًا على علاقته مع الإنجليز فقُتل هو و٣ آلاف من أتباعه[2].

مازالت نفس الفتاوى تعتمدها داعش وأخواتها لقتل العرب المسلمين من كل الطوائف.

إن وُعَّاظ سلاطين آل سعود، وقد ألبسوا الدين ثوبًا خاصًا بهم، يفصِّلونه بما يتناسب مع مصالحهم ومصالح سلاطينهم وأولياء نعمتهم، وخصوا به أنفسهم دون سائر المسلمين، جاهزون للإفتاء بتكفير كل من يخالف الاتجاه السياسي العام للعائلة السعودية، أو من يعترض على بذخها وتبذيرها أموال المسلمين

١– نفس المصدر، ص: ٩٧–٩٨.

٢– ناصر السعيد، تاريخ آل سعود، منشورات اتحاد شعب الجزيرة العربية، ص: ٢٥٩ –٢٧٠.

بالحرام، أفتوا بكفر القذافى عندما انتقد سياساتهم الماضية تجاه تسوية القضية الفلسطينية: "القذافي كافر وملحد وضال ومُضل، فضلاً عن ظلمه وطغيانه بتجريحه عباد الله ورميه إياهم زورًا وبهتانًا بالصفات الذميمة مما لا يصدر عن عاقل يحترم نفسه وعقله وإنسانيته، ومع ذلك تجريح دُعاة الإسلام وعلمائه الذين قاموا بنصرة الدين والدعوة إليه وبذل نفوسهم, أموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله (ويقصدون أسرة آل سعود)[١]"، وقعها ١٥ من كبار هيئة العلماء.

كلما تصاعدت خلافاتهم السياسية مع أي طرف أو زعيم سياسي قالوا إنه يريد هدم الكعبة، عندما تصاعدت خلافاتهم مع إيران في زمن الخميني، أشاعوا أن الخميني يريد هدم الكعبة، ثم بعد غزو الكويت من قبل صدام حسين، قالوا إن صدام يريد هدم الكعبة، أوحوا لأحد الكتاب السلاطين لأن يصدر كتابًا بعنوان "امنعوا هذا الرجل من هدم الكعبة: صدام حسين[٢]"، وبداية هذا العام قالوا إن الحوثيين يريدون هدم الكعبة، وأن مضاداتهم الجوية أسقطت صاروخ موجه لهدم الكعبة.

إن متابعة اجتهادات فقهاء حاكمية الله، تكشف أنها ترتكز على مبادئ أساسية هي:

١: تحريم الخروج على الحاكم، مهما كان جائر أو ظالم، التقط ابن عبد الوهاب هذه الفكرة من ابن تيمية ليحصرها بالعائلة السعودية فقط دون غيرها. مع ذلك يخرج فقهاء الفتنة والإرهاب عن هذه القاعدة لنرى ونسمع يوميًا وعاظهم، يشجعون المؤمنين على الخروج على الحاكم في سوريا وليبيا واليمن باعتبار ذلك جهادًا يفتح لهم باب من أبواب الجنة، لكنهم يحرمون أنفسهم وأولادهم تواضعًا من هذه الفريضة.

١- د. أنور عبد الله، العلماء والعرش، لندن: مؤسسة الرافد للنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص: ٤٧٥.

٢- أحمد رائف، الكتاب الأسود: امنعوا هذا الرجل من هدم الكعبة – صدام حسين، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٠.

والدور الفلسفي الغريب والمتناقض الذي وقع به ابن تيمية معلم ابن عبد الوهاب هو أن الولاء لمن غَلب بالسيف، مَن يخرج على ولي الأمر، ظل الله في أرضه، كافر يموت ميتة جاهلية، لكن هذا الخارجي الكافر، الميت ميتة جاهلية، إذا تمكن من الانتصار على الحاكم أو على ظل الله، يصبح هو ظل الله الجديد الذي لا يجوز الخروج عليه؟!.

طبعًا لا تنطبق أحكام ابن تيمية هذه على خروج معاوية على خلافة علي، لأن معاوية صحابي، يجوز له في شريعة شيخ الإسلام ما لا يجوز لغيره من المسلمين؟!.

٢: هدم الآثار الإسلامية العربية في الجزيرة، بحجة أنها تمثل حالة شرك بالله، التي لا يمكن أن تفهم إلا نزوع شعوبي لمحو آثار الصحابة التي تؤشر إلى عظمة عبقريتهم التي تفتقت من قلب هذه الصحراء وذاك العيش البسيط لتدمر أعظم إمبراطوريتين في زمانهم.

٣: تقسيم وشق وحدة المسلمين العرب خاصة، ومشاغلتهم بحروب بينية، لإعاقة أي محاولات لوحدة العرب أو تحقيق التنمية والارتقاء لمستوى يتناسب مع أدوارهم التاريخية في بناء الحضارة.

ترجم عبد العزيز آل سعود هذه التوجهات بوضوح، عند محاولته إقناع أتباعه من آل مطير والعجمان الذين طالبوه بالذهاب للجهاد في فلسطين في بداية ثلاثينيات القرن الماضي: "نحن فلا علينا من وحدة البلدان العربية ولا علينا من فلسطين، لأن أهل فلسطين والبلدان العربية جميعهم من الكفار ولا يصلحون لنا وما دمنا نحارب كفار شمر وأهل حائل والحجاز وغيرها، فكيف بنا إذا جاءوا كفار فلسطين والشام والعراق وأهل المغرب والعياذ بالله[١]".

١- ناصر السعيد، مصدر سابق، ص: ٥٦٠.

لا يمثل هذا التوجه الشعوبي المعادي للعرب موقفًا خاص بالوهابية والعائلة السعودية ، بل هو يمثل خط عام يتحكم بتوجهات كل التيارات الإرهابية المتأسلمة ، كما لاحظ ذلك د. رفعت السعيد في كتابه "المتأسلمون: الإرهاب والفتنة الطائفية[1]"، مع أن العرب كانوا مادة الإسلام الأولى، بهم انتصر الإسلام وانتشر ، والله تعالى مجد اللغة العربية في أكثر من ٧ آيات، أما الآخر خاصة الإفرنجة من أهل الغرب فهم أحباب الله ووكلاءه الشرعيين على الأرض آل سعود، وخزانة أموالهم، ومعلميهم الجديرين بكل الاحترام والتقدير.

عند العودة لما يطالبنا به وعاظ وفقهاء حاكمية الله الرجوع له، وهو مصدرهم الأول لهذه الحاكمية، كتاب الله المجيد نقرأ: "وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)" **سورة الحج.**
"إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" **السجدة ٢٥.**

كما نكتشف أن الخالق جلَّ جلاله يستنكر على المصدر الثاني لفقهاء الحاكمية، نبيه محمد أن ينصب نفسه وكيلاً على العباد: { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦) } **الغاشية، الآية ٢١-٢٢.**

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ }
(الأنعام ١٠٧).

دون ما حاجة لمجتهد أو مفسر أو فقيه، واضح أن الله يحتفظ بحقه في تنفيذ أحكامه لنفسه هو فقط، يؤجلها إلى يوم القيامة، ولم يمنح توكيلاً لأحد حتى لنبيه محمد ليسيطر على العباد ويتحكم بهم، وإلا يبدو أن خلق الجنة والنار، حور العين مقابل توابيت النار ، عبثًا ولعبة تكرم تعالى عن العبث يريد أن يخدع ويضحك بها على عباده ليتبعوه.

١- د. رفعت السعيد، المتأسلمون: الإرهاب والفتنة الطائفية، القاهرة: الأهالي للنشر والتوزيع، ١٩٩٤، ص:٩٣ - ٩٨.

أما ما ورد في بعض من آياته الأخرى بمعنى حكمه وأحكامه فهي تتعلق بأمور خاصة ذات علاقة بزمنها يوم كان الإسلام وليدًا في طور الدعوة يناضل من أجل تأمين قاعدته في المدينة... ألا يعني الخروج أو التجاوز على حق الله الذي خص نفسه به، شركًا وكفرًا، وفرعونية جديدة، تتلبس بلباس الدين.

ألا يحق القول في أن كل من ابن تيمية، ابن عبد الوهاب، سيد قطب، داعش، وأمثالهم من القائلين بحاكمية الله ليسوا إلا نموذجًا من أولئك الذين وصفهم ابن الجوزي "إن إبليس تلبس عليهم بأن الفقه وحده هو علم الشرع... ومن ذلك إقدامهم على الفتوى وما بلغوا مرتبتها[١]".

فقاهة إبليس هذه تبدو واضحة في كل سطر من كتبهم التي لا تعرف من الدين غير دين: القتل، الحد، الكفر، الشرك، السيف، الجلد، وغيرها ما يعبر عن حقد الشيطان وحزبه أو شيعته على بقية المسلمين والبشرية جمعاء.

ليس فيها ذكر لرحمة الله وغفرانه، واسمه الرحمن الرحيم السلام، الغفور، الرؤوف، الكريم، وغيرها من صفاته الكريمة التي أرسل بها نبيه ليكون رحمة: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } (الأنبياء ١٠٧).

{ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } (الزلزلة: ٧)

{ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } (الشورى: ٢٥)

{ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ } (هود: ١١٤)

{ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ } (الانعام:١٠٨)

{ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (الاسراء:٥٣)

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (العنكبوت:٤٦)

---

١ – جمال الدين أبي الفرج أبن الجوزي البغدادي، تلبيس إبليس، بيروت: دار الفكر، ٢٠١٠، ص: ١٠٨.

{ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } (فصلت:٣٤)

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } (آل عمران:٦٤)

{ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت:٤٦)

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } (النساء ٤٨)

وغير ذلك من قيم التسامح، والمحبة، وينسون أن الله جميل ويحب الجمال في عباده خَلقًا وخُلقًا، يشوهون صورة الخالق، وجمالية دينه، ليعرضونه بصورة الجلاد، السادي الذي يتلذذ بتعذيب عباده وقتلهم، سياف لا رحمة عنده في قطع رقاب المسلمين المؤمنين بعفوه ومغفرته، وإحسانه.. فهل حقًا هم مسلمين أو مؤمنين بالله وكتابه ورسله.

بعد كل هذه الاختلافات في الرأي والاجتهادات؛ ليس بين الفرق المختلفة فقط، بل عند الفقيه الواحد الذي يتناقض مع نفسه في أحكامه، وبعد أن يسلبوا عقل المسلم العربي قبل غيره، ويشتتوه بتناقضاتهم واختلافاتهم، يعودوا بنا إلى مصدر جديد من مصادر حكم الله، الإجماع!.

مع أنهم أجمعوا على الفرقة وتفريق وتقسيم المسلمين، يمضون في دجلهم وهلاوسهم يريدون خداعنا على أن نياتهم هي خدمة الإسلام والمسلمين، بدلالة أنهم يشركون الأمة معهم في احتلال عرش الله والاعتلاء فوقه! مستندين في ذلك على حديث نبوي "لا تجتمع أمتي على ضلالة"، مع أنهم اختلفوا أيضًا على نص هذا الحديث ونقلوه بعدة أشكال أو نصوص.

يتصدى سيد قطب – واحد من أشد المتحمسين لشعار حاكمية الله – لموضوع الإجماع هذه، فيرى فيها شركًا بديل لحكم الخالق، لا فرق عنده بين أن يكون المقصود بالإجماع إجماع عامة المسلمين، أو أهل الحل والربط من الفقهاء الذين يسميهم بالمشايخ والدراويش،[1] حتى أنه يطلق عليهم صفة (المهابيل، والمهبولين) نتاج عهد الإقطاع[2]، وصنائع الاحتلال[3]، كما يرفض سيد قطب أن يكون إجماع عموم الجماهير، كتمثيل لحكم الله، فهو يرى بالإجماع (إخضاع الإسلام ومبادئه ونظمه لشهوات الجماهير العارضة، ونزواتها الطارئة، تملقًا للجماهير)[4].

قبل أن يندفع قطب بصرعة التكفير التي عرضها في كتابه "معالم في الطريق"، سنعود لمناقشتها، هو يرفض أيضًا الالتزام بسيرة الصحابة أو الاقتداء بهم كمصدر من مصادر حكم الله، إن اجتهادات "الصحابة مثل أبو بكر وعمر وعلي وابن عباس وابن عمر ومن إليهم" وأقوالهم أو تفاسيرهم للدين جاءت "تلبية للحاجات الواقعة حينذاك" [5]، هي لا تلبي مطالب النسخة الحديثة أو المجددة من حاكمية الله عند قطب، كما يرفض "التعقيدات الفقهية التي جاءت في العصور المتأخرة، والتي تشيع اليأس في رواد الشريعة الإسلامية عن طريق هذا الفقه المعقد، لأنهم يحسبونه أصل من أصول الشريعة، لا تتاح لإنسان معرفة الإسلام إلا بدراسته، على حين أن الأحكام الفقهية لا تزيد على أن تكون محاولات بشرية لتفسير تلك الشريعة وتطبيقاتها تفسيرًا وتطبيقًا

١– سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية، : ٦٩.

٢– نفس المصدر، ص: ٧٥.

٣– نفس المصدر، ص: ٦٣.

٤– نفس المصدر، ص: ٦٨.

٥– سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٠، ص:٥٢.

صالحًا لفترة معينة من الزمان ومستمدًا من روح هذه الفترة وتصوراتها للحياة[1]".

لا دور للإجماع ولا السلف الصالح أو من تلاهم من الفقهاء في نسخته المجددة هذه، إنه يعتمد في أغلب كتاباته السابقة على معالم الطريق على مجموع الحلول الفردية، التي تتشكل بفعل الفطرة، تلك ملاحظة لم ينتبه لها الكثير ممن درسوا سيد قطب.

تشكل الفطرة، رغم أنه لم يتوقف عندها قليلاً ليعرفها، الأساس الأولي للإيمان الذي سيلزم الإنسان بالتمسك بأحكام الله، يكاد لا يخلو كتاب من كتاباته من الحديث عن أثر الفطرة في تشكل الإيمان، ويتكرر ذكرها أحيانًا بالصفحة الواحدة مرتين أو أكثر، حاولت مرة أن أحسب عدد تكراراتها في كتابه "هذا الدين"، وصلت إلى عدد ٥١ مرة ثم ضيعت الرقم، رغم أنه كان قد خصص في الكتاب فصلاً كاملاً بعنوان رصيد الفطرة[2]، إلا أنها بقيت دون تعريف محدد واضح، كما يستوجب ذلك أساسيات مناهج البحث، لمن يطرح أفكار جديدة، أو فكرة رئيسية ذات دور فاعل في بحثه.

عند تأمل كل ما كتبه قطب، بتجرد من الحالة الانفعالية التي يثيرها بكتاباته، مع أو ضد، سيجد الإنسان نفسه أمام كاتب صحفي يجيد فن التحريض والإثارة إجادة مميزة، تحسب له... حتى كتابه "معالم في الطريق"، يسوق فيه مصطلحات مثل "لا عبودية إلا لله، عبودية البشر للبشر، مجتمع حركي، أن يتفرد الإنسان بخصائصه العليا، فطرة الله، التصور الاعتقادي، التجمع العضوي"، وغيرها من مصطلحات وشعارات غامضة توحي للقارئ المستعجل أنها حكمة، أو رأي مميز، تلك خاصية من خصائص التحريض والكتابات الدعائية، يترك للقارئ حرية ترجمتها وتفسيرها.

١- نفس المصدر، ص: ٧٥.

٢- سيد قطب، هذا الدين، بيروت: دار الشروق، ١٩٧٩، ص: ٥١-٦٥.

نورد بعض النصوص من كتابه "معالم في الطريق" ، علَّ وعسى أن نجد من يستطيع فك طلاسمها ، بلغة صريحة مفهومة:

"إن التصور الإسلامي للألوهية ، وللوجود الكوني وللحياة وللإنسان ؛ تصور شامل كامل ، وهو يكره بطبيعته أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي لأن هذا يخالف طبيعته وغاياته ، ويجب أن يتماثل في أناس وفي تنظيم حي ، وفي حركة واقعية[1]".

"نحن لا نملك أن نصل إلى التصور الرباني كذلك ، المنهج الذي أراد الله أن يقيم منهج تفكير الناس على أساسه ، ليصبح تصورهم الاعتقادي وتكوينهم الحيوي[2]".

يكفر كل المجتمعات ويتهمها بالجاهلية ، يدعو إلى تكوين أو تشكيل تجمع عضوي حركي إسلامي ، بقيادة مستقلة عن قيادة المجتمع العبودي أو الجاهلي ، يتولى عملية نقل هذه المجتمعات الجاهلية إلى عبودية الله وحده والإقرار بحاكميته[3] ، دون أن يقدم أي برنامج واضح لهذا التجمع الحركي الإسلامي غير ما أشرنا له من مصطلحات يشحنها بشحنات عاطفية تدغدغ مشاعر بعض من المستلبة عقولهم.

بعد أن كان ينكر صلاحية اجتهادات السابقين حتى لو كانوا من الصحابة المقربين ، عاد يحسب لتراكمات ما أسماه بـــ"الفقه المعقد" دورها ، فالقيادة الجديدة "المتمثلة في رسول ﷺ الله ومن بعده في كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوانينه وحاكميته وسلطانه وشريعته[4]".

١- سيد قطب، معالم في الطريق، بيروت: دار الشروق، ٢٠٠٨، ص: ٤٦.

٢- نفس المصدر، ص: ٤٧-٤٨.

٣- نفس المصدر، ص: ٥٧.

٤- نفس المصدر، ص: ٥٦.

هذه القيادة أو التجمع الحركي الإسلامي لا تشبه تلك التي ظهرت في التاريخ الروماني أو البريطاني وغيرها من تجمعات الحقد الأسود كما أسماها قطب؛ التي كانت تقوم أساسًا على إبراز "الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار أن المطالب الأساسية للإنسان هي الطعام والمسكن والجنس وهي مطالب الحيوان الأولية، باعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام!! (علامات التعجب هذه وضعها قطب على النص.. لست أنا)، لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني[1]"، واضح أن المسلم الجديد العائد لدين قطب، إنسان – شكل غير وليس غير شكل – لا يأكل ولا يشرب ولا يسكن ولا يلبس، عليه أن يتفرغ حتى الموت لفك ألغاز دين سيد قطب الجديد.

السؤال: أليس هذا انتحارًا؟ والانتحار في الإسلام محرَّم... ثم أليست هذه المطالب الحيوانية هي من صنع الخالق في الإنسان، وهو من زرع فينا تلك الغرائز الحيوانية، فهل يُفهم من قول سيد قطب على أنه اعتراض على خلق (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)، والله تعالى اسمه يؤكد ويخبرنا: كيف نحرر الإنسان من عبودية الإنسان ونعيده إلى عبودية الله وسلطانه وحده، أو بمصطلحات سيد قطب: "كيف تبدأ عملية البعث الإسلامي؟" ويجيب هو نفسه: "أنه لابد من طليعة تعزم هذه العزيمة وتمضي في الطريق، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا[2]"، أو بتعابير أخرى، ينشأ: "من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك[3]"، ما هو الأساس أو المنهج أو النظرية التي يتم بها هذا الانتقال، يرفض قطب أي حديث عن هذا المنهج أو النظرية لأنه يعتقد أن ذلك

١- نفس المصدر، ص: ٦٠.

٢- نفس المصدر، ص: ١١.

٣- نفس المصدر، ص: ٩٧.

تمييع لدعوته في العودة لدينه أو إسلامه الجديد، المهم "أن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، من التجمع الحركي الجاهلي"[١].

لفهم هذا الخطاب الذي لا يخلو من سمات الهلوسة، لابد أن نتابع قطب إلى الفصل ما قبل الأخير المعنون "استعلاء الإيمان" الذي يفسر لنا الحالة النفسية التي تشكل الأرضية الخصبة لمثل هذه الأفكار التي طرحها قطب في فصول كتابه الأولى، كتب قطب كتابه هذا وهو في السجن، أي أنه كان يعاني من حالة شديدة من الشعور بالظلم أو القمع والاضطهاد، لعل بعض من تعرضوا للسجون الانفرادية شعروا بها، حيث تتفاعل الذكريات مع أحلام اليقظة ممتزجة بهلاوس يستعلي بها الإنسان، أو يحاول لا شعوريًا أن ينتصر بها على إحساسه الحاد بالاضطهاد، كما وصفه قطب نفسه "القوي ينظر من أعلى إلى القوى الطاغية والقيم السائدة،....، والجماهير المتجمعة على الضلال"، "ليواجه الوهن كما يواجه الحزن، هما الشعوران المباشران اللذان يساورا النفس في هذا المقام[٢]".

إنه استعلاء العارف بالحقيقة ليرى العالم من تحته "أشبه شيء بمحاولات الأطفال وخيط العميان[٣]"، ليحقق بذلك التوازن النفسي في لحظة من لحظات ضغط الشعور القوي بالاضطهاد ليقول لهم من الأعلى "إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون[٤]"، محققًا بذلك الانتصار على ضعفه وخوفه وألمه، فهو ليس وحده بل الملأ الأعلى (سكان السماء الخالق والملائكة) يشاركه لتحقيق هذا الانتصار[٥].

١- نفس المصدر، ص: ٥٦.

٢- نفس المصدر، ص: ١٨٠.

٣- نفس المصدر، ص: ١٨١.

٤- نفس المصدر، ص: ١٨٥.

٥- نفس المصدر، ص: ١٩٢.

في لُجّة هذه المشاعر والهلاوس، يستفيق قطب؛ ربما على نداء شرطي أو وقع أقدامه، قاطعًا عليه معاركه الكبرى، ليعود إلى طبيعته وعقله قائلاً: "إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال، مدبر هذا الكون[1] "، لا تجمع حركي إسلامي، ولا قيادة مستقلة، ولا عبودية، ولا تصور اعتقادي، ولا غيرها من الهرطقات، كل شيء بيد الله وقدره، لا يملك قطب أو أي سجين عندها إلا أن "يسير مع دورة القدر في استسلام واطمئنان[2]".. لا يمتلك بعدها إلا أن يسأل: "لماذا يا رب يقع كل هذا".

هذه ليست هي المرة الأولى التي يبحث فيها سيد قطب، في عز الإحساس بالضعف، عن القوة في تخيلاته وهلاوسه: "هذا اللقي الضائع، يملك في لحظة أن يتصل بقوة الأزل والأبد، أن يمتد طولاً وعرضًا في ذلك الكون الهائل، ......، يملك أن يستمد قوته من تلك القوة الكبرى التي لا تنضب، ولا تنحسر ولا تضعف، إنه لقادر إذًا على مواجهة الحياة، والأحداث والأشياء بمثل قوتها، فما هو باللقي الضائع، ولا الفرد العاجز[3]".. أي أن تدينه من ذلك النوع الذي يلجأ له الإنسان كحاجة سيكولوجية يريد بها الهروب به من ضعفه.

حاكمية الله الشيعية:

لم يكن فقهاء الشيعة استثناءً، ولا هم يمتلكون حصانة أو عصمة يمكن أن تمنعهم، أو تبعدهم عن مثل هذه التطلعات الفرعونية في أن يتقاسموا مع الله حاكميته، كما هم إخوانهم من فقهاء بقية المذاهب، ظل الاتجاه السائد بين مجتهديهم هو الرضى بدور الفقيه بحدود القول بما يطلقون عليه "الولاية الخاصة"، دور الفقيه الذي لا يجاريه أحد في فهم الشريعة، ما يكفي لمنحه قوة

١- نفس المصدر، ص: ١٩٨.

٢- نفس المصدر، ص: ١٩٩.

٣- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، بيروت: دار الشروق، ١٩٧٩، ص:٥.

لا يستهان بها على ملايين العقول المغيبة، ما يضمن له ولأولادهم من بعده عيشًا آمنًا مستقرًا برفاهية وأرصدة بنكية تكفي لمواجهة طوارئ الحياة الدنيا عند الأزمات التي تهدد مكانتهم.

إن هذه المكاسب التي تمنحها الفقاهة لم تستوعب على ما يبدو نزعات الخميني للسيطرة والقيادة، والتطلع لمشاركة الباري في حكمه أو تحكمه بالبشرية، فجعل رضاه من رضى الله، وجد في الحديث المنسوب للإمام الصادق كجواب لأحد أتباعه عن جواز أو عدم جواز العودة للسلطان أو والي القضاة في أمر تنازع عليه اثنان من أتباعه، فكان رأي الإمام "من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإنما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنما يأخذه سحتًا، حتى إن كان حقًا ثابتًا له لأنه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به"، ورأي الإمام أن على المتخاصمين أن "ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكمًا فإني قد جعلته عليكم حاكمًا[١]".

وحديث آخر للإمام الصادق: "إياكم إذا وقعت بينكم خصومة أو تدارى في شيء من الأخذ والعطاء أن تحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفساق، اجعلوا بينكم رجلاً قد عرف حلالنا وحرامنا، فإني قد جعلته عليكم قاضيًا، وإياكم أن يخاصم بعضكم بعضًا إلى السلطان الجائر[٢].

وواحد آخر عن الإمام الغائب: "وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا؛ فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله" ص:٧٧، يعلق الخميني على الحديث "حجة الله تعني أن الإمام مرجع للناس في جميع الأمور، والله قد عينه... كذلك

---

١ – روح الله الخميني، الحكومة الإسلامية، نشرة لا تشير إلى دار نشر أو تاريخ، ص:٨٦-٨٧.

٢ – نفس المصدر، ص:٨٤.

الفقهاء فهم مراجع الأمة وقادتها، فحجة الله هو الذي عينه الله للقيام بأمور المسلمين فتكون أقواله وأفعاله حجة على المسلمين، ولا يسمح بالتخلف عنها[1]".

الفقيه عنده هو ممثل الله أو ظله على الأرض (طبعًا يقصد بالفقيه نفسه هو وحده)، "إن الراد على الفقيه كالراد على الإمام، والراد على الإمام كالراد على النبي، والراد على النبي كالراد على الله، وهو حد الشرك"، سُلم بسيط بثلاث درجات فقط ليعتلي الخميني على عرش الله!.

على تلك الأحاديث المنسوبة لأئمة آل البيت يبني الخميني نظريته في ولاية الفقيه العامة، بعد أن دعمهما بأحاديث نبوية من قبيل: "العلماء ورثة الأنبياء" و"الفقهاء أمناء الرسل".

ناقش الفقيه الشيعي اللبناني محمد جواد مغنية تجربة الخميني في كتابه "الخميني والدولة الإسلامية" لينقض فقهيًا كل إدعاء الخميني بالأحقية في أن يُنصب نفسه على رأس الدولة الإيرانية، فهو يرى مثلاً أن أحاديث الإمام الصادق هي من قبيل "حصر القضاء والإفتاء بالمجتهد، وهذا شيء والدولة ورئاستها شيء آخر.. وإلا لم يكن هو (الإمام الصادق) ولا أحد من شيعته بقادر على التنفيذ[2]".

نقلاً عن بقية فقهاء الشيعة؛ ليس هناك من "دليل على وجوب طاعة الفقيه كالإمام"، أما الأحاديث النبوية "بعد ملاحظة سياقها أو صدرها أو ذيلها، يقتضي الجزم بها في مقام البيان لوظيفة الفقهاء من حيث نشر الأحكام الشرعية، لا كون الفقهاء كالنبي والأئمة صلوات الله عليهم في كونهم أولى في أموال الناس[3]".

---

١ – نفس المصدر، ص:٧٨.

٢ – محمد جواد مغنية، الخميني والدولة الإسلامية، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص:٧٠

٣ – نفس المصدر، ص:٦٢.

إلا أن تجربة الخميني تختلف عن التجارب الأخرى أنه لم يكفر الناس أجمعين، وجد في الاتجاه الشعبي العام الرافض للهيمنة الأمريكية ما يكفي كسبب لأن يتخذ من التهمة بالعمالة لأمريكا من القوة التي تمكنه للانتصار على معارضيه وأعداءه، لا تقل عن قوة الاتهام بالكفر والشرك عند فقهاء السُنَّة الآخرين، بهذه الطريقة أسقط فعلاً مناهضيه من الفقهاء الآخرين مثل "شريعتمداري" أقوى الفقهاء المطالبين بضرورة أن يظل الفقيه بعيدًا عن السياسة، وأن يعطي الأمة حقها في اختيار حكامها، كما تمكن من عزل نخبة المثقفين الإسلاميين الذين تنسجم تطلعاتهم مع أطروحات "شريعتمداري"، من أمثال الحسن بني صدر.. نفس الأمر تحقق له في إبعاد نائبه الشيخ منتظري الذي كان يطالب بإيقاف الحرب العراقية – الإيرانية. لكن الخميني كسر أصول لعبته في ولاية الفقيه، وتجاوز على قواعد وأعراف الاجتهاد عند الشيعة باختياره نائبه الجديد علي خامئني، الذي لم يكن وقتها قد بلغ درجة الاجتهاد، إلا أن الخميني أصر على ترشيحه لخامئني ومنحه درجة الاجتهاد بطريقة أو بدعة خرج بها على كل قواعد الاجتهاد في الفقه الشيعي، بأن أجرى لخامئني مناظرة تلفزيونية ليمنحه درجة الاجتهاد، ورغم فشل خامئني وتلكؤه في الإجابة على الكثير من أسئلة الخميني، إلا أنه أصر على منحه درجة الاجتهاد من على شاشات التلفزيون بعد انتهاء المناظرة. حتى لو أن خاميني كان قد نجح بالمناظرة، فأصول الفقه الشيعي لا تسمح له تعيين خامئني مع وجود من هو أعلم منه من المجتهدين... يناقض الخميني بهذه السلوكيات نظريته التي قال بها، فهو يرى أن الفقهاء متساوون بالدرجة "إن ولاية الفقيه على الفقهاء الآخرين لا تكون بحيث يستطيع عزلهم أو نصبهم، لأن الفقهاء في الولاية متساوون من ناحية الأهلية[١]"!

منحه صدام الفرصة لمشاغلة الشعب الإيراني بالحرب ليصفي كافة قوى المعارضة اليسارية، فدائي خلق، ومجاهدي خلق وغيرهم ممن لا تنطبق عليهم

---

١ – الخميني، مصدر سابق، ص: ٥١.

تهمة العمالة لأمريكا، فأطلق عليهم مصطلح المنافقين الذين أغضبوا الله بغضب وليه الفقيه بمعارضتهم، حجة الله أو وكيله في أرضه.

بنفس طريقة اللعب امتص الخميني مظاهر الإحباط والجزع، بوقف الحرب العراقية – الإيرانية قبل الوصول للقدس، فمنحه الحظ فرصة نشر سليمان رشدي لكتابه "آيات شيطانية"، ليحول الأنظار بمشاغلة الناس بسليمان رشدي، بإصداره الفتوى بمقتل سليمان، من يدري لعل الله ألهمه ذلك رأفة بكاتب مغمور "سليمان رشدي" ليتحول وبأقل من أسبوع إلى أشهر كُتَّاب العالم.

مهما قيل أو يقال، تظل هذه النزعات أكثر حدة للسيطرة والاستئثار بالتحكم بالبشر، مما هو معروف في علم النفس عن الدوافع الغريزية للسيطرة والتحكم عند بعض الناس، وتصل إلى حد الفرعونية الجديدة، التركيز بتأمل وهدوء لأطروحاتها لا يجد الإنسان أي أثر لتقوى الله ومخافة من غضبه في كل تلك الأطروحات، فالثلاثة الأوائل ابن تيمية، ابن عبد الوهاب، سيد قطب؛ لا يرضيهم في المؤمن أو المسلم الشهادة "أن لا إله إلا الله ومحمدًا رسول الله"، سواء كان ملتزمًا بالفرائض أو لا، ليكتمل إيمانه ويحظى برضاهم، ما لم يُسلم كليًا بتخريصاتهم وهلاوسهم ويلغي عقله وإنسانيته ويتبعهم كما تتبع الأغنام راعيها (كما يقول ابن تيمية)، أما قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) [النساء:٤٨]، يبدو إما أنهم يرون هذه الآية مدسوسة على الكتاب الكريم، أو أنها تخريصة من تخريصات رب العالمين (جل ذكره) يريدون بتخريصاتهم وهلاوسهم تصحيحها بقتل المسلمين وتخريب ديارهم ونهب أموالهم!.

الفصل السابع

الطائفية في الوطن العربي

تعريفها وأسباب ظهورها ، قراءة في المنهج

ملاحظات نقدية للحلقة النقاشية: "الطائفية والمذهبية وآثارهما السياسية"، شارك فيها أنطوان ضو وآخرون؛ قدم الحلقة وأدار الحوار يوسف الصواني، المستقبل العربي، السنة ٣٥، العدد ٤٠٨ (شباط/ فبراير ٢٠١٣)، ص ١٢- ٦٩.

-١-

قدَّم مركز دراسات الوحدة العربية عبر تاريخه الطويل، ثروة من الدراسات والبحوث في معالجة الكثير من القضايا والمشكلات التي تتعرض لها الأمة العربية بمختلف أوطانها، يكفي بعض هذه الدراسات، لو توفرت الإرادة عند صاحب القرار العربي، لأن تشكل أرضية لحل جميع المشكلات المتعلقة بالتنمية وحيازة القوة، وتحقيق الاستقلال الفعلي، والتحرر من التبعية، بل وتحقيق الأمن الوطني والسلم الاجتماعي، لذلك جاءت الحلقة النقاشية لموضوع (الطائفية والمذهبية وآثارهما السياسية) دون مستوى كل الندوات التي عودنا عليها المركز لقضايا أقل أهمية وخطورة من قضية الطائفية.

فمن قراءة الأوراق المقدمة يكشف القارئ أن ورقة "سليمان تقي الدين" هي المحاولة الجادة الوحيدة التي تميل إلى الاقتراب من المشكلة، أما ورقة "أنطوان مسرة"، ورغم أنها معنونة (ما معنى الطائفية وكيف ندرسها اليوم)، فهي لا تقدم تعريفاً بالمشكلة، ولا بالمنهج العلمي السليم لدراستها.

البحث الآخر والرئيسي الذي قدَّمه "فالح عبد الجبار"؛ يعكس حالة تيه منهجي في معالجة الظاهرة، رغم محاولة الكاتب إضفاء صفة أكاديمية على مقاله من خلال إشاراته المتكررة إلى مصطلحي (الدراسات الأكاديمية) ، و(العالم الأكاديمي)؛ للإيحاء بخضوع الدراسة لمناهج البحث العلمي، إلا أنَ القارئ سرعان ما يلاحظ أن الكاتب ضاع أو تاه في مناهج غربية غريبة لا تُضفي أية معرفة موضوعية جديدة للظاهرة، بل دخل في متاهات تجعل من العصي على القارئ فهم الظاهرة.

ينطلق الكاتب من فكرة اختارها لتكون مدخل إلى مقاله، ولتعطي القارئ الانطباع بأن الكاتب كان قد اطلع على كل الدراسات التي عالجت مشكلة الطائفية، خصوصًا تلك التي صدرت باللغة الإنجليزية في الغرب، لينتقد ندرة أو انعدام مثل هذه الدراسات في الوطن العربي.

تستوقفنا الملاحظة على حقيقتين : إن مراجعة الدراسات التي ذكرها الكاتب لا علاقة لأغلبها بالحالة العربية، باستثناء ما ورد منها تحت عنوان (مراجع الحالات العربية والدول الإسلامية)، وهي لا تعكس أيضًا حقيقة ما كتب عن المشكلة باللغة الانجليزية، والسؤال هنا أو الملاحظة المهمة هي أن الكاتب ينطلق من واقعة تعكس عدم معرفته كليًا بمئات الدراسات التي صدرت باللغة العربية لمناقشة موضوع (الطائفية) في الوطن العربي، والعراق خاصة، سواء نظرنا إليها بوصفها ظاهرة معزولة عن توجهات الإسلام السياسي أو كمرحلة من مراحل تطور الإسلام السياسي الذي بدأ يتخذ في السنوات الأخيرة تمايز واختلاف داخلي، على أساس التفسيرات الفقهيّة المختلفة للشريعة الإسلامية، مصحوبة بشحنات تعصبية عدوانية في كثير من الأحيان.

وإذا أخذنا بطريقة عبد الجبار الذي أدرج تحت عنوان (مراجع عامة) (لا دخل في الحقيقة لأكثرها بالحالة العربية)، ويعود تاريخ بعضها إلى أعوام ١٨٠٦، و١٨٣٥، و١٨٣٧، و١٨٥٤، فإنه يسمح لنا بذكر ما كتبه جورج أنطونيوس

عام ١٩٣٧ في كتابه يقظة العرب عن توجهات السلطان عبد الحميد وخططه لإذكاء الطائفية ومشاغلة الرعايا العرب بالخلافات الطائفية البينية، لمنع ظهور حركة قومية عربية تهدد دولته، والكتاب مكتوب في الأصل بالانجليزية، وصادر في زمن أحدث من المصادر التي أوردها عبد الجبار.

وحول ما كتب بالعربية، وما يخص الحالة العراقية؛ لا يمكن تجاوز ما كتبه الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء بالعربية في المقدمات السبع لكتابه أصل الشيعة وأصولها، المنشور عام ١٩٥٧، وما كتبه الشيخ أحمد الوائلي في كتابه هوية التشيع، إضافة إلى كتابات ومعالجات علي الوردي المنتشرة على امتداد مؤلفاته العديدة.

ومن الصعب حصر ما كتب بالعربية عن الطائفية بمقال محدد، وأمامي الآن في مكتبتي المتواضعة أكثر من ٧٠ دراسة تعالج أو تناقش مشكلة الطائفية كظاهرة مستقلة قائمة بذاتها أو امتداد وشكل من أشكال تطور الإسلام السياسي، أي كجزء من ظاهرة التدين أو ما يسمى (الصحوة الدينية).

وقد شارك مركز دراسات الوحدة العربية نفسه بنشر الكثير من الدراسات عن الظاهرة ضمن ندواته وحواراته ومناقشات مجموعة من الباحثين، نشرت تحت عنوان الدين في المجتمع العربي عام ١٩٩٠، والكتاب يضم الكثير من الدراسات العلمية والملتزمة بمناهج علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، كذلك هناك دراسة كتبها عبد الحكيم أبو النور، ونشرها المركز بعنوان الحركات السلفية في المغرب عام ٢٠٠٩.

-٢-

وفي ما يتعلق بالظاهرة في العراق، كتب موسى الحسيني ساطع الحصري والخطاب الطائفي الجديد عام ٢٠٠٠، وعام ٢٠٠٦ ناقش الظاهرة من خلال كتابه "المقاومة العراقية والإرهاب الأمريكي المضاد"، وهناك دراسة أخرى

بعنوان "المرجعية الشيعية والسياسة في العراق" نشرت في حلقات بجريدة القدس العربي في شهر حزيران/ يونيو ٢٠٠٦.

كما ناقش أحمد الكاتب الموضوع في عدة كتب، وخصص لها كتاب خاص نشره بعنوان: (السنة والشيعة: وحدة الدين) (عام ٢٠٠٧)، وكتب رشيد خيون (لاهوت السياسة: الأحزاب الدينية المعاصرة في العراق عام ٢٠١٠)، كما كتب فاضل الأنصاري: "قصة الطوائف: الإسلام بين المذهبية والطائفية عام ٢٠٠٠".

إضافة إلى أن هناك عشرات أو مئات أخرى من الدراسات التي قدمها باحثون وكتّاب من مصر ولبنان وأقطار عربية أخرى، فضلاً عن الدراسات العديدة التي ما فتئت تنشرها المجلات العلمية المتخصصة عن موضوعات علاقة الدين بالسياسة والطائفية كامتداد لها..

تعكس الكتابات المنشورة باللغة العربية تجربة شخصية مباشرة لمن كتبوا عن الموضوع، كما عايشوه أو تفهموه وتفاعلوا معه، وقد يكون بعضها مشحون بشحنات عاطفية تسيطر على موقف هذا الكاتب أو ذاك الموضوع، إلا أنها تعكس في النهاية تجربة تعايش من قرب ومن الداخل بقوة وتفاصيل كثيرة، تنفع في فهم الظاهرة أكثر من أية دراسة أجنبية.

وحتى مع الإقرار ببساطة المناهج التي اعتمدها بعض الكتاب العرب؛ فإنّها تعكس تجربة تفاعل فيها الكاتب مع الظاهرة، وانفعل بنتائجها ملامسًا حتّى في حالة انحيازه، جوهرها، بينما ينظر إليها الكاتب الأجنبي من منظور صلتها أو مساسها بالمصلحة القومية لبلده من دون أن يعيشها من الداخل، وقد يتجرد أحيانًا من الموضوعية في تحليلها.

يدخل الكاتب، كما قلنا، من مدخل جانبي أو من البوابة الخطأ، من خلال تيهه في تعريف الظاهرة بسبب اندهاشه بالدراسات الأجنبية، على ما يبدو، يبدأ الكاتب بتعريف الطائفية بعبارة: (يتفق العالم الأكاديمي على أن الهويات الدينية الجزئية (الطائفية) تقوم على عدة ركائز)، ولم يخبرنا بحاشية على الأقل من هو هذا العالم، ولو جزء منه، أو حتّى اسم باحث واحد فقط، ثم نراه يحشر قسرًا مصطلحات لا علاقة مباشرة لها بالتعريف؛ مثل: (الأمة الدولة)، (الهويات الاجتماعية)، (الطبقات القبائل)، ليدخل القارئ في فوضى من المفاهيم التي تحتاج كل منها إلى وقفة خاصة لنعرف على الأقل ما هي علاقتها بالمفهوم المقصود تعريفه.

وثالثة الأثافي في تيه الكاتب وضياعه في تعريف الطائفية هو ما أورده من نص غريب ومبهم عن علاقة القبيلة والطبقات بالطائفية، فيقول: (وثالثهما أن الهويات الدينية الجزئية تنشطر بتأثير التنظيمات الاجتماعية (قبائل وطبقات)، أو هي التي تشطر هذه التنظيمات، وبغض النظر عن هذه اللغة الانشطارية العجيبة التي تكون فيها الطائفية عامل انشطار، وربما عاملاً منشطرًا أيضًا خاضعًا لتأثير الطبقات والقبائل في وقت واحد، فأين هو الصحيح لنعرف ماهية الطائفية وطبيعتها؟.

هذا مع أن الكاتب كان قبل سطر واحد فقط وخلال محاولته تعريف الطائفية، وفقًا لما وافق عليه العالم الأكاديمي لتعريف الحالة، وثانيتهما تسييس هذه الهوية كوحدة للفعل الجمعي كبديل من الهويات الاجتماعية (الطبقات)، أي أن الهوية الطائفية البديل من الهوية الطبقية في ثانيًا، تتحول إلى عامل تابع قابل للانشطار بفعل الطبقات في ثالثًا، أي أن القارئ يقع في متاهة ما يشبه حالة الدور الفلسفي، فالطائفية كبديل من القبلية والطبقات تعود إلى الخضوع ثانية لعاملي الطبقات والقبلية، فتتأثر بهما، بما ينفي صفة البديل منها.

الطائفة ببساطة وبعيدًا عما اتفق عليه "العالم الأكاديمي للكاتب"؛ هي ميل فردي أو اجتماعي إلى تفضيل تفسير محدد أو مدرسة فقهيّة محددة لدين أو مذهب على غيرها من الأديان أو المذاهب، يأخذ بتأثير ظروف اقتصادية سياسية، صفة تعصبية تتداخل مع مفهوم اعتبار الذات في تفضيل أبناء المذهب نفسه أو الدين نفسه على غيرهم من المنتمين إلى مذاهب أو أديان أخرى.

وقد تتصاعد هذه الميول أحيانًا إلى حد تتخذ فيه أشكال عدوانية تجاه المذاهب أو الأديان الأخرى، ويكون هناك ميل إلى النبذ والرفض وحتى العزلة عن الآخرين، أي هي نتاج تفاعل عوامل سياسية اقتصادية اجتماعية ذات مساس مباشر بحياة الفرد اليومية، امتزجت مع تهديدات أمنية للهوية الثقافية للمجتمع، لتشكل توجهات اجتماعية تعصبية نحو الآخرين الذين يختلف معهم الطائفي في تفسير الشريعة أو المعتقدات الدينية.

ويبدو أن الكاتب لم يقتنع بما قدمه من تعريف للطائفية، لذلك وقع في خلط واضح للكثير من المفاهيم عن الدولة السلالية التي يجب تمييزها من الدولة الحديثة التي ركز الكاتب على أن فشلها كان نتيجة عدم ترضية حاجات الإنسان العربي، فالدولة السلالية كما يرى: (وهي بلدان سلالات ترتكز على الدين، وهي بالتالي مولدة للانقسام الطائفي) (ص ١٥)، في محاولة لتمييزها عن (الدولة الحديثة التي تتسم بشرعية دستورية أو شرعية ثورية ذاتية، فهذه الأخيرة هي المصابة بلوثة الإحياء للهويات الجزئية) (ص ١٥).

لكن القارئ لم يعِ ما هو الفرق بين (توليد الانقسام الطائفي) في الدولة السلالية، و(لوثة الإحياء للهويات الجزئية في الدولة الحديثة) كي يعرف أدوار كل من أشكال هذه الدول في ظهور الطائفية بوضوح في السنوات العشر الأخيرة بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣، رغم أن الكاتب يقر في مكان آخر بأن الطائفية لم تبلغ مدى هائل من التسيس والعسكرة إلا بعد الاحتلال الأمريكي، (ص ٢٢). لكن دور هذا الاحتلال يختفي كليًا عن الصورة في جميع الأبعاد والمنابع

والدول السلالية، أو الأمة الدولة وغيرها من المصطلحات التي تبدو وكأن الكاتب أراد أن يخبئ خلفها عدم معرفته الأكاديمية بالموضوع.

هذه الإشارة إلى الاحتلال كانت الإشارة اليتيمة الوحيدة إلى أي أثر لعامل خارجي يمكن أن يكون قد أدى دورًا في إذكاء روح الطائفية الظاهرة كما يصفها الكاتب، هي نتاج عوامل وظروف محلية تراثية ثقافية اقتصادية، إدارية أمنية، كما لا تبتعد أيضًا من حقل التعليم، والحقل السياسي والأيديولوجي وحتى المواطنة، ولم يترك عبد الجبار ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية إلا وأدرجها، كي يضفي على تشكل الطائفية وظهورها بهذا الشكل العدواني المسلح، عوامل محلية ذاتية خالصة تعود إلى ما سماها (المنابع الكامنة لتسييس الهويات الطائفية)، نعني مصادر تحويل هذه الأخيرة من هويات ثقافية صرفة إلى هويات أيديولوجية تحل محل الأيديولوجيات الحديثة في الفضاء السياسي الفكري العربي وخارجه أيضًا، ثم يردفها مباشرة برفض أن يكون تحديد هذه المنابع الكامنة للتسييس يفسر هذا التسييس بالمرة، فهذا التسييس ظاهرة حديثة تمامًا (ص ٢١)، وهذا النهج هو أسلوب الكاتب بالقول بالشيء وضده.

-٤-

لا يدري القارئ لماذا يصر عبد الجبار على تفسير الطائفية على أساس منابع لا تفسرها، كما يقر وهو لم يحاول البحث في الأسباب الحقيقية، وأي منهج أكاديمي بإمكانه تبرير ذلك؟! كما لم يوضح الكاتب لماذا بدأت هذه المنابع، وهو يؤكد وجودها على امتداد التاريخ، بإعطاء ما نراه من نتائج تفشي الطائفية بصيغتها العنفية العدوانية التي نراها عليها الآن، فما دامت هذه المنابع موجودة لماذا لم تظهر نتائجها في القرن الماضي، أو حتى في فترة ما قبل احتلال العراق عام ٢٠٠٣؟.

التناقض غير المفهوم نفسه يقع فيه الكاتب مباشرة في الفقرة التالية لموضوع المنابع، فهو يرى أنه ينبغي أن تتمحور منهجية دراسة الطائفة المسيّسة حول الدولة كفاعل أساسي لجهة وظائفها وسياساتها وتوجهاتها، لكنه يعود مباشرة في الفقرة التالية ليتكلم على قدرة الدولة على نقض وتجاوز واحتواء كل القوى الجزئية، ويتوصل في النهاية إلى القول نحن نرى كما أشرنا، أنَ الطائفية كحدود ثقافية للجماعات كانت سابقة لنشوء الدولة الحديثة، أي عادت الدولة الحديثة لتحوز على صك براءتها من أن تكون سبب لظهور الطائفية السياسية بعد أن كانت هكذا على امتداد الصفحات الثماني الماضية، هي السبب الأساسي في ظهور لوثة (الإحياء للهويات الجزئية) (ص ١٥)، إلا إذا كان الكاتب قد عاد عن اعتبار الطائفية من الهويات الجزئية التي حددها خلال تعريفه للطائفية.

إن الأمثلة على القول بالشيء وضده كثيرة، وتكاد تصادف القارئ في كل صفحة من النص... نكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه اختصارًا للحديث بقدر ما تسمح به مساحات النشر.

إن الطائفية كظاهرة اجتماعية وحركة سياسية لا يمكن عزلها بأي شكل من الأشكال عن موجة التدين أو التأسلم، أي استخدام الدين في السياسة لتحقيق أغراض دنيوية لا دخل لها بالدين أو حسابات الآخرة، فهي حالة تدين تتمسك بتفسير مدرسة فقهية واحدة للدين، بوصفه التفسير الوحيد المعبر عن الشريعة أو تعاليم الدين وأساسيات تعاليمه، وأن كل ما عدا هذا الالتزام الأحادي بمذهب أو دين محدد يمكن أن يندرج تحت مفهوم الخروج على الدين أو الشريعة عندما تكون هوية جزئية.

يصف عبد الجبار (الطائفية) بأنها هويات دينية جزئية، أي أن الدين هو الأصل بما يعني أنه لا يمكن مناقشة الطائفية كهوية جزئية بفصلها عن الأصل، ونعني بذلك موجة التدين أو التوجهات الدينية التي غزت الساحة العربية، فهي؛ أي الطائفية، جزء من الظاهرة الأم أو الأكبر، ظاهر التدين التي راحت تتطور بفعل عدة عوامل أدت إلى تمسك الطائفيين بتفسير أحادي من الاجتهادات المذهبية، بوصفها تمثل حالات انحراف عن جوهر الدين.

أي أن الطائفية يجب أن تدرس على أنها جزء من ظاهرة التدين، اتخذت خلال تطورها مظهر تعصبي عدواني، فهي ميل أو توجه اتخذ صفة اجتماعية ليعبّر عن أزمة يعيشها المجتمع، ومعرفة أسبابها ومظاهرها لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال دراسة مناهج علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع، عن تشكل وشيوع ما يعرف بالميول أو التوجهات الاجتماعية، ولماذا تتخذ أحيانًا أشكالاً تعصبية تميل إلى العدوانية أو النزوع إلى عزل الآخر أو الانعزال عنه.

هناك الكثير من التفسيرات التي وإن ركزت على الجانب السياسي أو الاقتصادي في أسباب الأزمة؛ إلا أنها لا تخفي انعكاسات هذه العوامل على سيكولوجيا الإنسان العربي.. لذلك لا أزعم الانفراد باكتشافها أو القول بالأسباب النفسية كعامل أساسي لظهور الميول أو التوجهات الدينية بهذا الحجم الواسع، وهو ما سبق أن بحثته في دراسة لنيل شهادة الدبلوم العالي في علم النفس الاجتماعي، في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية، تحت عنوان: (الأسباب النفسية للثورة الدينية في الشرق الأوسط)، التي توصلت من خلالها إلى أن أهم تفسير لشيوع الظاهرة الدينية يجب البحث عنه في تراكم مشاعر العجز والإحساس بالضعف والفشل والإحباط والخوف، أو انعدام الشعور بالأمن التي بدأت تضفي بظلالها على المواطن العربي بعد نكسة حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

رغم أن عبد الناصر بلاءاته الثلاث وإصراره على المضي بالحرب إلى نهايتها حتّى تحقيق النصر ؛ تمكن من تهدئة هذه المشاعر خلال السنوات الثلاث الأخيرة من عمره، لكنه لم يلغها أو يطمئنها كليًا ، فكانت تظهر نتائجها في التظاهرات الاحتجاجية لطلاب جامعة القاهرة عام ١٩٦٨ ، وظهور بدايات الحديث عن: لماذا تخلى الخالق عن نصرة المسلمين، وقد برزت هذه المشاعر وما تبعها من تساؤلات لتضغط بشدة بعد نجاح السادات والغرب في تحويل نتائج الانتصار المحدود في حرب ١٩٧٣ إلى سلوك مهزوم يريد الاتفاق مع العدو وإرضائه بأي صورة وأي ثمن، فكان أن بدأ الانتصار العربي المحدود يظهر بصورة الهزيمة أمام عدو حقق كل ما يتطلع إليه من تنازلات من دون مقابل.

تميل سيكولوجية الإحباط المتفاعلة بعوامل الإحساس بالعجز والفشل والضعف والخوف إلى التشبث بالآمال التي يمكن أن يقدمها إليها أي حدث يعزز الآمال باحتمال التخلص من ضغط الحالات السيكولوجية هذه ، وتحقيق التوازن والاستقرار النفسي ، فكانت الآمال التي تشكلت بنجاح الثورة الإسلامية في إيران كبيرة بحجم تفاعلات الخيبة العربية ، فتجاوز التأييد والتهليل بالثورة الإيرانية كل الخلافات المذهبية ، وراح الإسلاميون العرب يتوافدون على طهران لإعلان الوفاء والالتزام بمبادئ الثورة والدعم المطلق لها..

ولم يطل الوقت لتتكسر هذه الآمال بطريقة إحباطات جديدة قوية، هذه المرة مع اندلاع الحرب العراقية الإيرانية ، وانشغال أكبر وأقوى دولة إسلامية بالحرب مع أقوى دولة عربية ، ثم جاءت ثالثة الأثافي في حرب الكويت بنتائجها الكارثية، ليس فقط على أقوى دولة عربية كانت محط آمال وأنظار الكثير من العرب ، بل لتقضي على المفهوم البائس لما عُرف بالتضامن العربي ، انتهاءً بحرب احتلال العراق عام ٢٠٠٣.

رافق كل هذه التطورات ما ظهر في الحياة اليومية من تطبيقات حرب النجوم، ووسائل الاتصال والتواصل التي بدأت تظهر في الحياة اليومية للمواطن، ليجد العربي نفسه وهو يتفرج ويطلع على حجم التقدم العلمي والتكنولوجي ، ومستويات الرفاهية التي تعيشها شعوب العالم، إنه يقف عاريًا على هامش الحياة في أسفل سلم التخلف والضعف والتبعية والحرمان أيضًا.

يتفق علماء النفس الاجتماعي على أن الحرمان النسبي هو أحد أهم عوامل الهياج والثورات الشعبية (سنعود إلى أثر الحرمان النسبي وأثره في حالات الثورة والهياج الاجتماعي)، لكن قبل ذلك سنجيب عن السؤال التالي: ما علاقة عوامل الإحباط ومشاعر العجز والضعف بالتدين؟ من الملاحظ أن الإنسان عند مواجهة أية مشكلة معقدة يفشل في حلها، أو عند تعرضه لرغبة محبطة؛ يبحث عادة عن أي قوة أو قدرة يمكن أن تعينه على تجاوز فشله والتغلب على ضعفه وخوفه، وعادة ما يلجأ إلى الأهل والأقارب أو المعارف والأصدقاء للاستعانة بهم، وعندما لا يجد العون؛ تبدأ منظومة الميكانيزمات الدفاعية السيكولوجية اللاشعورية للإنسان بدفعه إلى واحد من ثلاثة مواقف أو استجابات.. إن وظيفة ما يعرف بـــ (الميكانيزمات الدفاعية اللاشعورية) هي أنها تساهم عادة في تخفيف ضغط المشعر التي تتشكل بفعل عوامل الإحباط والفشل والعجز والضعف، ومشاعر الخوف أو تهديد الأمن النفسي الداخلي للإنسان:

• يبدأ بالتفكير في القدرات الروحية الخارقة، وذكر الله وعلاقته بالإنسان العربي لم تنقطع يومًا، مهما تبنى من أفكار أو توجهات علمانية، هو يسمع يوميًا من خلال الراديو والتليفزيون ومكبرات الصوت في المساجد، وحتى من الناس في أحاديثهم العامة عن الله (القادر، القوي، العظيم، المعين) الذي ليس لمثل قدرته شيء، يتوجه الإنسان عادة إلى هذه القدرة اللامتناهية للخالق يتوسله بالدعاء ثم العبادة، لا كاكتشاف جديد لقدرات الخالق أو إيمان تشكل بفعل قناعة

وتفكير جديدين، بل كحاجة واضطرار، في ما يشبه محاولة لخداع الخالق لأخذ ما عنده من قدرة وعظمة للتغلب بها على عوامل الإحباط والاستقواء بها على عوامل الضعف والانتصار على الفشل والعجز.

والملاحظ في سلوك هؤلاء المتدينين أنهم وإن كانوا صادقين خاضعين في توسلاتهم وعباداتهم للخالق إلا أنهم في الغالب يتصرفون من دون حساب للخوف من الخالق في تعاملاتهم اليومية، فالعبادة هنا هي حاجة دنيوية وليست إيمان ورغبة بالآخرة، فهي ثمن بديل مقابل كسب قدرة الخالق أو استعارتها لقضاء حاجات لا يمكن إيجاد سبل أخرى إلى قضائها أو تحقيقها.. أي أنهم بقدر ما هم صادقين بما يعرف بالعبادات، فإنهم لا يحسبون حساب للخالق في تعاملاتهم العامة أو ما يعرف بالمعاملات.

التعبد بالطريقة السابقة أو التدين الجديد له وظيفة سيكولوجية أخرى هنا، إذ أنه يضفي نوعًا من الهدوء والاستقرار والتخلص من مشاعر العجز والضعف من خلال التسليم أن ما يعانيه الإنسان ليس ناتجًا من عوامل ضعف ذاتية خاصة به بل بفعل إرادة إلهية قد يكون فيها خير أو صالح لا يفهمها الإنسان، فيعيد الإنسان المؤمن الانسجام مع نفسه، وتتعزز لديه قيم اعتبار الذات.

• قد يبدأ المحبط بحسب مستواه التعليمي وما اندس في عقله من أفكار نمطية مسبقة ما يدفعه إلى البحث عن حل لمشكلاته في السحر والشعوذة، والبحث عن القوى الخارقة الأخرى البديلة من الخالق التي تمنحه القدرة على التغلب على عوامل الإحباط والفشل... ربما لا يكون عفويًا أن المؤسسات المعنية بشؤون الوطن العربي والقوى التي لها مصالح فيه هي من يقف وراء التخطيط لشيوع كتب السحر والشعوذة، والترويج للسحر والمشعوذين الذين بدأ ظهورهم يحتل ساعات طويلة من البث التليفزيوني، حتى على محطات تحسب بحساب الاتزان من أجل تشويش العقل العربي وتعطيله، وتجريده من عوامل قوته وإدراكاته وملكاته الطبيعية.

• هناك اتجاه ثالث، ربما لا تكون عند المحبط خلفيات قوية (فكرية أو تربوية) تشده إلى هذه القوى الروحية أو الخالق القادر، القوي، المسيطر، الذي بيده كل شيء، فنراه بدلاً من اللجوء إلى الدين والسحر يلجأ إلى عالم أحلام اليقظة ليشكل منها حياة غريبة من أحلام القوة والقدرة والانتصار على الأزمات والإحباطات... إن أحلام اليقظة يمكن أن تخلق حالة تشوش عقله أيضًا، وتحرمه من التفكير المنطقي، مادامت هذه الأحلام تحقق له التوازن مع ضغوطات عوامل الإحباط ومشاعر العجز والضعف، وتكون هذه الأحلام أحيانًا من القوة بحيث تمتزج بواقع الإنسان إلى حد لا يستطيع معه الفرز بين الحلم والواقع.

إلا أن الإنسان بحكم قابلية التأثر بالإيحاء عندما تكثر وتتعدد مصادره، فهو يتأثر بتوجهات الآخرين نحو الدين أو السحر والشعوذة أكثر من أحلام اليقظة، وأحيانًا تتداخل هذه الأشكال الثلاثة جميعًا لتحقق للإنسان هدوءه واتزانه.

- ٧ -

بالعودة إلى ما ذكرناه سابقًا عن تطور وسائل الاتصال والتواصل، وما تصنعه من عوامل الإحساس بالحرمان النسبي، سواء كان ذلك بتخطيط مدروس أو هو شعار ارتجالي برز ليجسد الآثار السيكولوجية لحالة الحرمان النسبي، إذ بدأنا نسمع بعد حرب الكويت عن موضوع (مظلومية الشيعة في العراق)، كنموذج لبيئة وقعت تحت تأثير الهواجس الطائفية، كشعار بديل من الثورة الإسلامية، بعد أن تخلى المجلس الأعلى عن هدف أو شعار الحكومة الإسلامية والقبول بمشاركة أية قوى أخرى على أساس الخلاص من هذه المظلومية يوضح التدقيق في الشعار أن المظلومية هي هم دنيوي لا علاقة لها بالدين، فالمظلومية تؤكد دعوى حرمان الشيعة من المشاركة في الوظائف الحكومية الكبرى والحكم عامة، وما يعنيه ذلك من امتيازات ومكاسب... إنه

مؤشر خطير يشير إلى عزل الطائفة عن أصول الدين وأساسياته، والابتعاد عن هموم الآخرة، والتركيز على الامتيازات ومظاهر الترف الدنيوية.

في مجرى الحديث عن تحول (الطائفية) إلى وظيفة دنيوية لا دخل لها بالدين الذي نعرف أنه يرتكز على العمل في الدنيا لكسب رضا الخالق، وما يحققه هذا الرضا من مكافأة بالجنة في الآخرة، قدم متأسلمو العراق بطرفيهم (الشيعي والسني) من خلال تعاملهم مع الاحتلال الذي كان إلى حد الأمس القريب يمثل الشيطان الأكبر، مثالاً نموذجيًا على أن الطرفين لا يحسبان للآخرة أي حساب، فهما مشغولان بتحقيق منافع ومصالح دنيوية (حصة في وظائف الدولة، وأموال الدولة ومشاريعها وخدماتها في الأماكن المختلفة الخاصة بكل طائفة)، على حساب ما كانوا يقولون به من ضرورة (الحفاظ على بيضة الإسلام)، تلك البيضة التي دفعت مجتهدي الشيعة في العراق إلى أن يفتوا بواجب الجهاد في ليبيا ضد الغزو الإيطالي لها عام ١٩٠٨، ويقودوا حركة الجهاد ضد الاحتلال البريطاني دفاعًا عن الدولة العثمانية التي تختلف عنهم مذهبيًا، بل تمارس سلوكيات طائفية ضدهم أحيانًا، إلا أن احتلال العراق وأفغانستان لم يثر الاهتمام نفسه عند المرجعية ولا التجمعات الدينية بالمستوى نفسه.

• يستطيع أن يحكم الإنسان، هل ذلك هو نتيجة تخطيط مسبق ومعد مقدمًا، أو هو تأثر بالحالة العامة وانعكاس لها، أن تتحول المرجعيات الدينية أيضًا إلى مؤسسات برجوازية في السلوك والمظهر، وتتركز فتاويها حول أمور دنيوية صرفة لا علاقة لها بالشريعة ولا الدين، فيفتي السيستاني بضرورة الاقتصاد باستعمال الكهرباء غير الموجودة أصلاً، وبحماية الحدود من الإرهابيين، والتعاون مع الاحتلال، ويلغي من رسالته الدينية وفتاويه بند الجهاد نهائيًا، ويعيش وأبناؤه وأصهاره في بذخ غير معهود عن المرجعية الزاهدة.

ويفتي القرضاوي بالتعامل مع (الناتو) للقضاء على أنظمة محسوبة على قوى الرفض، كما أصبحت الأموال العامة الموضوعة كأمانة عند المرجع تورث مع

كل الامتيازات الأخرى لأبنائه، من دون حساب لما هو شائع من تحريم لأكل أموال السحت، تركزت فتاوى أنصاف الفقهاء حول الجنس والمرأة، وكأن ليس هناك من هموم أخرى في الحياة والدين غيرهما، وتخصص بعضهم بتكفير الآخر، والبحث في مصادر التاريخ عن رواية ضعيفة هنا أو قصة هناك، لتغدو وكأنها هي مشكلة المشاكل بالنسبة إلى الإنسان العربي.. لقد أصبحت الجمعيات والمراكز الإسلامية وبناء المساجد تجارة مربحة، وأفضل الوسائل لتحسين العيش والمركز الاجتماعي، من دون اعتبار للآخرة وعذاباتها، أو متع الجنة المتوقعة فيها.

إن كل هذه المظاهر تعني أن (الطائفية) ليست موقفًا دينيًا أو التزامًا بتشريع فقهي معين وتفضيله على ما سواه، كما كنا نعهدها، بل هي دعاوي دينية تمَّ تطويرها وتحريفها لتشكل غطاء زهدي وروحي على مطامع ورغبات دنيوية لا علاقة لها برضا الله أو الدنيا الآخرة، أي أن الظاهرة يجب أن ينظر إليها وتعالج كحا?ت إحباط وفشل ومشاعر إحساس بالضعف والفشل، ولا يمكن فهمها خارج إطار مناهج علمَّي الاجتماع والنفس الاجتماعي بالذات.

- ٨ -

هناك عامل آخر لا يمكن إهماله أدى دورًا أساسيًا كعامل مثير ومهيج للتوجهات الطائفية، على الأقل في الجانب الشيعي في العراق، فمن القواعد القانونية أو الإدارية المتبعة هي أن يعفى عادة الطلاب المستمرون في الدراسة من الخدمة العسكرية، ويسقط هذا الحق عند الرسوب لسنتين متتاليتين، حيث يرفض القانون متابعة الطالب دراسته بعدها في المدارس الرسمية..

فقد وجد الطلاب الفاشلون ممن نفدت فرصهم في المدارس الحكومية ملجأ لهم في المدارس الدينية التي تقوم بتسجيلهم فيها مقابل أقساط زهيدة، ما يسمح لهم بأن يرتدوا زي رجال الدين ولبس العمامة للتخلص من متابعات الشرطة

العسكرية، وقد تفاقمت الظاهرة خلال الحرب العراقية الإيرانية، فوجد الإنسان نفسه أمام كم هائل وطبقة جديدة من رجال الدين، طارئة ولا علاقة لها بالدين، عدا أنها محكومة بالجهل عامة، وهي لا تشبه ما عرفته المؤسسة الدينية الشيعية من رجال دين وعلماء شكلوا علامات مميزة في الفقه والشريعة والتقوى والورع والإيمان قبل ظهور مشكلة التجنيد الإجباري.

إن هذه الفئة أو الطبقة من رجال الدين تدرك أكثر من غيرها كما يعرف المطلعون من أبناء الطائفة؛ أن علاقتها بالدين هي علاقة مصلحية خالصة لمجموعات من الفاشلين والمهمّشين الذين لا يجيدون عمل حرفة أو مهنة، فكانت الشعوذة والدجل أدواتهم للارتزاق، وما كان لهم أن ينتعشوا من دون تنامي مشاعر الطائفية التي تؤسس على العزلة ونبذ الآخر، لكنها تعزز أيضًا الواقع الاجتماعي وتوفر الكسب المادي لهذا المهمش، ليغدو هو مصدر معرفة الناس بدينهم.

إن الفئة من رجال الدين تعرف أكثر من غيرها كيف أنها تنتمي في الأصل إلى فئات اجتماعية مهمّشة، وهذا ما يعزز لديها لا شعوريًا مستوى متدنيًا مما يعرف باعتبار أو تقدير الذات، لذلك يغدو التعصب الطائفي بالنسبة إلى هؤلاء هو البيئة الفضلى لتعزيز مشاعر أرقى من اعتبار الذات، وتحسين نظرة الناس إليهم ونظرتهم عن أنفسهم.

يقابل ذلك أن أغلب طلاب كليات الشريعة لا ينتسبون إليها باختيارهم، بل بضغط تدني معدلاتهم في الثانوية العامة التي تحرمهم من دخول كليات يميل الطلاب عادة إلى دخولها لضمان مصادر اقتصادية جيدة للعيش ومكانة اجتماعية مميزة، كالطب والهندسة والحقوق وغيرها من الكليات الأخرى.

وكما هو رجل الدين الشيعي؛ تغدو الطائفية لهؤلاء المشايخ وسيلة لتحقيق ما يشعرون به من حرمان اضطرهم تدني مستواهم الدراسي إلى فقدانهم إياها،

ولا يمكن تعويضها إلا ضمن مؤسسات طائفية مزدهرة ومسندة بتعاطف جماهيري واسع.

لو أخذنا بمفهوم (المنابع) التي قال به الكاتب فالح عبد الجبار؛ فتلك هي المنابع الحقيقية للطائفية التي لا شك في أنها ليست ببعيدة من إدراك الغرب ومراكز بحوثه ودراساته، وهو المحكوم بمعاداة الحركات القومية العربية، وحتى اليسارية الماركسية التي مثلت تهديدًا لمصالحه في الوطن العربي، وأربكت خططه في فترة الخمسينيات، وحتى أواخر السبعينيات من القرن الماضي، فراح يعزز مشاعر الإحباط والإحساس بالعجز والفشل، ويجند طاقاته العلمية والإعلامية للتلاعب بالعقول وتوجيهها بما يخدم أغراضه، تارة بالتدخل العسكري المباشر لفرض خطط تقسيمية، مستغلاً الطائفية ليدعم مؤسساتها، ويروّج لها من خلال مجموعات من تابعين مدربين لهذا الغرض.

وقد كشفت دراسة سبق أن نشرتها مجلة المستقبل العربي تحت عنوان: (تبّت أياديهم.. إنهم يقتلون الشيعة على الهوية) كيف كانت بعض من الحركات الدينية الشيعية تقوم بتفجيرات وأعمال استفزازية في مناطق شيعية ضد الشيعة أنفسهم لاتهام أطراف من أبناء المذاهب الأخرى بعمليات التفجير أو الاستفزاز، لشحن عواطفهم الطائفية بشحنات عائية ضد الآخر، فتبدو المؤسسات والأحزاب الدينية الطائفية وكأنها تمثل القلاع الحصينة لحماية الطائفة من هذه التفجيرات، وما تعنيه من نيات الآخر لإفناء الطائفة.

- ٩ -

طبعًا، تعني هذه العوامل الداخلية إهمال دور العامل الخارجي ومخططاته وسلوكياته في تأجيج المشاعر الطائفية، بل إن إهمالا كهذا كما لاحظنا في ورقة فالح عبد الجبار يلغي أي موضوعية لأي بحث للمشكلة، التي هي باختصار حصيلة تفاعل عوامل سياسية اقتصادية اجتماعية انتجت حالات أو

مركبات نفسية لا شعورية ضاغطة على المنظومة السيكولوجية للإنسان، وقد تشابكت مع عوامل ومحاولات تحريض خارجي مدروس ومخطط من قبل قوى خارجية معنية بالشؤون العربية، وذات مصالح كبرى في إبقاء الأمة العربية ممزقة ومتخلّفة وضعيفة.

فلا يمكن تجاوز مشروع شارون إيتان الذي عرف بــ (استراتيجية إسرائيل لثمانينيات وتسعينيات القرن)، الذي نشرت نصوصه منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٨٢، وخطط الحاكم المدني الأمريكي بريمر في عراق بعد الاحتلال، التي أرساها بجهوده الخيّرة لرفع المظلومية التاريخية عن الشيعة، كما وضح في الجزء الأوّل من مذكراته، ثم تعاطفه مع مظلومية السُّنة التي بدأ يشير إليها في الجزء الأخير من مذكراته، وعشرات الدراسات التي ظلت تخطط لتفتيت الأقطار العربية وتقسيمها كمشروع برنارد لويس، مستفيدة من تعاون وارتباط ما كنا نعرفه من قوى الرجعية العربية، لتكون الذراع النشط لتنفيذ ما ترسمه مراكز البحوث والدراسات الغربية من خطط عدوانية معادية لكل ما هو عربي واستثمار أخطاء ما عرف بالأنظمة الوطنية التي مارس بعضها القمع بشكل مفرط، ما جعلها تمثل عامل تهديد مرعب للمواطن العربي.

ولا يستقيم البحث أو الحديث عن موضوع (الطائفية) من دون النظر إليها والأخذ في الحسبان أنها حالة مرضية، كأية حالة من حالات الهيستريا الاجتماعية التي تصيب المجتمعات عامة، ونموذج نكوصي لمجتمع ظلت كتب التاريخ تتغنى بأمجاده وأدواره التاريخية في المساهمة في تطور الحضارة العالمية، لكنه يعيش في الواقع حالة من التردي والانحطاط والتخلف، ما يضعه على هامش التاريخ والحضارة.

الجزء الثاني

تسويق صناعة الطائفية

محترفوها وتُجَّارها

الفصل الثامن

تبت أياديهم.. إنهم يقتلون الشيعة على الهوية؟!

الجزء الأول [1]

انتشرت خلال الأسبوع الماضي إشاعة مفادها أن مسلحين ملثمين أقاموا حاجز للتفتيش على طريق الحلة – بغداد، وتحديدًا بالقرب من ناحية اللطيفية، وأنهم كانوا يحملون صورة الإمام علي، يتعمدون إيقاف السيارات للاستفسار من الركاب واحد واحد عن هويته المذهبية، ما إذا كان شيعيًا أو سنيًا، فإذا قال إنه شيعي قتلوه، وإذا قال سنيًا، يطلبون منه شتم الإمام على للتأكد.

في البدء هناك ملاحظتان على زمن ظهور هذه الشائعة والطريقة التي انتشرت بها: الأولى: إنها انتشرت بسرعة ليس داخل العراق فقط، بل في جميع أنحاء العالم، وفي أي مكان يتواجد به العراقيون.. مما يُظهر أن هناك حملة منظمة لنشر هذه الإشاعة عبر جماعات منظمة أيضًا ومرتبطة بخط واحد وبتوجيهات مركزية.

ثانيًا: إنها ظهرت خلال فترة الهجوم على الفلوجة، بالضبط بعد اتضاح الصورة عن حجم الجرائم التي مارستها قوات الاحتلال في المدينة وأهلها، سنناقش دلالة هاتين الملاحظتين فيما بعد..

بالمقابل فإن مقاتلي البيشمركة (وهم سُنة)، ومقاتلي قوات بدر التابعة للمجلس الإسلامي والتي شاركت قوات الاحتلال بالهجوم على الفلوجة تحت اسم الحرس الوطني؛ رفعت عند دخولها الفلوجة صور السيد السستاني، وباقر

---

١ – نشر في مجلة المستقبل العربي – البيروتية عدد كانون الثاني ٢٠٠٥.

الحكيم، لخلق انطباع عند أهل الفلوجة أنهم يقاتلون بأمر من المرجعية الشيعية، أو بالنيابة عن الشيعة.

أغرب ما في الأمر أن السيد عبد العزيز الحكيم، في مقابلة أجرتها معه محطة العربية أمس ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٤ تحدث عن حادثة سب الإمام علي (ع) ليوحي أنها وقعت فعلاً ، وتلاقفها بعض المأجورين وبعض الجهلة ليكتب عنها في الإنترنت وكأنها فعلاً واقعة أكيدة، مع العلم لم نجد من يقول إنه تعرض لمثل هذا الحادث، باعتبار أن كل الذين تعرضوا للحادثة قتلوا، كما أن مبدأ التقية عند الشيعة يبيح للشيعة في مثل هذه الحالات، شتم الإمام علي (ع) على أساس حديث منسوب للإمام علي، يوصي به شيعته: "أما السب فسبوني، وأما البراءة فلا تتبرءوا مني"، وهو القول الذي تشكل على أساسه مبدأ التقية أصلاً، أي أنه يبيح شتمه إذا كانت الشتيمة تحقق الخلاص من موت محقق، وتصبح الشتيمة هنا فرض ديني.

من الأمور ذات الدلالة بهذه القصة هي رفع قطاع الطرق هؤلاء لصورة الإمام علي وطلب شتمه، ما يجعلها في موضع الشك، وكأن الإمام علي مجرد رمز خاص بالشيعة بحيث يمكن أن يشتمه السُّني بسهولة، مع أن المفارقة الغريبة أن من الأسهل على الشيعي شتمه كما قلنا بمثل هذه الحالات، على أساس مبدأ التقية، مما يجعل السُّني أكثر حراجة في أن يشتم صحابيًا ابن عم رسول الله ﷺ ورابع الخلفاء الراشدين، زوج ابنة الرسول السيدة فاطمة الزهراء.

فما لا يعرفه بعض الجهلة، الذين رفعوا الصورة (في حالة افتراض حصول الواقعة)، هو أن قدسية الإمام علي عند السُنَّة لا تقل عما هي عليه عند الشيعة، إلا بالدرجة والصفة، فهو الصحابي الجليل، الورع التقي عند السنة، الذي كرم الله وجهه ولم يسجد لغير الله، كما حصل لبعض الصحابة قبل ظهور الإسلام، أما الشيعة فيعتقدون أنه إمام معصوم، وأن عصمته جاءت بأمر من الله، نقلها النبي ﷺ في حجة الوداع في موقع يقال له غدير خم، ولا ينكر الكثير من

علماء السُنَّة هذه الخطبة لكنهم يفسرونها بطريقة مختلفة[1]، فالسنة قد يختلفوا مع الشيعة على بعض معتقداتهم، إلا أن هذا الخلاف، لا يشمل الإمام علي (ع)، عند أهل السُنَّة بل شيعته، لذلك فإن رفع صورة الإمام علي وطلب شتمه؛ إن كانت وقعت الواقعة فعلاً، فهي دلالة على أحد أمرين؛ ألا يكون حملة الصورة من المسلمين، أي أنه لا يعرف أن السُنَّة يتحرجون من شتم الإمام علي حتى أكثر من الشيعة، إذا أخذنا موضوع التقية بنظر الاعتبار، ولم يحصل في التاريخ أن سمعنا سنيًا فقيهًا أو رجلاً عاديًا ليس فقط يتنزه عن الشتيمة، بل هو يشعر بمواجهة ذكر الإمام بالخشوع والرهبة.. باستثناء السُنَّة النواصب، أي الذين يناصبون الإمام علي وأهل بيته بالعداء، وهم لا وجود لهم على أرض الواقع، واصطلاح النواصب هذا نتاج عملية التنافس أو الاتهامات التي يطلقها بعض من رواد هذا المذهب أو ذاك على الطرف الآخر، فابتدع مصطلح النواصب، بمواجهة مصطلح الرافضة، الذي يطلقه بعض متطرفي السُنَّة على الشيعة، أي أنهم يرفضون الإقرار بشرعية خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، لاعتقادهم أن النبي أوصى في غدير خم بتولي الإمام علي من بعده..

كما يجب الأخذ بنظر الاعتبار أنه لم يتصاعد الخلاف بين السُنَّة والشيعة في العراق إلى حد الخصام والاقتتال، خلال القرن الماضي على الأقل، ولم يصادف أن شيعيًا قتل سنيًا أو العكس بسبب انتمائه، وتعايش أبناء الطائفتين بسلام وتعاون، وتزاوج الأبناء من كلا الطرفين دون أن يؤخذ بنظر الاعتبار الانتماء الطائفي للزوج الآخر، باستثناء حادثة واحد حصلت عرضًا في سامراء

١ - حول عقائد الشيعة ومحاور الخلافات الفقهية مع السنة ومفهوم الإمامة عند الشيعة وتاريخ ظهورهم كطائفة إسلامية يمكن العودة إلى:

- كاشف الغطاء، الشيخ محمد حسين، أصل الشيعة وأصولها، القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٥٨، الطبعة العاشرة.

- فياض، د. عبد الله، تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٦، الطبعة الثالثة.

تمكن المرجع الشيعي الميرزا الشيرازي من استيعابها ومنع تطورها، رغم أن القنصل البريطاني سافر إلى سامراء عارضًا على الميرزا الشيرازي استعداد بريطانيا العظمى للقصاص من قاتل ابنه، إلا أن الميرزا رفض مقابلته معتبرًا أن المشكلة هي بين أبناء دين واحد وبلد واحد ولا دخل للغرباء بها، وأن هذه المشكلة ما هي إلا حادث بسيط بين أخوين[1].

وعندما هاجم الأخوان الوهابيين بعض العشائر العراقية الشيعية في أطراف مدينة الناصرية عام ١٩٢٤، قاد الشيخ مهدي الخالصي حركة الاحتجاج ضد هذا الهجوم، وعقد مؤتمرًا في كربلاء مطالبًا حكومة الاحتلال ببناء الجيش العراقي القوي، ليحمل مسؤولية الدفاع عن الحدود والحفاظ على أمن المواطن العراقي، وتسليح العشائر العراقية كي تتولى الدفاع عن نفسها إلى حين اكتمال بناء الجيش القوي القادر على أداء مهماته، وقف كل أبناء السُنَّة في بغداد وتكريت والموصل وسامراء مع الشيخ الخالصي وأرسلوا الوفود إلى كربلاء، استجابة لطلب الشيخ الخالصي، وعرضوا استعدادهم للوقوف بجانب العشائر الشيعية، لمنع تكرار الأمر... هذا في حين انشقت بعض العشائر الشيعية الموالية للإنجليز على مؤتمر كربلاء، وعقدت مؤتمر مضاد في الحلة، مطالبين ببقاء الاحتلال، والعهدة لقواته بالمحافظة على الأمن والدفاع عن الحدود العراقية[2].

١ – الوردي، د. على، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، لندن: دار كوفان، ١٩٩٢، الجزء الثالث، ص: ٩٨ – ٩٩.

٢ – حول قصة هجوم الإخوان الوهابيين على الناصرية، وتصدي الشيخ مهدي الخالصي لها ومؤتمر كربلاء ومؤتمر الحلة، يرجى العودة إلى:

– الوردي، د. علي، مصدر سابق، الجزء السادس، ص: ١٣٢ – ١٥٢.

– الحسني، عبد الرزاق، تاريخ الوزارات العراقية، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨، الجزء الأول، ص: ٨٠ – ٩٦.

– الخطاب، رجاء حسين حسيني، العراق بين ١٩٢١ – ١٩٢٧، بغداد: بلا دار نشر، بلا تاريخ، ص:٢٧٤ –٢٨٥.

تعكس قصة الخلاف بين الشيخ ضاري والكولونيل البريطاني ليجمن نموذجًا آخر من التلاحم الشيعي السُّني ، بمواجهة الاحتلال ، واستعداد العشائر السُنّية في السير تحت قيادة المرجعية الشيعية عندما تلتزم بالمصالح الوطنية العراقية ، وتقف في موقع القيادة الوطنية لجميع العراقيين ، فعندما أرسل الميرزا محمد تقي الشيرازي مندوبًا عنه يدعو عشائر الفلوجة والرمادي للانضمام لثوار ثورة العشرين ؛ كان الشيخ ضاري واحد من ثلاثة شيوخ ممن استجابوا لفتوى الميرزا محمد تقي الشيرازي ، إضافة للشيخ خضير الحاج عاصي رئيس الجنابات ، والشيخ علوان الشلال شيخ البو محيي ، وباشروا بمهاجمة القوات البريطانية في المنطقة ، مما اضطر الكولونيل ليجمن الاجتماع بشيوخ العشائر في المنطقة ، محاولاً اللعب على أوتار الطائفية لتهدئة العشائر العربية في الفلوجة والرمادي ، فتصدى له الشيخ ضاري ليقول: "ليس في العراق شيعة وسنة بل فيه علماء أعلام نرجع إليهم في أمور ديننا.. إن علماءنا حكومتنا وقد أمرنا القرآن بطاعة الله والرسول وأولي الأمر منا ، فإذا اعتديتم عليهم فإننا سننتصر لهم ونحاربكم بجانبهم ، والأولى أن تلبوا ما أرادوا[١]".

تصاعد العداء بين الشيخ ضاري ولجمن إلى حد اغتيال لجمن ، وفرار الشيخ ضاري ثم إلقاء القبض عليه وإلى أخر القصة المعروفة ، والشيخ ضاري هو جد الشيخ حارث الضاري ، رئيس هيئة العلماء المسلمين الحالية.

إن تصعيد الشيخ ضاري ، وهو السُّني ، لخلافه مع المحتلين الإنجليز استجابة وطاعة لأمر المرجع الشيعي الأعلى في حينها ؛ الميرزا محمد تقي الشيرازي ، مقابل سعي بعض شيوخ القبائل الشيعية عند سلطة الاحتلال للإيقاع أو التخلص من محمد رضا الشيرازي ، ابن المرجع ، وشكواهم منه ، بسبب نشاطاته

١ – الوردي، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص: ٦٨.

المعادية للاحتلال[1] ، يعني أن المرجعية الدينية الشيعية ، تستطيع أن تتجاوز حدود هيبتها وسلطتها المذهبية ، وتنطلق للآفاق الإسلامية الأوسع ، عندما تتبنى القضايا الوطنية العامة ، فتستقطب غالبية السنة ، وتنفر أقلية شيعية ، خارجة على الإجماع الوطني ، رافضة لكل قيمه وثوابته بما فيها المرجعية.

إن موقف بعض العشائر الشيعية من محمد رضا ابن المرجع الميرزا محمد تقي الشيرازي ، يذكرنا بموقف بعض رجالات الدين الشيعة من السيد مقتدى الصدر ابن المرجع السيد محمد صادق الصدر ، كما يذكرنا بأن التوجهات النفعية لا دين لها ولا مذهب ، وعندما تتلبس بالدين أو المذهب تأخذ لبوسها هذا على أساس حسابات الربح أو الخسارة ، وليس العقائد أو رضى الله.

إن التلاحم السُّني – الشيعي في العراق ، لم يكن نتاج التعايش الطويل بين الطائفتين ، ووعي الناس بانعدام الفروق الكبيرة بين المذهبين إلى الحد الذي يستوجب القطيعة ، فقط ، بل يعود لحقيقة أن العشائر العربية الكبيرة موزعة بين الطائفتين ، كعشائر شمر والجبور والجنابات وزبيد والعبيد وربيعة ، وحتى عشائر الدليم – عشائر الفلوجة والرمادي – موزعة بين المذهبين ، فعشيرة آل فتلة الشيعية التي تقيم بين الديوانية والنجف ، تنتسب بالأصل إلى عشائر الدليم السُنّية[2].

---

١ – نفس المصدر، الجزء الخامس، ص:١٩٧.

– يعتقد كل من الدكتور علي الوردي، والدكتور وميض عمر نظمي، أن محمد رضا بن المرجع محمد تقي الشيرازي، كان من أوائل رواد الحركة القومية العربية في العراق، رغم أصوله الإيرانية. لاحظ، نفس المصدر، ص: ٢٠٠ – ٢٠٢.

– نظمي، الدكتور وميض جمال عمر، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤، ص: ٣٥١ – ٣٥٢.

٢ – الوردي، د. علي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، قم: انتشارات المكتبة الحيدرية، ١٩٩٦، ص:٢٣٥ – ٢٣٦.

كما أن اتصال النجف الجغرافي بمحافظة الرمادي عن طريق الصحراء الغربية جعل منها مركزًا تجاريًا مهمًا للتسوق بالنسبة لعشائر الدليم، الأمر الذي خلق صلة من الود والتزاوج بين الطرفين، فحاج نجم البقال، أحد قادة ثورة النجف ضد الاحتلال البريطاني عام ١٩١٨، هو رجل من وجهاء النجف، دليمي الأصل[١].. والجنابات وهم أكبر العشائر القاطنة في منطقتي اللطيفية واليوسفية، وهي العشيرة المتهمة ظلمًا بالتعصب الطائفي؛ منقسمة في ولائها بين التشيع والتسنن، ووقفت في مقدمة العشائر التي استجابت لدعوة الميرزا الشيرازي للانضمام إلى جانب ثوار ثورة العشرين، لذلك لا يمكن أن تتطرف أو تتورط بأي نشاطات طائفية يمكن أن تتصاعد إلى حد الاحتراب، لأنها ستتعرض لقتال داخلي بين أبنائها، ولا نعتقد أنها معنية أو مستفيدة من هكذا تصرفات.

إن التلاحم السُّني – الشيعي، كما تشير الوقائع على الأرض، والتجارب التاريخية التي تطرقنا لها بسرعة، عادة ما يتصاعد ويقوى في أوقات الأزمات الوطنية، خاصة وكما لاحظ ذلك عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي، ودينيًا أو مذهبيًا لا يمكن أن يتجرأ أحد من السُنَّة على الإمام علي، لا مجاملة لإخوانهم الشيعة بل لما للإمام من قدسية ومكانة عظيمة عندهم.. فمن الفاعل إذًا، ولماذا..؟!

اتصل الكاتب ببعض المهتمين والمتابعين لتطورات الوضع في العراق، فأكدوا جميعًا أن هناك إشاعة بوقوع مثل هذا الأمر، لا أحد يستطيع أن يؤكدها أو ينفيها، لكن مصادر الإشاعة وطبيعة مروجيها تشير إلى أن **الفاعل هو واحد من الأطراف التالية:**

١: بعض الأحزاب المتأسلمة الشيعية التي تريد تحقيق ثلاثة أمور من إشاعة مثل هذه القصص أو ممارسة مثل هذه الأفعال، منها أنها أصبحت في موقف

---

١ – الوردي، د. علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص: ٢١٦ – ٢٢١.

المحرج أمام أعضائها وعامة الناس، وفقدت مصداقيتها الدينية – الإسلامية، وهي تقف موقف المتفرج، بل الداعم لقوات الاحتلال التي كانت وإلى عهد قريب جدًا تمثل "الشيطان الأكبر[1]"، وهي تدنس وتهدم المساجد في سامراء والفلوجة والرمادي، بل وتقتل الجرحى والمصابين، ففعلت هذه الحركات فعلتها هذه لتبرر بذلك موقفها من جرائم القوات المحتلة، ولتخلق انطباعًا عامًا عند الشيعة بحيث يبدو العدوان على الفلوجة وكأنه يحقق الأمن للشيعة، ويحافظ على سلامتهم.

كما تلعب الاستعدادات للانتخابات لعبتها في عقول قيادات هذه الأحزاب، فهي تريد من الشيعة أن يلتصقوا بها، ويدعمونها في الانتخابات، للحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات بمواجهة الفصائل الأخرى المتهافتة على التعاون مع الاحتلال، والأمر ليس غريبًا أو بعيدًا على التصديق، فرغم إدعاء هذه الأحزاب بالحمية والحرص على مصالح الطائفة، إلا أن موقفها من الانتفاضة الصدرية، أظهر حقيقة أن هذه الحركات تعمل بأجندة خاصة بها وحدها، وبما يحقق طموحات ونزعات قياداتها الشرهة في الالتصاق بالأمور الدنيوية، والتشدد الطائفي ليس إلا جزء من بضاعتها ومصادر رزقها، ووسيلتها لتحقيق نزعات الذات المريضة، وأن دماء الشيعة وممتلكاتهم، أرخص عندهم من مقعد وزاري في وزارة لا تمتلك أية شرعية وطنية، نصبها من كان بالأمس الشيطان الأكبر.

٢: ما يسمى بالحكومة المؤقتة وبالتعاون مع مخابرات الأمريكية، خاصة وأن نكرو بونتي من المختصين بمقاومة الثورة وحركات التحرر، وتاريخ خدمته في أمريكا اللاتينية معروف للجميع، فقامت بمثل هذه الأعمال، لتهدئة الجنوب

---

١ – الشيطان الأكبر هو تسمية أطلقها السيد الخميني على القوى الإمبريالية، وبالذات أمريكا، وتبنتها جميع الحركات والأحزاب السياسية الدينية العراقية في أدبياتها، وشعاراتها.

الشيعي ، وامتصاص نقمته وهو يرى أبناء شعبه يقتلون بغير حق ، وتهدم منازلهم وتسبى نساؤهم وأطفالهم ، مثل هذه الممارسات الطائفية التي تنسب للحركات السلفية كفيلة بأن تحول التعاطف مع الفلوجة إلى إقرار بصحة ممارسات قوات الاحتلال وقبولها.

٣: هنا أو هناك تشم دائمًا رائحة الموساد ، فالدولة العبرية تربط دائمًا بين حماية أمنها القومي وبين تخريب العراق، وهي ومن يدعمها المستفيد الأول من تقسيم العراق ، الذي كان بالنسبة لها هدف معلن منذ بداية ثمانينات القرن السابق، حيث طرح شارون بالاشتراك مع ايتان، منذ ذلك الوقت، خطة لتقسيم العراق والدول العربية الأخرى وأسماها "استراتيجية إسرائيل للثمانينات والتسعينات[١]" ، كان شارون وقتها ضابطًا بالجيش ، أما الآن فهو في موقع صاحب القرار القادر على توجيه أجهزة الدولة لتنفيذ خطته، وليس صعبًا عليهم أن يستأجروا بضعة من المجرمين المعروضين للبيع في سوق أشباه الرجال الزاهرة في بغداد اليوم.

٤: التيار الشعوبي المندس بين أبناء الطائفتين ممن يعانوا من حالة مرضية غير مبررة من الحقد على العرب، ويتذكر العراقيون المقيمين في لندن ما كان يردده بعضهم: "سنجعل العرب في العراق بدون – البدون ، مصطلح كويتي يعني أولئك الحاصلين على إقامة طويلة في الكويت ولا يحملون الجنسية الكويتية أو أي جنسية أخرى، فهم بدون جنسية، عرضة للطرد، مسؤولين غير مصانين–"..

---

١ – يحتفظ الكاتب بصورة مطبوعة على الآلة الكاتبة لترجمة نص المشروع، قامت منظمة التحرير الفلسطينية بترجمتها وتوزيعها في حينه، كما قامت جريدة السفير اللبنانية بنشر المشروع في أوائل عام ١٩٩١ على ما أتذكر، أتمنى أن تقوم الجريدة بنشر المشروع ثانية لما له من أهمية في كشف نوايا الحركة الصهيونية العالمية في تمزيق الوطن العربي إلى دويلات طائفية صغيرة، ضعيفة ومتناحرة فيما بينها.

ولقد كشفت هذه التوجهات الشعوبية عن وجهها الحقيقي عند تصاعد حدة القتال بين قوات الاحتلال والشيعة في النجف ومدينة الصدر وغيرها من المدن الشيعية، اتضح بما لا يقبل الشك أن دين هؤلاء الشعوبيين ليس الإسلام ولا التشيع بل "دينهم أن يقتل العرب[1]"، وهم يتشوقون لاندلاع فتنة طائفية، القاتل والمقتول فيها من العرب.

كل هذه الجماعات معنية بتشويه صورة المقاومة، لكل منهم أسبابه.. لكن لحظة تأمل منطقي واحدة كفيلة بأن يصل الإنسان إلى نتيجة براءة المقاومة من مثل هذه الأفعال، فالمقاوم صاحب أو حامل تلك المثل والقيم النبيلة التي تدفعه إلى التضحية بنفسه وماله من أجل المصلحة الوطنية والأمن الوطني العراقي، وحماية أبناء شعبه ووطنه من القتل والدمار المسلط عليه من قبل قوات الاحتلال، لا تسمح له قيمه هذه أن يفعل مثل هذه الافعال الإجرامية.

ثم إن المقاومة في أي بلد وعلى مدار التاريخ تنطلق عادة بفعل وتخطيط نخبة صغيرة تأمل أن تتوسع مع الزمن، وأن ينتشر الوعي بين أبناء شعبها بمخاطر الاحتلال، فهي تطمح دائمًا بأن يفهم من تدافع عن حقوقهم، وحريتهم واستقلال إرادتهم، ما يعنيه الفعل المقاوم من حل فريد أوحد لنيل الحقوق الوطنية، ثم إن

---

١ – تم استعارة الاصطلاح من القصيدة المشهورة للشاعر العربي نصر بن سيار التي كتبها للخليفة الأموي يحذره فيها من ظهور تحرك شعوبي معادي للعرب في أصفهان.

– يحاول الشعوبيون أن يلصقوا الشعوبية بالمذهب الشيعي، بهدف منع الآخرين من الحديث عنهم أو التطرق لذكرهم، بنسبة الحديث عنهم للتعصب الطائفي، وتصوير أي حديث في هذا الشأن على أنه غمز وتشكيك بعروبة التشيع، مع أن الشعوبية حركة سياسية وثقافية هدفها تمجيد ورفع القيمة الحضارية للشعوب الإسلامية غير العربية والبخس من قيمة العرب الحضارية، وليس حركة دينية أو طائفية، كما أنه لم يكن من بين الشعوبيين من هو من المذهب الشيعي، للإطلاع أكثر على أصل الحركة وتداخلاتها المذهبية يمكن العودة إلى:

– الوائلي، الشيخ أحمد، هوية التشيع، بيروت: مؤسسة أهل البيت، ١٩٨١، ص: ٢٠٧– ٢١١.

– الحسيني، د. موسى، ساطع الحصري والخطاب الطائفي الجديد، بيروت: دار الكوثر، ٢٠٠٠، ص: ١٣١– ١٦٤.

المقاومة ليست خاصة بطائفة دون أخرى، إن حصة السماوة وحدها كان ٥ شهداء سقطوا وهم يدافعون عن الفلوجة، والناصرية سبعة، كما وصلت بعض جثث الشهداء من أبناء المدن الشيعية الأخرى ممن قاتلوا بإيمان وبطولة عن مدينة العزة والكرامة. ولا أحد يستطيع أن يغفل مساهمة الصدريين التي كشفت أكذوبة ما يطلق من مصطلحات طائفية على مدن الثورة، لتبرهن أن الانقسامات ليس بين الشيعة والسُنَّة، بل بين الشعب العراقي بمختلف مكوناته، وقوات الاحتلال وعملائها المحليين ممن ينتسبون لطوائف مختلفة، حتى المقاومة السلمية تضم أطراف مختلفة من الشيعة والسُنَّة والأكراد والتركمان، كما يتضح بجلاء من خلال البيان الذي وقعت عليه ٤٧ حزب وتنظيم تعلن مقاطعتها للانتخابات، كان يضم أطراف شيعية وأخرى سنية[١].

كما أن قائمة المتهافتين على إرضاء السفير الأمريكي تضم ٥٦ جماعة من مختلف الأطياف المذهبية والدينية، وليس هناك من انقسامات طائفية تمنع هذا الطرف أو ذاك أن يصطف مع الاحتلال أو ضده، ولا ترفع الشعارات الطائفية إلا تنفيذاً لأوامر الأسياد أو لتحقيق أغراض تجارية، وعندما يعزز الدم الشيعي أرباحهم وامتيازاتهم، لا مانع لديهم أن يقتلوا الشيعي على الهوية ويبكون عليه، كما ساهموا في قتله في النجف ومدينة الصدر، مقتفين بذلك سيرة معاوية لا علي، يوم قتل الصحابي عمار بن ياسر في صفين، قال جماعة معاوية إن علي وجنوده هم الفئة الباغية، لأنهم هم الذين أحضروا عمار بن ياسر معهم للمعركة فكانوا سببًا في قتله[٢].

---

١ – نشر البيان على الكثير من مواقع الإنترنت، وجريدة الوفاق الوطني في بغداد، ويضم ثلاثة مراجع شيعية إضافة إلى هيئة جماعة العلماء السنية، وأحزاب ومنظمات وطنية تضم أعضاء وأنصار من كلا الطائفتين.

٢ – حسين، طه، الفتنة الكبرى– علي وبنوه –، القاهرة: دار المعارف، بلا تاريخ، الطبعة الثالثة عشر، ص: ٧٧.

إنهم ليسوا من شيعة علي بن أبي طالب، وإن صرخوا وتنافخوا وتظاهروا بالتعصب للمذهب، إلا أنهم في سيرتهم وسلوكهم من أتباع التشيع الصفوي كما وصفهم الدكتور علي شريعي[1]، بل هم أقرب للخط الأموي الذي يغلب الركض وراء الملذات الدنيوية على طلب رضى الخالق، تبت أياديهم الملطخة بدماء شعبنا شيعة وسنة، لم يتركوا للنظام السابق من ذنب نتهمه به إلا اقترفوه، فضاعت من أعمارنا ٣٥ سنة استهلكناها في معارضته.

---

١ – شريعتي، علي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، بيروت: بلا دار نشر، بلا تاريخ.

الفصل التاسع

تبت أياديهم إنهم يقتلون الشيعة العرب على الهوية

الجزء الثاني

كشف اللواء قاسم عطا، الناطق باسم خطة فرض القانون، في مؤتمره الصحفي الذي أذاعته محطة البغدادية ظهر هذا اليوم ٢٠٠٨/٤/٨ ، محطة التلفزيون الرسمية أو الناطقة باسم الحكومة، لمعلومات تفيد بأنه علم أو عرف أن القاعدة قررت زرع مجموعة من الانتحاريين وسط المتظاهرين الذين يستعدون للتظاهر استنكارًا للاحتلال غدًا كما دعى لذلك السيد مقتدى الصدر.

السؤال: من أين للناطق باسم الخطة الأمنية هذه المعلومات، استخباريًا تعني هذه المعلومة أن للواء قاسم عطا أدواته المتغلغلة في تنظيم القاعدة، وعلى مستوى قيادة التنظيم، بحيث يعرف قرارها ونواياها في التحضير لمثل هكذا عمليات، قبل تنفيذها، أليس من الأفضل أو المنطقي أن يمارس اللواء سلطاته لمتابعة مصادره للوصول إلى قيادة التنظيم، لاعتقالهم وتخليص العراقيين منهم، وهذا يفرض عليه أيضًا ألا يعلن عما لديه من معلومات، كي لا يكشف مصادره، لأن القاعدة إذا كانت بهذا المستوى من الخبرات والمهارات بحيث تنفذ عمليات ١١ سبتمبر، وما تلاها من عمليات، وعمليات الزرقاوي منها، لا شك أنها ستصل بسرعة لاكتشاف مصادر معلومات اللواء، وتقضي عليها.. وهنا يكون اللواء قد ارتكب خطأ أمني استراتيجي، كما أنه ارتكب جريمة بحق الأمن الوطني العراقي في استلامه لمثل هكذا معلومة ولم يتابع خيوطها ليقبض على المجرمين الذين يخططون لقتل المئات.

لا يمكن أن تفهم هذه التصريحات إلا بواحد من الشكلين:

الأول: أن المعلومة كاذبة مئة بالمئة، والغاية منها تخويف الناس لمنعهم من المشاركة في المظاهرة، ولو أخذنا بنظر الاعتبار محاولة السلطات المحلية في المدن الجنوبية لمنع الناس من السفر لبغداد للمشاركة بالمظاهرة؛ يصبح هذا الاحتمال مرجحًا.

رغم أن التصريح بمثل هكذا معلومات هو نوع من الإرهاب بعينه، فلا شك أنه سيخلق حالة من الرعب والشد السيكولوجي عند الناس ممن سيشارك أو لا يشارك بالمسيرة، وهذا يتناقض مع وظيفة رجل الأمن، الذي ينشد نشر الشعور بالأمن بين المواطنين.. إلا أن كل شيء أصبح مبررًا بشكل لم يمارسه نظام آخر من الأنظمة التي مرت بتاريخ الدولة العراقية الحديثة.. طبعًا المقصود بهذا التهديد هم الشيعة العرب الرافضين للاحتلال، في زمن من يدعي أنه جاء ليرفع الظلم عن الشيعة.

الثاني: أن يكون مثل هذا الإعلان هو تهديد مباشر للشيعة العرب، مقصود ومعد وجاهز للتنفيذ، تعد الحكومة عدتها لعمله كإجراء وقائي لقمع الشيعة من أن يتجرءوا في المستقبل على الإتيان بمثله، وقمع الأصوات المطالبة بإنهاء الاحتلال.

بعد ساعات قليلة صرح السيد مقتدى الصدر بضرورة تأجيل وقت المسيرة بسبب مخاوفه من تعرض مؤيديه للهجوم (محطة الشرقية أخبار الساعة الثانية ظهرًا بتوقيت لندن، شبكة أخبار العراق ٨ /٤ / ٢٠٠٨). (سنترك مناقشة هذا الموقف، فيما بعد).

العمليات الانتحارية كجزء من المخطط الشعوبي:

سبق أن ناقشت في كتابي "المقاومة العراقية والإرهاب الأمريكي المضاد"، كيف أن بريمر والمخابرات الأمريكية، ظلوا يؤكدون على العمليات الانتحارية للإيحاء بأن المجازر الطائفية التي مارسها الشعوبيين ضد الشيعة هي من عمل طائفيين سنة، فليس من المعقول أن يقوم مرتزق أو عميل بعملية انتحارية، فالعمليات الانتحارية لا ينفذها إلا مؤمن بعقيدة أو أيديولوجية محددة، فإضفاء صفة الانتحارية تبرئ المنفذين كما أنها تؤشر إلى أن المنفذ لابد أن يكون إسلاميًا متدينًا.. وبما أن التفجير يحدث في مناطق الشيعة فلابد أن يكون هذا المسلم سنيًا.

لا يريد الإنسان أن يبرئ المقاومة من العمليات الانتحارية، فالمقاومة العراقية انطلقت منذ اليوم الثالث للاحتلال بعملية نفذتها من حرائر العراق نوشة الشمري ووداد بنيني، عندما فجرن نفسيهما، والتاكسي الذي يستقلانه عند نقطة تفتيش أمريكية عند مدخل بغداد من جهة الدورة، وكان مقتل أول ثلاث جنود من العدو الأمريكي، وقبلهما بثلاثة أيام قامت بطلة من بنات مدينتي الناصرية (مدينة فؤاد الركابي، وعناية السمياوي) بعملية اجرأ، حيث واجهت بسيارتها الملغومة دبابة أمريكية تحت جسر الناصرية، ففجرت الدبابة وصعدت روحها الطاهرة ترفرف وتهزأ من هذه اللحى والشوارب الغليظة التي يربيها دُعاة الرجولة والإسلام والتشيع، أعتذر لهذه البطلة الخالدة أني كتبت اسمها على ورقة أضعتها، وأتمنى على من يتعرف على اسمها مراسلتي.

فالعمليات الانتحارية مفخرة للمقاومين وليس عار أو عيب، فالعدو يمتلك الصاروخ والطائرة والمدفع ليقتلك من بعيد، يصبح من الروعة والقدرة على العطاء المتناهي أن يحول الفدائي جسمه إلى صاروخ، لكن المقصود، أو المنبوذ هو ما تحاول أن تضفيه تحالف القوى الشعوبية على العمليات الانتحارية من سمات طائفية، وإضفاء صفة الإرهاب عليها لمسخ صورة

المقاومة المشروعة، إن المقاوم وهو يسمو على ذاته من أجل الدفاع عن شعبة، ويضحي بأغلى ما يمتلك الإنسان دفاعًا عن وطنه وشعبه ومصالحه الوطنية، كيف يمكن أن يتهاوى أخلاقيًا إلى حد قتل إخوانه، وهو ما قتل نفسه إلا مساهمة منه لإيقاف القتل الذي يمارسه الشعوبيون ضد مواطنيه، فالعمليات الانتحارية هي ليست قتل بل هي حياة وعمليات إنقاذ لمنع المزيد من القتل، وإنقاذ أرواح الآلاف من الأبرياء التي يقتلها المحتل وذيوله الصغيرة.

يقول تشرشل، رئيس الوزراء البريطاني إبان الحرب العالمية الثانية، بعد أن وصل تهديد القوات الألمانية إلى احتمال أن تعبر البحر لتحتل بعض الأجزاء من جنوب بريطانيا، أنه كان يفكر وبعض ضباطه "في إعداد قنبلة يمكن إلقائها من نافذة على دبابة، فتلتصق بها فورًا،...... وانطبعت الصورة في ذهننا عن جنود مخلصين، أو مدنيين يركضون إلى جوار الدبابة فيقذفون القنبلة عليها، على الرغم من أن الانفجار سيكلف ملقيها حياتهم، ولا ريب في أن هناك الكثير على أتم استعداد للقيام بمثل هذا العمل[1]".

ويستشهد تشرشل على صحة ومصداقية أفكاره ونواياه بقول شاعر روماني قديم:

"ذلك لأن الرومان، عندما تشتبك روما في نضال
كانوا لا يضنون بشيء من مال أو عقار
ولا ولد ولا زوجة، ولا عضو ولا حياة
في تلك الأيام القديمة المجيدة[2]"

ولا يدري الإنسان بماذا يتميز البريطانيون عن العراقيين حتى تصبح العمليات الانتحارية ضد غزو أجنبي لبريطانيا بطولة، وفي العراق جريمة.. مع أن

---

١ – المذكرات، ص: ٤٩٠.

٢ – ص:٤٨٨.

تشرشل يعترف أنه وضباطه تعلموا فائدة هذه القنبلة من نضالات العرب في سوريا عند مقاومتهم للاستعمار الفرنسي[1].

-٢-

كما ذكرت في الجزئين الأولين من هذه الدراسة ، بذل المستشيعون من الشعوبيين، بقيادة آل الحكيم جهودهم لتمزيق الشعب العراقي؛ مستثمرين الحالة النفسية لأبناء الشعب العراقي، وجهل العامة بأسس التشيع، الذي يظل عند الكثير من العامة مجرد حالة حب عاطفي لآل البيت، في حين يغذي الشعوبيون هذه العاطفة بقصص مختلقة عن مظلومية آل البيت، لتحويل هذا الحب العاطفي إلى حزمة حقد على بقية المسلمين، وعندما توفرت لآل الحكيم الأدوات الكافية لشحن هذا الحقد شحنات عاطفية شديدة من الكره والخوف، والاستعداد لترجمة هذا الكره لحالة إفناء للآخر.. قام عزيز الحكيم وجماعته بنصب الكمائن على طريق بغداد – كربلاء، لقتل بعض الشيعة، كما ذكرنا في الجزء الأول.

وسواء كان الأمريكان أو الإسرائيليون أو الشركات الأمنية الخاصة هي التي قصفت كربلاء في عاشوراء في أواخر عام ٢٠٠٤ أو جماعة الحكيم؛ فالكل يقف في نفس الصف الواحد من الحقد الشعوبي على عرب العراق شيعة وسنة، والكل يجند نفسه لخدمة مشروع شارون – ايتان الهادف لنزع سلاح العراق، وتبديد ثرواته النفطية وتقسيمه إلى ثلاثة دول متناحرة، شيعية وسنية، وأخرى كردية.. إلا أن من الثابت ألا الخديعة الأمريكية التي سموها بالزرقاوي، ولا أي من السُنَّة هم من يقف وراء تلك التفجيرات.

ففي النصف الساعة الأول بعد حصول الانفجار أو التفجير، نقلت الكثير من الفضائيات ومن خلال مراسليها المتواجدين في المكان، مقابلات ميدانية مع الناس، أكد أكثر من واحد، إن ما قيل عنه تفجيرًا هو بفعل صواريخ جاءت من

١ – ص: ٤٩٠.

البساتين الشمالية القريبة، ثم بعد نصف ساعة خرج موفق الربيعي ليقول: إن التفجير كان انتحاريًا نفذه جماعة الزرقاوي، أطلق هذه التصريحات والشاشات مازالت تقوم بعمليات إخلاء الجرحى والقتلى، وصور الدماء مازالت تسيل في الشوارع، بما يعني أنه من الصعب جدًا على أي خبير أن يجزم بطبيعة التفجير، مصدره وأسبابه ومن وراءه، لأن الفاعل في حالة التفجير الانتحاري سيقتل كل من حوله، ولن يترك شهود عيان من بعده، إلا أن كل القنوات الفضائية بدأت تردد ما قاله الربيعي، ولم يأخذ أحد بالاعتبار شهادات شهود العيان الذين قالوا إن الحادث كان بتأثير صواريخ انطلقت من البساتين القريبة من شمال المدينة.

في نفس الفترة حصل تفجير قيل إنه بفعل انتحاري يقود سيارة مفخخة، دخل على معسكر للكوريين في مدخل مدينة الحلة، فأدى التفجير إلى قتل جندي كوري واحد وجرح خمسة آخرين.. وهذا دليل على ضعف التفجير.. إلا أن الغرابة التي تناقلتها وسائل الإعلام هو تهديم مجموعة من المنازل الواقعة على الطرف الآخر من الشارع (على بعد ٦٠٠-١٠٠٠ متر عن مركز الانفجار)، وقتل مجموعة من المدنيين، أي أن تأثير التفجير لم يقتل الأشخاص القريبين منه لكنه عبر الشارع ليقتل ويهدم بيوتًا، وقيل أيضًا أنها عملية من عمليات الزرقاوي الذي يريد قتل الشيعة العرب.

وعند التحقيق بالأمر، وكما قال الناجون من أصحاب البيوت المهدمة الذين شهدوا علنًا على شاشات التلفزيون أن بيوتهم تهدمت بفعل قصف جوي من هليوكوبترات كانت متواجدة في سماء المنطقة.

نفس المنهج في القراءة، يؤشر إلى أن هذه الأطراف هي من كان وراء نسف مرقد الإمامين العسكريين، اعترف في حينها باقر صولاغ، وكان يشغل ما يسمى بوزارة الداخلية، أن المسؤولين عن العملية مجموعة مدسوسة من ستة من الضباط هم من نفذ العملية، لكن لا أسماء هؤلاء الضباط ولا صورهم

نشرت، كما لم تنشر نتائج التحقيق، مع كل ما أعطته أبواق الشعوبيين من شحنات عاطفية على الحدث، أدى لحصول مجازر قتل فيها المئات إن لم يكن الآلاف من المسلمين من الطرفين، وأحرقت عشرات المساجد بما فيها من نسخ من القرآن الكريم، وكأن القرآن خاص بالسنة دون الشيعة أو أن المساجد بنيت لغير عبادة الله، أو هي دور عبادة لغير المسلمين.

أتذكر عندما كنت طفلاً صغيرًا في الخمسينات، كنت كثيرًا ما أرافق والدي في سفراته إلى بغداد، وعادة ما يكون برفقة صديق أو أكثر أحيانًا، وأتذكر عندما يحاصرهم وقت الصلاة يبحثون عن أقرب جامع؛ شيعيًا كان أو سنيًا، ليذهبوا للصلاة فيه، أبي بعمته السوداء وأصدقائه، يصلون فرادى أو جماعة، هويتهم الشيعية واضحة من عمة أبي، ومن تسبيل أياديهم في الصلاة، حصلت مثل هذه الحادثة أكثر من مرتين أو ثلاث، ولم أتذكر مرة أنهم تعرضوا لمضايقة حتى ولو بكلمة، فمتى أصبحت للمساجد هويات طائفية؟!.

بالمقابل كنت كثيرًا ما أشاهد بعض السُنَّة يصلي في مرقد الإمامين الكاظمين، هويتهم مكشوفة من خلال تكتيف أياديهم بالصلاة، ولا أعتقد أن أحد يمتلك الجرأة الأخلاقية أو الدينية لأن يتعرض لهم ولو بكلمة.

رغم كل الضجة التي لا شك كانت مقصودة، والتي رافقت أو تلت عملية نسف مرقد الإمامين العسكريين، الملاحظ أن لا أحد يأتي على ذكر تعميرهما الآن، وأهمل الموضوع، فقد استنفذ أهدافه، والشعوبيون مشغولين بتحقيق المزيد من التخريب والتهديم، وتهريب أموال الشيعة إلى الخارج لشراء المنازل الفارهة، والمزارع الغناء في لندن وباريس وجنيف وغيرها من مدن الغرب، حريصين على فرض سلطة قانون بريمر الذي ترجم مشروع شارون – ايتان، وشرعنها لتغدوا قانونًا لهؤلاء الشعوبيين بدلاً من دعاء الثغور المشهور للإمام علي زين العابدين، الذي ترجمه فقهاء التشيع تحت باب الجهاد الدفاعي – كما سبق أن ذكرنا.

أعتقد أن الأموال التي تصرف على مواكب اللطم، ونشاطات المدلل صاحب الدكانة المعنونة بشهيد المحراب ورأس مالها، كافية وحدها لإعمار المرقد الشريف في سامراء، إلا أنه يبدو أن لا مردود مادي مربح من وراء هذا الإعمار، فأجلوها إلى أن تتضخم أرصدتهم بالأموال مما يجمعونه من تبرهات باسم بناء المرقد.

أغرب ما في الأمر أن أحدًا لم يسمع صوت مستشار الأمن القومي، موفق الربيعي، في كل هذه المجازر التي تنفذ هذه الأيام بحق الشيعة العرب، في البصرة ومدينة الصدر، مع أنه كان دائمًا يتصدر الشاشات عندما يقوم الشعوبيين من أمريكيين أو إسرائيليين أو آل الحكيم بقتل الشيعة ليتبرع بتبرئة أسياده من الجريمة، بإلقائها على الزرقاوي أو الإرهابيين العرب القادمين من الخارج.

لا شيء يؤهل الربيعي لمنصبه هذا – مستشار الأمن القومي – غير الجهود التي بذلها في عرض إمكاناته لتنفيذ مشروع شارون – ايتان.

فالربيعي وكما هو معروف ابن شرطي من الشطرة، من الأكراد الفيلية.. نُقل أبيه للخدمة في شمال العراق في إحدى القرى التابعة لمدينة الموصل، وهناك أهَّله لقبه الجديد المزيف كربيعي لأن يتزوج من فلاحة تنتسب لعشائر الجبور (أي سُنية المذهب)، تاجر الربيعي بمذهب أمه عندما كان بعثيًا، وتشكى من اضطهاد الشيعة له بسبب أصول أمه، مطالبًا بإرساله إلى خارج العراق ليتخلص من هذا الاضطهاد.

حصل على بعثة للدراسة في بريطانيا لإكمال اختصاصه كطبيب، لم يوفق رغم أن اسمه موفق في دراسته، وهذا يعني العودة للعراق مع بداية الحرب العراقية – الإيرانية، وأداء خدمة الاحتياط العسكرية، وصادف وصول زميل له عانى من نفس الفشل في الدراسة، إبراهيم الجعفري، العضو القيادي في حزب الدعوة، فتبنى هذا الربيعي على أساس أنه من تلامذته من أيام الدراسة في

العراق، وفجأة أصبح الربيعي علمًا وكادرًا متقدمًا من كوادر حزب الدعوة، ونتيجة لتردد الكثير من أعضاء الحزب بما فيهم الجعفري نفسه من زيارة السعودية بعد ٢ آب ١٩٩٠، أبدى الربيعي استعداده للذهاب إلى هناك في وفد مشترك لما سمي بالمعارضة العراقية في حينها.

قدَّمت السعودية بعض المساعدات المالية لأعضاء الوفد، كانت حصة الربيعي ١٥٠ ألف دولار، اعتبرها الربيعي هدية شخصية له وامتنع عن إعطائها للحزب عندما طالبه بها، فطُرد من الحزب، وعاش الربيعي سعيدًا فخورًا بما جنى، وليذهب الحزب وشيعته للجحيم.

عندما بدأت المؤشرات تدلل على اقتراب موعد العدوان الأمريكي للعراق تنفيذًا لمشروع شارون – ايتان، التقط الربيعي الإشارة وفهمها على حقيقتها، ففتح منزله طيلة النصف الثاني من عام ٢٠٠١، وأقام الولائم الدسمة للطفيلين ممن يسمون بالشيعة، ليروج لما أسماه ب "إعلان الشيعة" الذي نشره في منتصف ٢٠٠٢، هذه هي كل خدمات ونضالات الربيعي، ولهذا الإنجاز العظيم كرمه بريمر بمنصب لا معنى له في ظل الاحتلال، الذي يمثل انتهاكًا فاضحًا للأمن القومي أو الوطني العراقي، مستشار الأمن الوطني.

لكن الداعية الطائفي الذي تبوأ الصدارة بين المدافعين عن حق الشيعة، كان من بين المحرضين لبريمر على قتل الشيعة فيما عرف بالانتفاضة الصدرية الأولى والثانية عام ٢٠٠٤، وفي عز القتل والظلم الذي يعاني منه الشيعة العرب في البصرة والكوت ومدينة الصدر وبقية مدن الجنوب هذه الأيام، اختفى ولم يظهر على الشاشات كما عودنا، تناقلت الأخبار ذهاب الداعية الشيعي الأول إلى السعودية ليسلم بنفسه بعض المطلوبين ممن كانوا معتقلين في العراق، لماذا إصرار مستشار الأمن القومي على السفر لتسليم هؤلاء المطلوبين بنفسه وهي عملية عادة ما يقوم بها صغار ضباط الشرطة، يقول أحد المتعصبين طائفيًا من ينتحل اسم طركاعة في ملاحظاته التي كتبها في موقع الثقافة العراقية يوم

٢٠٠٨/٣/٢٩ أن الربيعي راح ليقبض الثمن بنفسه، ولا نستغرب هذا الاستنتاج فمظلومية الشيعة لم تكن بالنسبة للربيعي وأمثاله إلا بضاعة للبيع والشراء، وهي أعطت أُكلها، ولم تعد بضاعة نافعة، العكس هو الصحيح، بضاعة اليوم الرائجة هي قتل الشيعة العرب.

- ٣ -

سبق أن كتبت في كتاب "العسكر والسياسة في العراق" ما يلي:

"تعرف أمريكا أن ما ستخلفه حالة الحرب من حالات هستيرية ممزوجة بالخوف والقلق والشك، والطمع والأنانية وحالة اللا استقرار، ستتفاعل جميعًا لتحول المنافسة إلى صدامات وصراعات مسلحة بين الأطراف المتكالبة على حيازة أكبر قدر ممكن من الغنائم والامتيازات، ستتولى أمريكا تقديم الدعم اللازم من مال وسلاح إلى جميع تلك الاطراف في وقت واحد، من أجل أن يأخذ التدمير المتبادل مداه الأقصى، وسيُقتل الشيعي بيد الشيعي، والسني بيد السُّني، والكردي بيد الكردي، كي تنعدم أية فرصة للعودة للتعايش الاجتماعي المشترك، والاندماج الاجتماعي المشترك، كما حصل في لبنان ودول البلقان – يوغسلافيا السابقة.

إن تغلب الرغبات الذاتية، وتأجيج الأطماع بأمل الحصول على أكبر قدر من الغنائم يعمي البصيرة، عادة، ويمنعها من ملاحظة معنى أن تدعم أمريكا جميع الجماعات المتنافسة وتدفعها إلى التناحر والتدمير المتبادل[١]".

كتبت الكتاب في حينها ردًا على الدعوة التي وردتني لحضور مؤتمر الضباط الذي انعقد في لندن من ١٢–١٤ تموز ٢٠٠٢، ولا يحتاج مثلي لمعرفة أهداف المؤتمر ومن يقف ورائه، والأهداف المطلوب تحقيقها من عقده، وهو ليس إلا جزء من التعبئة الأمريكية تحضيرًا للعدوان على العراق واحتلاله.

---

١ – ص: ٤٠، طبع الكتاب في تشرين الأول ٢٠٠٢.

لم تكن توقعاتي التي نراها تجري فعليًا على الأرض الآن، هي مجرد تكهنات، قد أثبتت الوقائع على الأرض صحتها، كما لم تكن تنبؤ قائم على قدرات غيبية بل هو قراءة وطنية مخلصة لأسباب العدوان والاحتلال، كان يمكن أن يتوصل لها أي كاتب موضوعي، محكوم بنزعاته الوطنية، إذا امتلك أدوات التحليل العلمي.

نفس التوجه كان يحكمني في كتابي "المقاومة العراقية والإرهاب الأمريكي المضاد"، في تحليلي للعمليات التي نفذها الاحتلال بحق الشيعة، والتي نسبها للزرقاوي، وأنا شيعي تربيت في عائلة شيعية، علمتني أن التشيع هو ليس إلا الإسلام بعينه، مفهومًا من خلال قيم وسلوك الإمام علي وأبنائه من الأئمة الأطهار، ومن الإمام علي تعلمت أن الخليفة عمر هو أصل العرب، أو هكذا وصفه وصفًا مجازيًا ليظهر مكانته في الإسلام والعروبة، ومنه فهمت أن شتم الخليفة عمر يعني شتمًا للإمام علي نفسه، وخروجًا على التشيع كما هو خروج على الإسلام.

وعلي؛ هذا الرائع العظيم ينهانا عن شتم الأمويين فهو يوصي أصحابه: "إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، لكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم.. اللهم احقن دمائنا ودمائهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم".

تبت يدى آل الحكيم، هؤلاء الشعوبيون المجوس، ومن يدري فولائهم للصهيونية أكثر من أي طرف آخر، وليس للإسلام، فهم يخططون لقلب التشيع إلى شعوبية ومجرد حقد على العرب والعروبة، ولطم وشتم لقادة العرب والإسلام.

لا يخطئ أي محلل عند ربط المجزرة الأخيرة للشيعة العرب بزيارة تشيني الأخيرة للعراق قبل تنفيذ المجزرة بأيام قليلة، في المؤتمر الصحفي الذي تلى لقاء ديك تشيني وعزيز الحكيم، قال عزيز مؤكدًا نجاح اللقاء الذي أظهر تطابقًا

كليًا في الآراء والمواقف، يتساءل المرء ما هي أسس التطابق بين قائد من قادة اليمين المسيحي المتصهين، الذي يرى أنه بقتله لآلاف العراقيين يؤدي واجب ديني مقدس، ومن يضع نفسه في قمة قيادة التشيع في العراق ممن يفترض أنه ينتمي لفقه آل البيت والإمام علي زين العابدين صاحب دعاء الثغور، أهم ركيزة من ركائز آل البيت، ويرى أن التقاعس عن الجهاد ضد من يستبيح ثغور المسلمين، كفرًا.

من أين لأولاد العطار "الحكيم" بائع الأعشاب الطبية أن يعرفوا قيم الإمام علي، تلك التي يتظاهروا بأنهم حماتها وناقليها، أين هم منها، وبأي حق يريدون توارث الزعامة والمسك بزمام الشيعة والتشيع، والإمام علي لم يوصِ لابنه الحسن بالخلافة، وهم لم يتوقفوا عن تقديم باقر وعزيز كقادة للشيعة، بل حتى سقط المتاع من أمثال عمار ومحسن، الذين يتهمهما حيدر بن باقر الحكيم – عمهما– في جميع مجالسه الخاصة بأنهم ناقصي الرجولة سراق تراث أبيه في النهب والسلب والدجل.

ومن الإمام علي عرفت أن الخوارج مع ما بينه وبينهم من قتال وخلافات، لم يخرجهم من الإسلام، ويمنع قتلهم، في خطبتين من خطبه المذكورة في نهج البلاغة، أحدهما خطبته المعروفة، في الليلة الثانية من جرحه بالضربة التي قتل بها عندما خاطب أبنائه وأحفاده: "يا بني عبد المطلب لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين خوضًا تقولون قتل أمير المؤمنين، إلا لا يقتلن بي إلا قاتلي.. انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور".

لعل في هذه الخطبة ما يؤكد تمامًا أن كل من عزيز الحكيم، وكلبه صولاغ، كانوا شيعة مخلصين جدًا لقيم الإمام علي، في استعمالهم للدرلات لقتل العرب من سُنة وشيعة. والمعروف أن قتلة الإمام علي هم الخوارج وليس عموم المسلمين، ويفهم من قوله هنا أنه لا يُخرج الخوارج من الإسلام، وما يؤكد هذه

القراءة، قوله الآخر: لا تقتلوا الخوارج من بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه[1].

تلك هي القيم التي ارتكزت عليها لأجد أن دُعاة التشيع أو المستشيعون الذين وضعوا أنفسهم في خدمة المحتل الصليبي – الصهيوني، هم ليسوا إلا شعوبيين ، يتسترون باسم آل البيت ليغطوا نواياهم الخبيثة في قتل العرب شيعة وسنة باسم آل البيت، وآل البيت براء منهم، كما أنهم براء من التشيع إلا اسمه، ومن هذه المقدمات عرفت أن هؤلاء المستشيعون لن يتورعوا يومًا عن القتل من أجل المصالح الخاصة، بغض النظر عن هوية من يعتقدون أنه يشكل تهديدًا لمصالحهم، رغم أنهم حاولوا تبرير تجاوزهم لأساسيات التشيع والإسلام بحجة أنهم يتطلعون لتخليص الشيعة من مظلومية وقعت عليهم، وهل هناك من ظلم تعرض له الشيعة في عهد من العهود أكثر مما يتعرضون له الآن.

لا نستغرب أن يحضر اللواء عطا وأمثاله من المرتزقة المتفجرات ويجهزونها لتمزيق أجساد الشيعة العرب في أي تجمع كان من مؤيديهم أو معارضيهم لاتهام التيار الصدري بذلك، يبدو أن الاحتلال اخطأ الحسابات بتعجله بقتل الزرقاوي أو الإعلان عن قتله، فبالأمس تمَّ حرق أسواق الفقراء في مدينة جميلة، وقالوا إن السبب كانت قذائف الهاونات القادمة من مدينة الصدر، مع أن الشاشات تعرض هاونات خفيفة، هي كل ما يملكه فقراء الشيعة، وهي لا تتجاوز في مدى أفضلها الكيلومترين، يعني حتى لو أطلقت من أطراف مدينة الصدر سوف لن تصل لأطراف مدينة جميلة، مع ملاحظة أن الدقة بالتوجيه تحتاج لمدفعية أكثر تطورًا، كشفت النائبة في مجلس النواب أسماء الموسوي، الفاعل الحقيقي، أنه قائد الفرقة ١١.

---

١ – نهج البلاغة، الجزء الأول، ص: ١٠٧-١٠٨.

لعل هذه الجريمة تفسِّر معنى تركيز نوري المالكي وتشديده على الأسلحة الثقيلة التي طالب "الخارجون على القانون" تسليمها، إنها تحضير لقصف مناطق الشيعة في أي مكان في بغداد، وتهيأة الأمور لاتهام أبناء مدينة الصدر.

اسأل قدوري أو الوزير الآن عبد القادر العبيدي (النائب العريف الطالب، آمر الحضيرة الرابعة للفصيل الأول في سرية المثنى في الكلية العسكرية عام ١٩٦٨)، كم كنا نسخر من ضباط الصف الجنود عندما كان يخطئ أحدهم، أحيانًا في التميز بين السلاح الخفيف والمتوسط والثقيل، كيف يرتضي اليوم أن يعمل بإمرة من لا يميز بين الهاونات؛ التي مهما كبر حجمها تظل من زمرة الأسلحة الخفيفة وأحيانًا قليلة المتوسطة، ما الذي أبقى رئيس الوزراء من وزن لمدفعية الميدان والدبابات والمدفعية ذاتية الحركة، قد لا يلومه الإنسان في أن يعتبر الهاونات الخفيفة أسلحة ثقيلة في جيش ليس لديه ولا مدفع واحد ذاتي الحركة أو دبابة، إنه العراق الجديد، عراق مظلومية الشيعة!

خاطب الإمام الحسين (ع) جيش عمر بن سعد: "ويلكم إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا في دنياكم أحرار، وارجعوا إلى أحسابكم وأنسابكم إن كنتم عربًا كما تزعمون".

والله لأخاف ولا أستبعد أن يخرج علينا أحد من هؤلاء الشعوبيين، ليضم الإمام الحسين (ع) للخارجين على القانون، تبت أياديهم، وتب قانونهم ودستورهم، دستور بريمر وحاييم فيلدمان، وشارون وايتان.

وليسَ بعامرٍ بُنيانُ قومٍ إن أخلاقهم كانت خرابًا

(المتنبي)

الفصل العاشر

النزعة الشعوبية لتسويق الطائفية تربويًا[1]

بشير الباكستاني المتطفل على العراق والنجف؛ يدعي أنه مرجع، برز فجأة في عالم النجف بعد وفاة الخوئي، بإمكانات كبيرة غير معروفة المصدر، بعكس ما معروف عن مجتهدي الشيعة في أن مواردهم تأتي من مقلديهم من الشيعة في العراق وإيران، هذا الرجل يشتري المقلدين والأتباع فهو من يدفع لمقلديه، اشترى بنايتين في النجف على أنهم مدارس لتعليم الفقه، سماهما دار المقلدين ودار الأبرار، رغم أنه حتى الآن لا يجيد تركيب جملة مفيدة باللغة العربية، يتكلم العربية بركاكة مفهومة بصعوبة، وليس هناك من دليل على كذبه فيما يدعيه من اجتهاد أفضل من ذلك، فكيف يستطيع الوصول للحكم الشرعي من القرآن والسُنَّة من لا يعرف لغة القرآن والسُنَّة ، حتى الخميني نفسه يشترط الإلمام باللغة العربية كشرط لبلوغ الاجتهاد[2].

لا يُحرِّم شيعة العراق المُتعة، لكن لو أن أحدًا طلب من أي واحد من شيعة العراق المتعة بامرأة من تابعياته، أعتقد أنه لا يتردد في قتله لأنه سيعتبرها فساد ودعارة، فهي مقبولة على شرط ألا تمس نسائهم، إلا بشير الباكستاني جعل من مدارسه الدينية وكرًا لهذا النوع من الدعارة، بحجة إحياء سنة آل البيت عنادًا بالخليفة عمر الذي حرمها[3].

١- ملاحظات حول تصريحات الطفيلي الباكستاني المتسمى بشير النجفي حول الانتخابات ٢٠١٤/٤/٢٨

٢ – محمد جواد مغنية، الخميني والدولة الإسلامية، ص: ٩٥.

٣ – عباس الزيدي الرماحي، السفير الخامس، ص:٣١٩.

ليس هناك من وقاحة بلغت هذا المستوى من العار والصفاقة أكثر من أن يحشر هذا الدعي من سقط المتاع نفسه في الشأن العراقي، مبتدئً حديثه بالاسطوانة القديمة عن مظلومية الشعب العراقي وشيعة العراق، لكن الغريب أنه يختزل المظلومية هذه المرة بعدم الاستماع إلى مطلبه بضرورة تغيير المناهج الدراسية في العراق لتكتب بطريقة ظلامية – شعوبية، حتى ولو اضطر الحاكم إلى تقسيم المناهج الدراسية إلى مناهج سنية وأخرى شيعية وتعميم ثقافة الجهل الظلامية، أي تعميم ثقافة التقسيم والانقسام.

ولا يخفي هذا الثور أن يصرِّح أن كل خلافاته مع المالكي، لأن المالكي رفض اقتراحه هذا، وبطريقة الدجال الرخيص الذي يستغبي الآخرين؛ يتظاهر بالبكاء من رواية وردت في كتاب الأغاني لأبو فرج الأصفهاني عن السيدة سكينة بنت الحسين، ويرى أن هذه الرواية كافية كسبب للمضي في نهجه التقسيمي لمدارس العراق ومناهجها التعليمية، رغم أن لا أحد يفهم معنى لهذا الربط بين المناهج الدراسية وكتاب الأغاني... يظل المعنى في قلب الثور!

ونفس الاسطوانة التكفيرية فإنه يدعو على المالكي لأن يحشر مع صدام لأنه ما زال (محب لمناهج صدام).. ولا يدري الإنسان بأي حق ينصب هذا الثور (المكطم على قول العراقيين) نفسه وكيلاً عن الله، فيوزع الناس يوم الحشر بين الجنة والنار، ومن أين علم أن صدام سيذهب للنار وهو سيحوز الجنة؟!

والسؤال أيضًا، وبغض النظر عن الموقف من الرئيس صدام؛ من أين لهذا الغبي المتطفل على المعرفة والثقافة والتربية الذي لم يحز حتى على شهادة التعليم الابتدائي، أن يفهم، أن مناهج صدام هذه التي أوصلت العراق إلى أن يقارب بلوغ مستوى الدول النامية، وأن أحد طلبات اليمين المسيحي المتصهين من صدام حسين أن يسلم ٥ آلاف عالم عراقي لوقف العدوان على العراق، وأن أسياد هذا الشعوبي الطفيلي من الشعوبيين هم من قتل الآف العلماء والأطباء والمهندسين؛ الذين تخرجوا في زمن صدام، ومن هيأتهم مناهج صدام

ليقودوا عملية التنمية والارتقاء بالعراق إلى مصافي الدول المتقدمة ، من الطبيعي أن يغضب ذلك كل الشعوبيين والحاقدين على العراق جمجمة العرب ، وحرس حدودهم الشرقية التي لم تغمض عينه يومًا عن ما يحصل في غرب الوطن العربي ووسطه ، وكانت قضية فلسطين قضيته المركزية الخاصة منذ الثلاثينات وأيام ياسين الهاشمي إلى صدام حسين ، ما جعله – العراق – موضوع حقد الصهيونية العالمية.

والسؤال: ماذا لو كان صدام حسين حيًا ، هل سيقبل تدخل الدخلاء وسقط المتاع بالشأن العراقي ، وهل يستطيع هذا الطفيلي أن يقول رأيه في ضرورة تغيير المناهج الدراسية لتتناسب مع حقده الشعوبي الغريب؟.

يمارس هذا المتخلف الكذب والدجل للترويج لأفكاره الشعوبية والمسمومة ، وكأنه يعتبر الكذب قاعدة جديدة من قواعد فقه آل البيت ، فيعتبر الاحتلال على أنه (إرادة إلهية في إزالة ذلك الكابوس) ، فالاحتلال إرادة إلهية واستقلال العراق كان كابوس ، ليشكل هذا الخارجي الشعوبي نموذج لفقه التأسلم الصهيوني المعولم ، خارجًا بحديثه هذا على فقه آل البيت ، الذي يعتبر أقوال الأئمة الاثنى عشر وسلوكهم اليومي كمنهج لتفسير الشريعة ، والإمام الرابع علي بن الحسين منهم ، والصحيفة السجادية التي تحوي على مجموعة من أدعية الإمام السجاد هي واحدة من أساسيات الفقه الجعفري ، فيها نجد أن الإمام علي زين العابدين يدعو في الدعاء المعروف بدعاء الثغور لنصرة الجيش الأموي في الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية ، نفس الجيش الذي قتل أباه وإخوانه وأعمامه.

الجهاد عند الشيعة نوعين ؛ جهاد ابتدائي ويعني الفتح تحت راية إمام معصوم لأرض غير إسلامية ولا يجوز أن يحصل إلا بقيادة إمام معصوم ، ودفاعي لمقاومة أي عدوان على أرض إسلامية من قبل قوات أجنبية غير مسلمة ، وهو فرض واجب على كل مسلم ومسلمة ، لكنا نرى أن هذا المتطفل على النجف

يقف على مسافات بعيدة جدًا من فقه آل البيت والتشيع، يوم صمت ولم يتكلم وقوات الاحتلال تجتاز الحدود العراقية، بل تدك مدينة النجف وتسحق حتى عظام أجدادنا في مقبرة النجف عام ٢٠٠٤، ولم نسمع لا فتوى ولا استنكار من هذا الكذاب الجبان.

والأدهى من ذلك يدعي هذا الكذاب الأفاق أنه لا يطمع في كرسي الحكم، بل هو جالس أو بلغته – كاعد – مهمته أن "يلوي آذان الكاعد على الكرسي إن كان لم يمشي عدل"، بغض النظر عن الموقف من هذا الجالس أو (الكاعد بلغة هذا الطفيلي) فإنه يمثل ولو اسميًا السيادة العراقية، فبأي حق يتجرأ أجنبي ويتحدث بهذه اللغة تجاه حتى لو كان فردًا عراقيًا بسيطًا، مع أنه تكلم كثيرًا عن ظلم الرئيس صدام حسين، إلا أن أحد لم يسمع له صوت لمجابهة هذا الظلم، بل رآه كل العراقيين جالسًا كالجرذ الملوية أذنه، أمام كاميرات التلفزيون العراقي مع عصابة الشعوبيين الأربع قبيل العدوان على العراق ببضعة أسابيع، ليؤكد توقيعه وختمه على فتوى كانوا أصدروها بضرورة الجهاد ضد العدوان ومقاومة الاحتلال، لكن فتواه وبقية العصابة مرت كعفطة عنز، وقوات الاحتلال تجتاز الحدود العراقية، ثم وهي تدك بمدافعها مدينة النجف، وتسحق بدباباتها حتى عظام موتى الشيعة في مقبرة النجف.

من مقولات الإمام علي وتوصياته لابنه الحسن (إياك ومصاحبة الكذاب فإنه يقرب البعيد ويبعد عنك القريب)، ولا يتوقف هذا الطفيلي المدعي زورًا بفهم فقه آل البيت عن الكذب، لعنة الله عليه وعلى كل شعوبي جند نفسه في خدمة أهداف اليمين المسيحي المتصهين.

ما مبرر كل هذا الكذب والتزييف الذي يمارسه بشير الباكستاني المتنكر لأصله بتبنيه لقب النجفي، إنه يريد أن يوصي الشعب العراقي، من حرصه على العراق وأهله بانتخاب (الكفء، الصادق الأمين)، فمن هو هذا الصادق الأمين، إنه عمار بن عطار الأعشاب، المتسمي هو الآخر بالحكيم.. كيف...؟!.

لأنه كما يقول الطفيلي النجفي أن عمار هو ابن المرجعية، وهو محق تمامًا بوصفه هذا لعمار الحكيم، فهو نتاج هذه المرجعية الشعوبية الحاقدة على كل ما هو عربي ومسلم، والتي ينطبق عليها وصف الوالي الأموي على خراسان في أواخر أيام الدولة الأموية، نصر بن سيار: "لا دين لهم إلا أن يُقتل العرب"... يلتقي عمار ابن المرجعية مع هذا الباكستاني المتنافخ بالمرجعية في أن كلاهما من سقط المتاع الذين ابتلي العراق بهم، والذين استثمروا طيبة ورحابة صدر العراقيين ليجثموا عليه حقدًا وتخريبًا... هم ليسوا عراقيين ولا يمتوا لعرب العراق، ولا لمواليهم بصلة، فبشير هذا أفغاني وقيل باكستاني، وعمار يحمل الجنسية الإيرانية، كشف الكاتب عادل رؤوف في كتابه: "العراق بلا قيادة" وثائق خدمة عمار الحكيم العسكرية الإلزامية في الجيش الإيراني إبان الحرب العراقية – الإيرانية، كمواطن إيراني.

ليس هنالك من دليل على عمق وحجم شعور هؤلاء بالدونية والنقص من تغيرهم لألقابهم وكنياتهم، وإلا متى كانت النجف دليلاً على نسب الشخص، إن أعرق عوائل النجف الأصيلة لا تستخدم المدينة لتأصيل نسبها.

تكلم النجفي كثيرًا عن غنى العراق وأموال العراق، (وهذا هو بيت القصيد من انتقاداته للمالكي) ، لا أحد يختلف معه في ما يجري من تبديد لهذه الأموال وسرقتها على المكشوف من لصوص العملية السياسية في زمن المالكي، الذي لم نشهد مقابل تلك السرقات بناء مدرسة واحدة أو مستشفى واحد في عهده، بينما بقيت الأموال العامة نهب له ولأتباعه، وقصة الوزير السوداني الذي سرق أموال فقراء العراق المخصصة للحصة التموينية وهرب لينعم بها في بريطانيا ، مكشوفة ومعروفة وجرت جهارًا وعلنًا مقابل صمت المالكي وحكومته... لكن عمار ليس بريئًا هو الآخر من هذه السرقات أيضًا ، ولم يكن كما وصفه الثور النجفي (صادقًا وأمينًا) بل هو أيضًا لص وسارق محترف يظلل بعمامة السوء التي يلبسها على نصب واحتيال وسرقات أتباعه، فسرقة

أموال بنك الكرادة من قبل عادل عبد المهدي، تمت بعز النهار... ولم نسمع عنها أي استنكار أو استهجان من قبل عمار الحكيم.

وعمار كان قد صرف في حملته الانتخابية في الانتخابات السابقة مبلغ ٢٥ مليون دولار، فمن أين أتتهم هذه الأموال، من (مال أمهاتهم أو أبائهم – المال بالعراقي تعني أمور كثيرة ليفهمها البعض كما يريد غير متحرج من الصفة أمام أولاد الآية).. إنهم جميعًا ليسوا إلا عصابات لصوص استغلوا غياب السلطة في العراق ليعثوا فسادًا، يسرقون وينهبون ويقتلون دون رادع.

ولو كان بشير هذا يفقه شيئًا من فقه آل البيت أو الولاء الصادق لهم لتوقف عن الكذب والدجل، ودعى إلى مقاطعة الانتخابات لا أن يكون بوق دعاية لمن يدفع له، بل إن الحكم الشرعي السليم يلزمه أن يدعو للثورة ومقاومة بقايا الاحتلال، وتكتيف هؤلاء اللصوص والسرسرية بعمائمهم أو تقديمهم لمحاكم وطنية عادلة، لا أعتقد أنها ستحكم عليهم بغير تهمة الخيانة العظمى للعراقيين منهم، وتهمة التجسس لغير العراقيين، وفقًا للدستور العراقي ما قبل الاحتلال.

إن الموضوع مفهوم جدًا لا دخل للسيدة سكينة بنت الحسين به ولا للإمام الحسين، يبدو أن المالكي قصر في هباته المالية للبشير الباكستاني ويسرها عليه عمار.. وإلا فإن كل دول العالم حتى أحادية الدين أو الطائفة أو الإثنية تعتمد المناهج المدرسية لخلق وحدة فكرية ثقافية لأبنائها، وباكستان دولة البشير التي ما زال يحمل جنسيتها، من هذه الدول.

وإلا أين العيب في أن يكون لسكينة ابن الحسين (صحت الرواية أو كذبت) ديوان أدبي، من قبلها جدتها خديجة كانت صاحبة تجارة تختلط من خلالها بالرجال، وتكتشف أمانة وخلق أحد عمالها (النبي محمد) فتخطبه لنفسها، وجدتها عائشة كانت تلتقي بالصحابة كراوية أو كسند مهم من أسانيد الحديث، بل تقود حربًا ضد الإمام علي الذي كان يترأس على قطعاته أخوها محمد بن أبي بكر، جدتها زينب لا تتحرج من أن تقف في مجلس يزيد لتخطب في عامة

المسلمين لإيضاح حقيقة موقف وثورة أخيها الحسين ، أي ضير وأي خلل بالشرف العربي أو الشيعي أن يكون لسكينة بنت الحسين ديوان لملتقى نخبة مثقفي عصرها، أو أن يكون ديوانها مجلس لتأكيد وحدة العرب والمسلمين.

لم يبقَ من الشيعة من هو حريص على سمعة ونبالة سكينة بنت الحسين إلا الباكستاني الذي أباح العبث بشرف العراقيات بتعميمه وتأسيسه لمراكز المتعة في النجف عاصمة العلم والتقوى، تلك هي أحد المآخذ على المالكي أنه لم يُكثر من عطاءه للباكستاني بشير، أو أن يسلك سلوك عبد المحسن السعدون وصدام حسين في إبعاد هؤلاء المخربين الغرباء، وقتها سيكونوا مستعدين لأن يقدموا له كل التنازلات كما فعل أسلافهم من قبلهم!

إذا افترضنا أن أبو فرج الأصفهاني، صاحب الأغاني، وهو من اسمه على طريقة الباكستاني بشير ليس عربيًا، لكنه يجيد اللغة العربية بطلاقة أدبية وبلاغية عالية قد تكون هي سببًا في حسد وغيرة بشير منه، أورد رواية عن السيدة سكينة كونها صاحبة ملتقى أدبي، هل هذا مبرر كاف لتقسم المناهج الدراسية إلى شيعية للطلاب الشيعة وسنية للطلاب السنة، هل سيلغي هذا كتاب الأغاني الذي طبع منه منذ ثلاثينات القرن الماضي عدة طبعات متوفرة في الأسواق والمكتبات العامة يمكن أن يطلع عليها من يشاء، لأي علاقة بين كتاب الأغاني وتغير المناهج التربوية كما يريد هذا المتطفل على الإسلام والتشيع والعراق.

إلا أنها الشعوبية الوقحة لسقط المتاع، وشذاذ الآفاق هي من يتحكم بالبشير النجفي وأمثاله من مراجع اليمين الصهيوني المعولم، شعوبيون لا دين لهم إلا أن يُقتل العرب.

الفصل الحادي عشر

مشروع الفيدرالية السُنّية

الزندقة في خدمة الاحتلال[1]

تردد الجماعات المحلية المجندة في خدمة الاحتلال ، السائرة قدمًا في عملية تدمير العراق ، بأن اللعبة السياسية في عراقهم الجديد مفتوحة للجميع شرط الإقرار والاعتراف بالعملية السياسية.

ماذا يعني هذا ؟

يعني الاعتراف بالأمور التالية :

١: أن الحرب التدميرية التي جرت على العراق، تدميرها لبناه التحتية، وقتل ما تجاوز المليون من أبناءه، وتهجير ما يقارب الأربع ملايين في داخل العراق وخارجه؛ هي عملية تحرير وحرية وديمقراطية.

٢: أن الدستور الذي وضعه الصهيوني فيلدمان، لخدمة توجهات إسرائيل في تفتيت العراق وإنهاك قواه؛ هو حق وعدل لا يقبل النقاش.

٣: أن تقسيم العراق ونظام الفيدراليات الغريب في شكله ومضمونه في تاريخ السياسة الدولية، هو حق وعدل.

٤: أن حل الجيش العراقي وتدمير أسلحته ، واعتبار العراق دولة منزوعة السلاح، لضمان خروج العراق من ساحة الصراع العربي – الصهيوني ، هو حق وعدل.

١ – تعقيب على تصريحات أسامة النجيفي حول الفيدرالية السنية ٢٠١١/٧/١.

٥: أن نهب ثروات العراق وتبديدها، وسرقة الأموال وتهريبها للخارج هو عملية مشروعة وعادلة.

٦: أن سياسة المحاصصة الطائفية، بهدف الترويج لانقسام المجتمع العراقي على أساس طائفي، هو عدل وديمقراطية ورفع للمظلومية عن طوائف الشعب وفئاته.

٧: أن ربط العراق بمعاهدة أمنية مع أمريكا تؤيد الاحتلال وتشرعه، هو إرادة وطنية مستقلة.

أما من يرفض هذه التخريصات فهو بعثي، صدامي، تكفيري، إرهابي!.

إن التمعن بهذه الشروط، يؤشر إلى أن المطلوب من العملية السياسية هي تدمير العراق وإنهاك قواه، لتهيئة الظروف المناسبة لإلغاءه من الخريطة الدولية، وكل واحد منها يتناقض ويتضاد مع أساسيات المصلحة الوطنية والأمن الوطني العراقي، بما يعني ممارسة فعلية لما يعرف بالخيانة الوطنية، هذا ليس اجتهادًا شخصيًا، أو مجرد رغبة خاصة لاتهام أصحاب العملية السياسية، بل إن مراجعة القوانين الأمريكية وسلوكيات السلطات الأمنية الأمريكية خاصة بعد حادثة ١١ أيلول تكشف ذلك، حيث تمَّ اتهام الكثير من الجنود الأمريكان بتهمة الخيانة على الشبهة بنياتهم للقيام بفعل ما يتعارض المصلحة الوطنية الأمريكية.

شبهات هي دون أي واحد من شروط العملية السياسية في العراق، أهمية، مثل الخوف من مخاطر محددة على المصالح الأمريكية والأمن الوطني الأمريكي، كحيازة معلومات سرية غير مصرح بالاحتفاظ بها بما يثير الشك في احتمال تسربها، أو تقديم حلويات من قبل مترجم في سجن غوانتينامو لأحد السجناء، أو مجرد أن ضابط أمريكي عرض استعداده لتقديم معلومات للقاعدة من خلال دردشة على الإنترنت[١]..

١- موسى الحسيني، المقاومة العراقية والإرهاب الأمريكي المضاد، الفصل الثالث: المقاومة.. المصلحة الوطنية ومعايير الوطنية والخيانة، ص: ٤٦-٥٢.

حتى الانتخابات التي تمت في العراق، طريقة تنظيمها، وتحديد مواعيدها، وشروط المشاركة بها؛ نظمت بما يتناسب مع الأهداف الأمريكية – الصهيونية لتشكيل غطاء وطني لتمرير ما يخططون له من إنهاك وإضعاف للدولة العراقية، وتصبح وظيفة البرلمان العراقي ليست إلا وظيفة شاهد الزور الذي يعمل على تشريع القوانين العدوانية المكملة لحالة الحرب على العراق وإنجاز مهمات العدوان على العراق، لتبدو وكأنها ليست إلا تعبير عن إرادة وطنية عراقية، أو حالة انتحار اختارها العراقيون ديمقراطيًا وبمحض إرادتهم، ويغدو البرلمان كما الحكومة ليس إلا أداة من أدوات العدوان على العراق وشعبه لتحقيق ما عجزت الحرب عن تحقيقه.

إن ما يثير الاستغراب هو أن يستغرب البعض أو يتظاهر بالدهشة لتصريحات النجيفي حول احتمالية أن يضطر السُنَّة إلى إعلان فيدراليتهم، ويثار اللغط والتكهنات حول الأسباب التي دفعت النجيفي لإعلان ذلك، وما هي مقاصده.

إن مجرد مشاركة النجيفي وغيره بالعملية السياسية، وزيرًا وهميًا للصناعة التي تمَّ تدميرها كليًا، أو نائبًا أو رئيس مجلس نواب، هو ارتكاب لفعل الخيانة العظمى، وليس هناك ما يؤشر أنه كان يومًا طائفيًا أو حريص على سنة العراق، بقدر ما أن التحيز الطائفي الظاهر أو الدعوى العلنية للترويج للطائفية دور مكلف بأدائه، لإتمام اللعبة، فمن تفائل خيرًا بوصول النجيفي ممن يدعي أنه من مناهضي الاحتلال، هو إما جاهل أو مندس على القوى المناهضة للاحتلال يتربص الفرصة ليتقرب من أدوار الخيانة بحجة أن النجيفي أو علاوي أحسن قليلاً من المالكي، أو أقل طائفية أو أهون الشرين.

إن دور المالكي لا يمكن أن يكتمل إلا بأدوار مرسومة على الطرف الآخر أن يلعبها لتكتمل اللعبة، ليس المالكي ولا الجعفري ولا عمار الحكيم ومن لف لفهم من الطائفيين من الشيعة، كما ليس المطلك أو النجيفي من المنتمين للطائفين السنة، هم فعلاً مؤمنين بالموقف الطائفي، يتمسكون به قناعة، وطلبًا لرضى

الخالق، كلاهما يقف في خندق واحد معادي للشعب العراقي ولا يمكن إنجاز اللعبة وتقسيم العراق وإثارة الفتن والحروب البينية إلا بتكامل دوري الطرفين.

إن كلا الطرفين مكلف بأن يتبنى دوره لإكمال الملهاة في تدمير العراق، إن الطائفي شيعيًا أو سنيًا ومهما ادعى من توجهات معادية لأعداء العراق، أمريكا – إسرائيل – إيران، يقف بالحقيقة وبشكل فعلي في نفس الخندق مع هؤلاء الأعداء، ويخدمهم مباشرة، فهذا ما يريدونه تقسيم العراق، وتناحر أهله فيما بينهم، تحريك بعض العملاء لإثارة الحديث عن المظلومية والمظلومية المضادة وردات فعل من هذا الطرف أو ذاك تقابلها ردات فعل من الجماعات الأخرى ويتشاغل الناس بأحقية من يجب أن يحكم، ومن هم الأغلبية أو الأقلية، ليبقى الاحتلال هو الحاكم الحقيقي، وتستنزف إمكانات وطاقات العراق، لتحافظ كل من إسرائيل وإيران على مصالحها الوطنية وأمنها الوطني، فصواريخ الاحتلال وقنابله وطائراته ليست طائفية ولا تميز بين العراقي السُّني أو الشيعي، المسلم من المسيحي أو الصابئي، فكل العراقيين بكل طوائفهم هم أهداف لها.

كما هي التفجيرات القاتلة في شوارع المدن الشيعية أو السُنّية في العراق، كانت تعبيرًا عن الإيمان المطلق بمذهب أو حنيفة أو مذهب جعفر الصادق الذين كانا متفاهمين، كل راضي باجتهادات الآخر إلى حد يمكن القول معه أن اجتهاداتهم كانت تكمل بعضها البعض، العكس هو الصحيح أن هذه التفجيرات تأتي لتفرض وتختلق عداوة وكرة وهميين بين أبو حنيفة وأستاذه جعفر الصادق، ودفع أبناء الدين الواحد ليتخاصموا ويتقاتلوا من أجل هذه العدواة والكره المُتخيلين، ليحرك المتخلفون والمرضى لينتقموا من جعفر الصادق جزاء عداوته المفترضة مع أبو حنيفة، وإلا لو كانوا مؤمنين بفقه هذين الإمامين ومتمسكون بجوهر اجتهاداتهم الفقهية، لمنعتهم تلك الاجتهادات من قبول عمليات القتل الجماعي هذه.

إن النجيفي ، الذي يتظاهر بالتعصب لسنة العراق ، لم يتخذ أي موقف من الحملات العدوانية التي قامت بها القوات الأمريكية بمساعدة مرتزقة ما يسمى بالجيش أو الشرطة العراقية في ما عرف بخطة فرض القانون، عندما تحولت هذه القوات لتطبيق الخطة في الموصل وديالى، سمعناه فقط يعبر عن مخاوفه من أن تطال الخطة بعض الأبرياء، لكنه لم يوضح لنا ما هو ذنب المقتولين ممن اعتبروا خارجين على القانون.

والخروج على القانون بمفهوم رواد اللعبة الصهيونية – الأمريكية – الإيرانية في العراق ، ليس الخيانة الوطنية أو القتل أو السرقة أو الاعتداء على الحق العام؛ فتلك أفعال مشروعة يمارسها دُعاة العملية السياسية بكل فخر ، بل هو الموقف الوطني الرافض لوجود الاحتلال، الذي يرى المقاومة حق بكل الشرائع السماوية والوضعية، باعتبارها حق للدفاع عن النفس والعرض والأرض..

ثم بأي حق يدعي النجيفي أو العيساوي أو المطلق أنهم سنة ، وهم بالأساس ليسوا إلا زنادقة خارجين على الإسلام، لم يترك لهم الكتاب الكريم من فرصة ليلتفوا بها على قيم الإسلام ، فالآية ٤٤ من سورة المائدة تقول بما لا يقبل التأويل أو التفسير: "وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ"، ومهمة النجيفي هو شرعنة دستور وضعه الصهيوني نوح فيلدمان، كل ما فيه يتناقض مع الشريعة الإسلامية ، وينضح بالعداء للإسلام والمسلمين ، ويروج لعقائد اليمين المسيحي المتصهين ، دون أن يكون لذلك من علاقة بالحكم بما أنزل الله!.

تلك هي وظيفة النجيفي الأساسية ، فما علاقته بالإسلام أو السُنَّة وعموم المسلمين حتى ينصب نفسه داعية يريد عزلهم عن بقية أهلهم من المسلمين ، كيف يمكن عزل أبناء عشائر البو ريشة السُنّية في الأنبار عن أهلهم من عشائر البو ريشة الشيعة في قضاء الخضر ، أو بعض أفخاذ كبيسة السُنّية عن عشائرهم من آل غزي الشيعة في الناصرية، أو عشيرة آل فتلة الشيعية في

المشخاب عن أبناء عمومتهم السُنَّة في الأنبار، وينطبق الأمر على الجبور وشمر وآل بو علوان غيرهم من العشائر والعوائل العراقية المقسمة بين الطائفتين، بما فيهم عوائل السادة من آل البيت.

لماذا يريد النجيفي هذا؟!، إن الوقائع تقول: إن الطرف الآخر من معادلة اللعبة الطائفية الخبيثة لم يمنحهم الفرصة الكاملة ليتقاسم معهم سرقة خيرات العراق مناصفة أو بنسب قوية، أو لم يعطهم مساحة كاملة من الفرصة لخدمة اليمين المسيحي المتصهين، هم حلفائم ويقفون معًا في خط وخندق واحد ضد الشعب، لا دخل للسنة أو الشيعة بذلك، فأبناء الطائفيين يغدون أعزاء على القلب، وموضوعًا للحرص إلا بقدر ما يدرون من أرباح ومنافع للمتنافخين بالطائفية.

هولاء ليسوا مسلمين بالأصل بل من دُعاة المسيحية–الصهيونية، فهم ليسوا من السُنَّة إذًا، إن مذهب أبو حنيفة النعمان وهو أحد المذاهب الإسلامية التي تشرع الجهاد ضد أي شكل من أشكال العدوان الصليبي على أرض مسلمة، ويمارس هؤلاء الخيانة لمذهب أبو حنيفة يوم ارتضوا القبول بالاحتلال ونتائجه، كما يمارسوا الخيانة الوطنية في أوضح صورها، هم لا علاقة لهم بالوطن أو الوطنية، وليس هناك من تفسير لدعواهم بالإقليم السُّني إلا جزء من عملية اللعب بمشاعر البسطاء من أبناء السُنَّة لجرهم إلى مجازر الذبح وحرمانهم من خيرات العراق طمعًا فيما سيقدمه المحتل لمنفذي سياساته من امتيازات.

ينطبق الأمر على القتلة من تجار الأنبار المقيمين في عمان بانتظار أن تتكرم عليهم قوات الاحتلال بمقاولة نقل مقابل أن يقدم كل واحد منهم قائمة بعشرة أسماء من المقاومين من أهل الأنبار والفلوجة، ويحتار الإنسان؛ أليسوا هؤلاء المقاومين من المواطنين العراقيين ممن هم على مذهب أبو حنيفة النعمان، كيف يجوز التعاون مع العدو لقتلهم من خلال التعريف بهم وبعناوينهم، وكيف يمكن أن يتماشى هذا مع إدعاء الحرص على حقوق الطائفة.. ثم هل فعلاً حصل الشيعي من أبناء الناصرية أو السماوة أو الديوانية والعمارة على حقوقه

كمواطن حتى يقال إن هناك حيفًا قد وقع على المواطن السُّني في تكريت أو الموصل أو الأنبار لصالح المواطن في مدن جنوب بغداد.

لا شك أن الأمريكان هم من أكثر الأمم تقدمًا في ميادين علم النفس الاجتماعي، ولهم الكثير من مراكز الدراسات والجامعات والمؤسسات التي تقدم لهم النظريات الجاهزة عن كيفية تسويق الزعامات الموالية لهم، فهم يدركون بحس اللص المعتدي أن العراقيين يكرهون المحتل والاحتلال وكل من يتعاون معه، لذلك يسوقون أنصارهم بالترويج إلى أن هؤلاء الأنصار من المعادين للاحتلال ويكلفونه بلعب هذا الدور ليسيطروا من خلالهم على قطاعات واسعة من الشعب، يظل هذا الزعيم المصنع يسرح بها بتصريحات نارية، ليجرها للمطاوعة لخطط المحتل والقبول بها.

إن شمول كل من المطلق والعيساوي، بقانون اجتثاث البعث قبيل الانتخابات وبعد عودة المطلق من زيارته لأمريكا التي ذهب بها على ما يبدو ليتمرن على أدواره في اللعبة الجديدة، كان أحد تطبيقات لعبة صناعة الزعامات المحلية، الموالية للاحتلال والجاهزة لخدمته باتفاقات مسبقة، لتبدو مساهماته في تخريب العراق وكأنها إرادة عراقية وخيار وطني عراقي تبنته زعامات محلية ليست محسوبة على المحتل ظاهريًا.

كشف بريمر عوراتهم، فالعملية السياسية التي يقولون إنها جاءت كمطلب شعبي عراقي أو تحقيقًا لإرادة عراقية، يقول عنها بريمر وهو يتحدث عن أحد اجتماعاته ببوش: "قبل انتهاء الاجتماع قلت من المهم أن تقدم العملية السياسية الجديدة على أنه فكرة للعراقيين لا فكرتنا... ضحك الرئيس بوش وقال: أوافق على ذلك يا بريمر[1]".. وبريمر هذا من المختصين بعلم النفس الاجتماعي، أيضًا.

---

١ – ص: ٢٩٠.

على الطرف الآخر صنع المحتل زعامة مقتدى الصدر ، الداعية المعارض للاحتلال بالكلام ، المشارك حتى العظم بالعملية السياسية التي صنعها بريمر ، وقدمها على أنها فكرة العراقيين ، ليحقق من خلالها ما عجز العدوان من تحقيقه فقدَّم مقتدى على أنه عدو شرس للاحتلال ليضمن بذلك خضوع وسكوت ملايين العراقيين من الكارهين للاحتلال ، بانتظار خطط زعيمهم الفطحل في التخلص من الاحتلال... وعندما حان وقت سحب بعض من قوات الاحتلال انبرى مقتدى الخائن لقيم أبيه ومذهب آل البيت ليروج لفكرة ضرورة إجراء استفتاء شعبي حول الانسحاب ، وكنت أتمنى من أبنائنا ممن محسوب على تيار الشهيد محمد صادق الصدر أن يسأل نفسه ؛ وهل جاء المحتل باستفتاء أو استجابة لمطلب شعبي عراقي حتى يغدو سحب بعض قواته خاضعًا لنتائج استفتاء معروفة نتائجه مسبقاً؟!.

إن كل من النجيفي والعيساوي والمطلق ومن شابههم من الخونة من قتلة شعبنا من تجار الأنبار يقف في صف واحد مع عمار الحكيم والمالكي والجعفري والسستاني ومن شابههم ، كما هو جلال الطالباني ومسعود البرزاني ، خدام طيعين في إمرة السفير الأمريكي ، وقادة حركة اليمين المسيحي – المتصهين ، ضد شعبنا بكل طوائفه وقومياته، جزارين زنادقة لا يفهموا من الأخلاق والدين والوطنية إلا ما يخدم رغباتهم وشهواتهم الدنيوية المريضة.. لعنة الله عليهم إلى يوم الدين.

الفصل الثاني عشر

دراسة في سيكولوجية رجال الدين الجُدد

رجال دين أم حفنة من النصابين والفاشلين

هناك ملاحظة ربما لم ينتبه لها البعض وهي: أن الأجيال الجديدة، أجيال ما بعد ثمانينات القرن الماضي من رجال الدين من الطائفتين الشيعة والسُنَّة هم عادة من الطلاب الفاشلين في دراساتهم ومحدودي الذكاء، وبعضهم من أبناء الشوارع الذين قضوا طفولتهم ومراهقتهم على هامش الحياة يتنقلون بين أعمال وأفعال ومهن متواضعة أو من تلك التي تتميز باعتمادها على الشطارة والفهلوة واستغلال طيبة الآخرين لبيعهم بضائع سيئة بأغلى الأسعار، أو عمال (صناع) في محلات الآخرين.

هم ليسوا مما نعرفهم من رجال الذين عهدناهم خلال الفترات السابقة بما يتميزون به من زهد وتقوى وورع، وتمسك بالأخلاق ومراعات للآداب العامة.. بالنسبة لرجال الدين الشيعة في العراق ومنذ الحرب العراقية الإيرانية، نجد أن غالبيتهم من الجنود المتهربين من الخدمة العسكرية، فالنظام السائد في العراق وإلى يوم الاحتلال، إن الطالب الفاشل في الدراسة الابتدائية أو حتى الثانوية العامة يخضع لقانون الخدمة العسكرية الإلزامية عند بلوغه الـ ١٨ سنة، وبعد أن استنزف الكثير منهم كل أساليب التحايل على القانون، بدعوى العجز وحتى الجنون، أو غيرها من الأساليب الأخرى اكتشف بعضهم أن التسجيل في المدارس الدينية يؤجل خدمتهم العسكرية فتهافتوا على تلك المدارس، لا إيماناً ولا رغبة في تعلم الفقه بل كهروب من الواجب الوطني.. أي أن كل علاقتهم بالدين هو ما يمثل لهم من وسيلة تحايل وكذب وتزييف الغاية منها الخلاص من الخدمة العسكرية.

والآن وقد غدا الدين من أفضل وسائل الارتزاق، لم ينزع أحدهم العمامة حتى مع إلغاء قانون الخدمة الإلزامية في العراق بعد الاحتلال، لأنهم اكتشفوا على ما يبدو أن امتهان الدين قد يوفر لهم حياة رفاهية لا يمكن أن يحققوها في مجالات الحياة الأخرى، مع تدني قدراتهم العقلية والمعرفية، وقصورهم العقلي وتدني مستويات الذكاء عندهم، لذلك نراهم يلجئون إلى متابعة ما هو متدني وتافه من الكتب التجارية المكتوبة بلغة ومنهج خرافي مبسط يعتمد اختلاق القصص الخرافية الأقرب للهلاوس عن كرامات الأئمة ومكانتهم قد يصل بعض هذه الروايات حد الشرك دون مراعاة أو فهم أن مكانة آل البيت يفترض أنها بُنيت على أساس تمسكهم بالشريعة وإيمانهم المطلق بالخالق وقدراته، وليس منافسته مكانته أو عرشه.

علاقتهم بالدين محصورة بالمؤسسة الدينية التي منحتهم هذه الفرصة لتخلصهم من متاعب الخدمة العسكرية وتوفير مستوى من العيش ما كان يمكن أن تتوفر لهم لولا هذه الفرصة التي قدمتها المؤسسة الدينية الطائفية لهم، فلا علاقة لهم بالإسلام كدين هم لا يفهموا منه إلا بحدود ما تراه الأدبيات الطائفية، لذلك هم طائفيين ليس إيماناً وعقلاً أو تمسكًا بالطائفة أو تفضيلاً لها على غيرها من الطوائف جاءت نتيجة مقارنة عقلية أو معرفية بين المدارس الفقهية المختلفة، بل هم يتحزبون ويتعصبون للطائفة كمصدر للعيش والرزق والرفاهية حتى، أي أنه موقف دفاع عن مصالح شخصية مرتبطة مصيريًا بالوضع الطائفي.

لنأخذ مثلاً أكثر شخصيتين شهرة بين رجال الدين الشيعة، عمار الحكيم، ومقتدى الصدر، ولنتابع ما الذي قدماه للدين أو الإسلام عمومًا ما يمكن أن يمنحهم ما يعيشونه الآن من امتيازات وأموال ومكانة اجتماعية تؤهلهم للتدخل بالشؤون العامة للعراقيين، لن يجد أي باحث أو مدقق في تاريخ حياتهم أو سيرهم ما يمكن أن يمثل خدمة للدين أو حتى الطائفة بما يستحق بالمقابل التمتع بكل هذه الامتيازات التي كسبوها، علاقتهم بالدين تُختزل في أنهم أبناء أو أحفاد

مراجع سابقين، مع أن الخالق علمنا من خلال كتابه الكريم أن الدين والإيمان لا يورث حتى لأبناء الأنبياء، وابن نوح خير مثال، ولا يختلف عندهما دور العِمامة كونها وسيلة نصب واحتيال على القوانين، فعمار لبس العمامة ليتهرب من الخدمة العسكرية الإلزامية في إيران كمواطن إيراني، كما تثبت وثائق سيرته ذلك، ولا يختلف موقف مقتدى كمواطن عراقي عن ذلك.

مقارنة بأجيال رجال الدين في فترات ما قبل منتصف السبعينات والثمانينات، تتسع الهوة ما بين المجموعتين إلى حد يصعب معها المقارنة، فما عرفناه من جيل ما قبل سقط المتاع هذا الذي لبس العمامة إما هروبًا من الخدمة العسكرية أو طلبًا للعيش، نجد أن المعمم من جيل رجال الدين السابقين على فترة العهر والتخريب الديني هذه يحترم عمامته وزيه، إن لم يكن بمعرفته وعلمه فبإخلاقه وسلوكه يفرض احترامه على الناس.

استفاد بعضهم من فرصة تأسيس كلية الفقه ليلتحق بها لبرمجة أفكاره وقراءاته ومعرفته، تابع البعض دراساته العليا، كما هو الشيخ الدكتور أحمد الوائلي والسيد الدكتور مصطفى جمال الدين، راح البعض الآخر يبرمج قراءاته وأفكاره ذاتيًا، فكتبوا بحوثًا مهمة في التاريخ والفقه والتحقيق، كتب مثلاً الشيخ أسد حيدر بحثه المشهور بالفقه المقارن "الإمام الصادق والمذاهب الأربعة"، ما يحتاج معه المراجع الذين عرفناهم من أبو الحسن الأصفهاني إلى السستاني مرورًا بمحسن الحكيم والخوئي، إلى عمر يعادل ما عاشوه ليكتبوا مثله أو حتى ليفهموا محتواه، مع ذلك ظل الرجل يبتعد عن أي من ألقاب النصب والاحتيال، ويرفض بل يحتج أن يلقب بأكثر من علامة، لا آية الله ولا حجته ولا حجة الإسلام.

اخترع أو صَنع سقط المتاع هذا ألقابًا ما أنزل الله بها من سلطان ليضفوا على أنفسهم معاني من القدسية والأبهة والمعرفة يغطوا بها جهلهم وتخلفهم، فصرنا

نسمع بألقاب مثل (حجة الله)، (حجة الإسلام والمسلمين)، (آية الله) وأضافوا عليها العظمى، يعني هناك آيات صغرى أيضًا.

تسافلت حتى درجات الاجتهاد، التي يبدو أصابتها عدوى الدكتوراة المزيفة التي صارت شائعة في السنوات الأخيرة، إلى حد أن يتجرأ من لا يستطيع أن يركب جملة مفيدة باللغة العربية، أمثال بشير الأفغاني والسستاني وغيرهم من الإدعاء بالاجتهاد والمرجعية، مقابل ما رأيناه من بحوث قيمة تخضع للشروط المنهجية لمواصفات البحث العلمي، كما أبدع بذلك السيد محمد باقر الصدر.

تمسك سقط المتاع هذا بقراءة كتب الخرافة والدجل، راحوا يروجونها على أنها العلم، وتحول معهم تراث التشيع إلى قصص عن المهدي المنتظر المهندس الذي يُصلح الطائرات المعطوبة وهي في الجو، ويدعي الآخر أنه يرى السيدة فاطمة الزهراء تختبئ وراء نخلة تراقب مجالسه لتسجل أسماء من سيبكي على الحسين ومن لا يبكي لتضيفها إلى سجله فيدخل الجنة أو النار، وقصة أخرى عن هذا القبطان السيخي الذي لا يسافر على ظهر سفينته من البصرة إلى الهند إلا بعد أن يأخذ معه مجموعة من (ترب الصلاة)، ليهدأ بها البحر ويسكن العواصف التي تهب عليه.

وقصص عن أحلام تأتي بها السيدة الزهراء لتشكو عند أحدهم من الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، أو لتبلغ الآخر سرًا أو معرفة أو تعويذة لمعالجة كل الأمراض، وغيرها من غرائب القصص التي لا يمكن أن يقبلها ويرويها صاحب عقل سليم، يتشدق بها هؤلاء النصابين ليخدعوا الجهال والمتخلفين أنهم وصلوا إلى درجة من العلم والتقوى ما يجعل الأئمة يظهرون من قبورهم إعجابًا وسحرًا، ليتسابقون في التزلف ومدح هذا النصاب أو ذاك، ويظهر المهدي المنتظر من غيبته ليروي لأحدهم خرافة أو حديث زائف.

إنهم يسفهون تراث التشيع والأئمة والدين بكذبهم وخرافاتهم ودجلهم، تغدو الطائفية عند عديمي الضمير والأخلاق من هؤلاء الدجالين سلاح يتمسكون به للدفاع عن ما حصلوا عليه من امتيازات ومتع الدنيا.

لذلك ومقارنة بجماعات رجال الدين من الأجيال القديمة الذين نجدهم في وعظهم أبعد ما يكونوا عن التحريض الطائفي دون أن يتخلوا عن ولائهم الصادق لآل البيت، آداتهم الحجة والدلالة المنطقية والعقلية، بل هم من دُعاة الوحدة والتقارب الإسلامي، نجد سقط المتاع من النصابين الجدد الذين اتخذوا من العمامة واللحية والمسبحة عدة لنصبهم واحتيالهم، يندفعون بالترويج للطائفية والحفز على التعصب الطائفي.

بالنسبة للسُّنة وملاحظتي قد تنطبق على الوضع في العراق، غير متأكد من غيره من البلدان العربية، رغم أني اعتقد أن الأمر لا يختلف كثيرًا.. ففي العراق، هناك نظام في القبول في الكليات المختلفة يستند للمعدل العام للطالب في المرحلة الثانوية، وتتدرج المعدلات من الطب والصيدلة والهندسة إلى الحقوق والاقتصاد والسياسة وغيرها من الفروع، ما حصل في سنوات السبعينات والثمانينات وقد اشتدت المنافسة بين الطلاب مع تكاثر أعدادهم، بدأت الجامعات لا تتقبل أصحاب المعدلات الأقل من الستين بالمئة، ولم يعد للطالب ذي المعدل المتدني، من فرصة أخرى، إما ترك متابعة الدراسة، أو السفر للدراسة على حسابه الخاص في الخارج، أو القبول بأداء الخدمة العسكرية ومتابعة حياته بعيدًا عن العلم والمعرفة..

فقط كلية الشريعة بقيت مفتوحة أمام المعدلات القليلة، فكانت تجمعًا للفاشلين أو محدودي الذكاء ممن لم يتمكنوا من حيازة المعدل المطلوب لدخول الكلية التي يرغبون أو من تلك التي يمكن أن تؤهلهم لمستقبل مهني أو اجتماعي أفضل، ويغدو الدين بالنسبة لهم مجرد وسيلة عيش، كما كان وسيلة لتخلصهم من متاعب الخدمة العسكرية.

فلا غرابة أن نجد بعضهم وهو يعرف أنه ما كان له أن يدخل الشريعة لولا خيبته، لذلك يعوض مشاعر الدونية التي تتحكم في دوافعه بالتكابر والتظاهر بأنه يمتلك الحقيقة المطلقة، متظاهرًا بالإيحاء بأنه على علاقة مباشرة بالخالق تميزه عن الآخرين، فنرى منهم من يدعي أنه رأى الملائكة راكبة على ظهور جياد بيضاء تقاتل مع المتمردين في سوريا، وهذا يدعي أن النبي خصه بالزيارة ليبلغه رسالة ما متخيلاً نفسه أو يريد أن يصورها بأنها على درجة من التقى والورع تقترب من حالة النبوة التي يوحي لها، لكنه يستبدل جبرائيل بالنبي.

والتمسك بالإدعاء بالقرب من الخالق من خلال الإدعاء برؤية النبي في الحلم يستبدلها رجال الدين الشيعة باللقاء بالحلم بالإمام المنتظر، ظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا بالكذب والنصب والتحايل على الله ونبيه وآل بيته، لمخادعة السامع أو التابع والمريد، والكذب والتحايل بهذه الحالة يعكس حالة من الدونية تنتفي فيها المفاهيم الأخلاقية الإنسانية المعروفة فهي حالة سقوط أخلاقي، أو هي حالة من حالات الهلاوس التي تشير إلى مستوى مرضي من الانفصام أو الشيزوفرينيا، يطلق عليهم سيد قطب في كتابه "معركة الاستعمار والرأسمالية" صفة المشايخ والدراويش[١]، "فهؤلاء رجال الدين أبعد خلق الله عن أن يمثلوا فكرته، ويرسموا صورته؛ لا بثقافتهم ولا بسلوكهم ولا حتى بزيهم وهيئتهم"، فهم بالغالب موظفون واجبهم الترويج لسياسة الحاكم وتسويغ ممارساته مهما كانت بعيدة عن الدين بإضفاء الشرعية عليها.

لا شك أن هناك حالات شاذة من العلماء الأفاضل الذين يخشون الله ويتقونه، منهم من واصل دراساته العليا لنيل الدكتوراة، ترى هؤلاء المبدعين في دراساتهم هم الأبعد عن الطائفية والأكثر ارتباطًا بالموقف الوطني وتطلعات شعوبهم، كما هو الدكتور الشيخ حارث الضاري، والدكتور الشيخ أحمد

---

١ - (ص: ٦٩) ويصفهم في الصفحة ٦٣.

الكبيسي وغيرهم ممن لا تردني أسمائهم الآن ممن ارتقى ولاءه الوطني على انتماءه الطائفي، ولو أنهما لم يسلما من تهمة الطائفية، الاتهام بالطائفية هنا قد لا يكون أكثر من حالة إسقاط سيكولوجي أو حالة عزو، أي أتهم الآخر بما عندي.

من رصد ومتابعة سلوكيات رجال الدين الجدد من الطائفتين نلاحظ ما يلي:

١: إن تدني مستويات الذكاء التي تحكمهم وتحد من قدرتهم على الإبداع والتجديد، تجعلهم يتهربون بقراءة ما هو تافه ومتدني من كتب الأخبار أو الفقه المبسط التي كان قد كتبها من هم بمستوياتهم، لذلك لم نسمع منهم مناقشة أي من موضوعات الحياة المهمة والحساسة للمجتمع، مثل الدعوة للاستقلال الاقتصادي والتوقف عن التبعية للخارج (عالم الكفار) في استيراد كل مقومات الحياة حتى البسيطة منها، العقال والدشداشة أو حتى النعال والحذاء ناهيك عن بقية الصناعات، إلى المواد الغذائية الأولية كالخبز واللحوم والخضروات والفواكه، وكأنهم يعيشون بعزلة عن الحياة والواقع من حولهم، فيعمدون لإثارة انتباه السامع أو المريد من خلال دغدغة الغرائز الشاذة في نفسه وتبريرها، كالفتاوى الخاصة ببول البعير ونكاح الوداع وإرضاع الكبير، وتحريم جلوس البنت بمفردها مع أبيها وغيرها من التفاهات الثانوية التي لا صلة لها بالحياة العامة للمسلم، وما يعيشه من حالة تخلف تجعله يقف خارج التاريخ وحركة التطور البشري.

٢: إن تدني مستويات ذكائهم التي تحرمهم من القدرة على الإبداع، تعيقهم حتى من الوصول للقدرة على استنباط الحكم الشرعي المناسب، وهم يدركون طبيعة عجزهم ومحدودية تفكيرهم لذلك نراهم عند الضرورة والاضطرار يلجئون إلى استنباط أحكامهم من التاريخ أو السلف كما يسمونه، فيعالجوا مشكلات عصرية بأحكام مر عليها أكثر من ألف عام، دون الأخذ بالحسبان تطورات العصر التي

يعيشها المجتمع الإنساني، والتغيرات الكبيرة التي فرضها التقدم التكنولوجي على الحياة، ولعل قضية المرأة والمطالبة بعودتها إلى المنزل واعتبارها عورة لا يصح حتى أن تسير في الشارع بمفردها، أي حرمان المجتمع من نصف تعداده، بل إلغاء دور الأم التربوي من خلال حرمانها من المعرفة والتعلم، ما ينعكس بالسقوط على النصف الآخر، أولئك الرجال الذين تربيهم هذه المرأة المراد لها أن تتحول إلى مجرد بضاعة لقضاء حاجة الرجل في الفراش، دليل على فشلهم في حل المشكلات الجنسية للشباب، من خلال الدعوة لتخفيض المهور أو بناء المؤسسات الخدمية التي تيسر الزواج وتطور بنى العائلة ورعاية احتياجاتها، إعطاء المرأة الحق في اختيار زوجها كما هو معروف في أحكام الشريعة.

٣: إنهم ورغم كل ما يتمتعون به من امتيازات، ومكانة اجتماعية لا شك أنها لا تطفئ مشاعر الإحساس بالفشل والدونية عندهم، ومشاعر الفشل تشكل عادة أساس لمشاعر الحسد والحقد والكراهية من أولئك الناجحين ممن شق طريقه الاعتيادية في الحياة دون أن يحتاج للكذب والنصب والاحتيال باسم الدين، كما أن من خصائص الفشل أن الفاشل يلقي اللوم دائمًا على الظروف أو الناس من حوله، لذلك نجد بوضوح إمارات الحقد على المجتمع والعداء له والرغبة بتدميره قصاصًا منه لأنه بتصوراتهم كان السبب في ما يعيشونه من ضغوطات الإحساس بالدونية والفشل.

وليس ما نراه من خطب ووعظ وحث على استنهاض التعصب الطائفي إلا شكلاً من أشكال العداء للمجتمع والرغبة في الانتقام منه بجره إلى معارك ونزاعات دموية تقوم على أساس إدعاءات لا تصمد أمام العقل والمنطق، وهم لا يتورعوا عن إيذاء الغير بأي أسلوب وأية فرصة تتوفر لهم، لا يؤتمنون على شيء، فالكراهية والحقد هي من أقوى المشاعر التي تتحكم بهم.

٤: كما قلنا إن علاقتهم بالدين لم تأتِ من إيمان عميق ورغبة في تجسيد هذا الإيمان بالعمل على تعميمه ونشره بين المريدين، بل الدين بالنسبة لهم وسيلة عيش والحصول أو كسب متع الدنيا، كل المتع بكل الطرق والوسائل، لذلك تغدو الفتاوى الشاذة والغريبة أفضل الطرق لمن هو مستعجل منهم للشهرة والكسب فيأتي بالفتاوى المنكرة، ليظهر اسمه ويزداد أجره للتسريع في حيازته الملذات التي حُرم منها قياسًا لذوي المهن الناجحة، فكانت فتاوى بول البعير ونكاح الوداع ونكاح الجهاد وغيرها والترويج للمتعة، وإرضاع الكبير والدعوة لتحجب الشاب الجميل، وجواز استخدام المرأة للجزر لإشباع رغبتها وغيرها، مما هو شاذ وتافه من الموضوعات، الفتاوى التي تعكس تركيبة سيكولوجية وبني لا شعورية مريضة.

٥: الدنيا وملذاتها عندما تغدو هي الأصل في نشاط الإنسان، يصبح إرضاء إرادة المانح لهذه اللذات أو الممول أو المصدر هي العليا لا إرادة الله، لذلك نجد أن كل دولة أو مصدر مالي أو موضوع قوة له فقهائه ورجال دينه الذين يبررون له كل مفاسده على أنها جزء من إرادة إلهية وتحقيقًا لشرع الله، وهم مختلفون رغم أنهم جميعًا يستندون، كما يدعون لكتاب الله وشريعته وسيرة السلف الصالح، إلا أنه تفرقهم المصالح والتبعية لمصادر الرزق والقوة.

ويصبح الدين لعبة، والفتوى وسيلة للحفاظ على النظام في دولة المفتي أو الشيخ، فطاعة ولي الأمر حتى لو كان جائرًا وظالمًا؛ واجبة، والخروج على إرادة الحاكم خروجًا على إرادة الله في بلده، لكن تنقلب الآية ويغدو الخروج على الحاكم في دولة على خلاف مع نظام دولة الشيخ واجب فرض، والجهاد فريضة إسلامية يدعو الناس ألا يفوتوا الفرصة في نيل الشهادة والموت من أجل الدين لحيازة ملذات الجنة من حور العين وأنهار الخمر، لكنه يتشبث بمكانه الآمن مستغنيًا هو وأولاده عن كسب ثواب الجهاد وما يتبعه من ملذات الجنة، مكتفيًا بتواضع بما عنده من متع الدنيا!

كل شيء ممكن في دين إخوان الشياطين هؤلاء ، يتقبل أي شيء وكل المتناقضات ، فهم مفوضون من الرب بالقول بالشيء وعكسه ؛ طالما يخدم مصالحهم وتطلعهم لحيازة المزيد من الامتيازات ، ورضى أربابهم وحكامهم عليهم، فما هو محرم على الآخرين حلال عليهم والعكس صحيح أيضًا ، وفقًا لمتطلبات الحاجة والضرورة.

تلك خصائص غالبية رجال الدين المسلمين من كل الطوائف، تحاشا الكاتب ذكر الأمثلة الواقعية الكثيرة للدلالة على صحة وجهة نظره منعًا للإطالة، وليس فيها ما عاد خافيًا بعد انتشار استخدام اليوتيوب والفيس بوك وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي.

إنهم رجال دين إسلام الصهيونية المعولمة ، طول لحيتك ، وامسك مسبحة وتظاهر بالتدين واعمل بعدها ما شئت ؛ اسرق ، اكذب ، ازني ، بل حتى قود ، دمر البلدان وخربها ، تعامل مع المخابرات الأجنبية ، فكله دين ، ومن يعترض فأولئك هم الكفار الخارجين على الدين الذين يستحقوا الذبح.

تلك هي شريحة النخبة التي يخضع لها المجتمع العربي اليوم والتي تروج لها وسائل الإعلام المختلفة حتى تلك الملحدة والكافرة ، فنحن الآن واقعين تحت تأثير وقيادة جهالنا وأغبيائنا ومحدودي الذكاء ، والجماعات الحاقدة على الإنسانية والمجتمع ، وهم أصلاً من فاقدي الشعور بالمسؤولية الدينية والوطنية والأخلاقية ، فلنتوقع منهم كل شيء ، بما لا يؤتيه حتى المنحرف أخلاقيًا ، لعل المنحرف يخاف من غضبة المجتمع ، أما هؤلاء فهم يمتلكون القدرة باسم الله ونيابة عنه أن يخطئوا المجتمع ويتهموه بالانحراف إن لم يقبل انحرافاتهم وشذوذهم وسقوطهم وفشلهم في الحياة العامة.

الفصل الثالث عشر

الإسلام مقابل العروبة

حلف إسلامي في خدمة الصهيونية العالمية والحفاظ على أمن إسرائيل[1]

في عام ١٩٥٣ قام وزير الخارجية الأمريكية جون فوستر دالاس بزيارة مصر بهدف الترويج لحلف دفاعي مصري - إسرائيلي - تركي، بحجة تطويق الاتحاد السوفيتي ومنع انتشار الشيوعية، فرفض عبد الناصر المشروع وأجاب دالاس بأنه لا يشعر بأي تهديد سوفيتي، بل التهديد يأتي من إسرائيل الواقعة على حدودنا مباشرة.

عاد دالاس خائبًا من جولته تلك، ووقف أمام الكونغرس الأمريكي ليقول وجهة نظره حول ما استنتجه أو حققه في زيارته تلك، ليعلن: أن الخطر القادم في الشرق الأوسط لا يأتي من الشيوعية بل من الحركة القومية العربية.

١- ملاحظة: أرجو من المتخلفين والأغبياء والجهلة عدم التعليق إلا بعد الإطلاع على المصادر التالية، وهي بعض مما تناولت الموضوعات التي نطرحها هنا..

أيسر الكتب وأسهلها كتاب باترك سيل: الصراع على سوريا / ارسكين تشالدرز، الطريق إلى السويس، ترجمة خيري حماد/ ولبركرين ايفلاند، حبال من رمل، ترجمة سهيل زكار / مذكرات أيزنهاور، ترجمة خيري حماد / باتريك سيل، الصراع على سوريا، ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحة/ وأهمها وأخطرها جميعًا بالانجليزية: كتاب

John Campbel, Defence of the Middle East, Newyork:Harper &Brothers.1958.

وهي دراسة كُتبت لصاحب القرار الأمريكي تعرض احتمالات تطور الحركة القومية العربية وتطرح البدائل عند حصول حالة خطرة كتلك التي تم بها نسف أنابيب النفط العراقي إبان حرب السويس، من يقرأ الكتاب بتمعن، ثم يُغمض عينيه ويتأمل مجريات الأحداث على الأرض العربية يجد أن نسبة عالية من المشروعات والاقتراحات التي طرحها الكاتب قد تحققت فعلاً.

أما المُستأجرين لأداء أدوار وفقًا لمخططات مرسومة من هذا الطرف أو ذاك من أعداء الأمة العربية؛ نتمنى لهم الالتزام بأدب الحوار وأن لا يلزمونا بالنزول لمستواهم.

كان هذا الإعلان بداية لتحرك أمريكا ومخابراتها للبحث عن الوسائل والسلوكيات اللازم اتخاذها لمواجهة هذا الخطر الجديد، ومع تصاعد الحركة القومية العربية في سوريا ومصر خاصة بدأت المؤامرات الأمريكية تتوالى على سوريا باعتبارها العقدة الأكثر ليونة في هذا الخطر، خاصة بعد قيام عبد الحميد السراج مدير الشعبة الثانية (المخابرات العسكرية) ومجموعات الضباط القوميين بنسف أنابيب النفط العراقي التي تمر عبر سوريا إبان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وكان النفط العراقي هو المصدر الأول والأساسي لحاجات كل من بريطانيا وفرنسا، ما فرض على أمريكا التدخل للضغط على حلفائها لوقف الحرب لأنها اكتشفت أن لا النفط الأمريكي ولا الفنزولي كافيان للتعويض عن نفط العراق.. منذ ذلك الحين، تصاعدت حدة المؤامرات على سوريا ومصر، سنركز هنا على سوريا أكثر.

أخذ التآمر على سوريا منحيين:

الأول: بالتخطيط لانقلاب عسكري لعملاء أمريكا والغرب، ومرة بمحاصرتها وتهديدها بإرسال البوارج الحربية قبالة سواحلها، وحشد الجيش التركي على حدودها الشمالية، وإعلان أيزنهاور ما عرف بمبدأ أيزنهاور في حينها، الذي يؤكد على أن أمريكا مستعدة لتقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية للدول المهددة بالخطر الشيوعي، هذا الخطر الذي اكتشفته إدارة أيزنهاور من خلال صفقة السلاح التي اشترتها سوريا من روسيا.. أن تكون سوريا قوية فذاك خطر من الشيوعية العالمية يهدد مصالح الغرب وأطماعهم في الوطن العربي، وأمن ربيبتهم إسرائيل..

الثاني: كانت فكرة إقامة حلف إسلامي يدعو للوحدة الإسلامية لمواجهة مشروع الوحدة العربية، الغريب أنه وحتى الآن يقف من يتظاهروا بالدعوة للوحدة الإسلامية موقف العداء لشعار الوحدة العربية، مع أن النيات الصادقة

والمخلصة يمكن أن تنظر لهذه الوحدة كنواة للوحدة الإسلامية أو خطوة باتجاه تحقيقها.

كان من البديهي أن تلجأ أمريكا إلى أدواتها في المنطقة لتحقيق هذه المؤامرة (حلفائها من الحكام العرب ودول الجوار- تركيا وإيران - والسعودية خاصة)، فقامت بدعوة الملك سعود لزيارة أمريكا عام ١٩٥٧ لإقناعه في المبادرة بتشكيل حلف إسلامي، للنفخ في كبرياء الملك المتخلف والضحك عليه، كسر أيزنهاور لأول مرة البروتوكول الرئاسي الأمريكي وخرج لاستقبال سعود في المطار ، وتم إقناع سعود بالمباشرة بطرح التحالف الإسلامي تحت غطاء مواجهة الشيوعية والخطر السوفيتي.

عاد سعود من زيارته مرورًا بتونس بأمل أن يكسب الرئيس بورقيبة لجانبه بالحلف، لكن العلماني أبو رقيبة رفض الفكرة.

ماتت فكرة الحلف الإسلامي أمام المد القومي الشعبي العربي، وانهار مبدأ أيزنهاور بقيام الوحدة بين مصر وسوريا، لتصبح هي الهدف الرئيسي أو الموضوع الأساسي لتآمر تحالف الشعوبية الجديدة بين الإفرنجة وإسرائيل وحلفائهم بالمنطقة خاصة عائلة آل سعود.

لعل رشوة المليوني جنيه استرليني التي دفعها الملك سعود للعقيد عبد الحميد السراج، مدير المخابرات العسكرية السورية في حينها مقابل أن يتحرك لإفشال مشروع الوحدة، لدليل على حجم تصاعد توجهات الهستيريا العدائية المريضة عند الملك سعود ضد الحركة القومية العربية ورائدها الرئيس جمال عبد الناصر، هَدأتْ فضيحة الرشوة هذه التي كشفها السراج لعبد الناصر من اندفاع الملك سعود في عدائه المعلن ضد الحركة القومية العربية، ليتولاها ملك الأردن حسين بن طلال إلى أن تحقق لهذا التحالف الشعوبي إسقاط تجربة أول وحدة عربية، كان يمكن أن تشكل نواة لإقامة دولة عربية كبرى تمتلك كل الإمكانات والقدرات الكفيلة بتجاوز حالة التخلف والتبعية والضعف العربي.

لم تتوقف مؤامرات حلف الرجعيات العربية مع إسرائيل والغرب ضد الحركة القومية العربية، التي انتهت بعدوان حزيران، تشير كل الوقائع والدراسات إلى أنه كان من مقدماتها وأسبابها القوية حرب الإنهاك للجيش المصري في اليمن بقيادة العائلة السعودية مع حلفائها من القبائل المتخلفة في اليمن، كان الحوثيون يمثلون الحجم الأكبر بين هؤلاء الحلفاء من قبائل اليمن المؤيدة للملكية.

كشفت رسالة الملك فيصل إلى الرئيس الأمريكي جونسون التي يستحثه فيها على القضاء على عبد الناصر والجيشين العربيين السوري والمصري؛ النيات الكامنة ومشاعر الحقد على العرب والعروبة في نفوس أبناء هذه العائلة[1].

لعل أغرب مفارقات الحقد الشعوبي السعودي، أن حلفائها الأقوياء المقربين في حرب اليمن ضد الجيش المصري ، كانوا هم أنفسهم الحوثيون ، دعمتهم السعودية بالأموال والسلاح بدون حدود، رغم أن الحوثيين كانوا كما هم الآن قبائل من الشيعة الإثنى عشرية في مجتمع أغلبيته من الشيعة الزيدية، كما كانوا أيضًا يتلقون الدعم والتأييد من إيران الشاهنشاهية، أي أن شيئًا لم يتغير؛ لا في عقائد الحوثيين ولا في ارتباطاتهم بإيران في زمن الملكية المتوكلية في اليمن، كما في العهد الجمهوري ، لتتحرك السعودية الآن ضدهم باعتبارهم يمثلون رمزًا للنفوذ الإيراني في اليمن، كانوا كذلك يوم تحالفوا مع السعودية بقوة في أوائل السيتينات من القرن الماضي.

مؤشر كبير إلى ما يعنيه الحلف الذي شكلته السعودية لإعلان الحرب عليهم اليوم بحجة مواجهة النفوذ الإيراني في اليمن، هي حرب ضد الشيعة العرب لتعميم العداء والكره والانقسام، بينهم وبين إخوتهم السُنَّة العرب، لا دخل له بإيران ولا النفوذ الإيراني ، وإلا كان الأولى محاربة إيران أو على الأقل

١ – يمكن الإطلاع على نص الرسالة على الرابط التالي على الإنترنت:

https://tayyar3.wordpress.com/2013/06/03/نص-رسالة-الملك-فيصل-بن-عبد-العزيز-إلى-ال

الضغط عليها بالمحافل الدولية والطرق الدبلوماسية لتحرير الجزيرتين السعوديتين (عريبي وقرزان) المحتلتين من قبل إيران منذ ١٩٥٧.

الاحتلال الذي واجهته وما تزال تواجهه السعودية بالصمت، وفرض النسيان لولا أن الرئيس أيزنهاور كشفها في مذكراته، إضافة للحق العربي الواضح والصريح في الجزر الإماراتية الثلاث التي احتلتها إيران في أوائل سبعينات القرن الماضي، والحق العربي القديم في إقليم عربستان/ الأحواز الذي تحتله إيران منذ عام ١٩٢٥.

كان يمكن أن تستعمل السعودية عرب الأحواز للضغط على إيران بنفس الطريقة التي تستخدم بها إيران الحوثيين في اليمن، ياما نَبهتُ بأحاديثي في البرامج التي شاركت فيها على مختلف محطات التلفزيون إلى ضرورة اعتماد هذه الاستراتيجية لمواجهة النفوذ الإيراني في المنطقة العربية، كما نبهت لضرورة كسب ود الشيعة العرب كمصد قوي للتأثيرات الإيرانية، كما فعل صدام حسين في حربه مع إيران عندما أعطاها رموز قومية لكسب تأييد شيعة العراق خلال حربه مع إيران، محفزًا فيهم الروح القومية للتغلب على ما يمكن أن تعمله النزعات الطائفية من تراخي في القتال، خاصة وأن غالبية الجنود وضباط الصف في الجيش العراقي في حينها كانوا من الشيعة الذي قاتلوا دفاعًا عن وطنهم بإباء وشراسة.

ناشدتُ السعودية وبقية الدول العربية بضرورة دعم حركة التحرر الأحوازية، إلا أن أحدًا لم يعطِ أي اهتمام لنداءاتي، إلا بعد أن أعلنت السعودية حربها الشعوبية الحاقدة على اليمن تحت غطاء مواجهة النفوذ الإيراني بدأت تقرب بعض الانتهازيين والمتكسبين من القضية من الوجوه الأحوازية لترشي الواحد منهم بخمسين ألف دولار مقابل تجنيدهم واستخدامهم إعلاميًا.

إن هذا الدعم الصوري يمثل في مغزاه، كمون روحية عدائية وحربًا أخرى لقتل عرب الأحواز وتأجيج الحروب البينية بينهم بل ترسيخ السيطرة والهيمنة

الإيرانية في الأحواز، لتغدو أكثر قبولاً، فالسعودية تفرض على من يطمع في دعمها من الأحوازيين أن يعلن براءته من التشيع والتحول إلى المذهب الوهابي.

المعروف أن نسبة قد تصل إلى ٨٠-٩٠ % من عرب الأحواز هم من الشيعة الاثنى عشرية، مع نسبة من الصابئة العرب، لإيران وسائلها النفسية الخاصة لمداعبة مشاعر الحب لآل البيت لتحقق التأثير الذي يخدمها في عوطف حجم كبير من عرب الأحواز للوقوف بجنبها، عندما تنحرف المطالب الوطنية العربية الأحوازية من عناوينها القومية لتتحول إلى عناوين طائفية.

وجدت النزعات الشعوبية عند بعض الحكام العرب الذي عاشوا رعبًا لأكثر من ١٨ سنة على عروشهم المهددة بالسقوط، فرصتها التاريخية لأن تشد عزائمها للتخلص من الفكرة القومية العربية نهائيًا بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، بطرح الإسلام بمواجهة القومية العربية، فتنادت لإعادة بناء الحلم القديم بتشكيل حلف إسلامي بعد حادث حرق المسجد الأقصى في آب / أغسطس عام ١٩٦٩، في محاولة تهدف أيضًا تطمين الاستياء العام في الشارع العربي – الإسلامي من حرق أولى القبلتين، دون أن يقدم الحلف الجديد أي دعم للقضية الفلسطينية وموضوع المسجد الأقصى، سوى بيانات الاستنكار التي لا تعني غير ألفاظ وعبارات رنانة تشير إلى الاستكانة وغض النظر عن قضية فلسطين، وينتهي مفعولها بانفضاض المؤتمرين.

تلك هي المقدمات الأولية لتشكيل ما يسمى بمنظمة التعاون الإسلامي، الإسلام ضد العروبة أو العكس، وقد حققت القوى الشعوبية الحاكمة في الوطن العربي الانتصار على الحركة القومية بفرزها عن الإسلام، لكنها بدأت تشهد تصاعد مخاطر من نوع آخر، بانقلاب اللعبة والسحر على الساحر، غدت آداتهم ولعبتهم الإسلام نفسها هي الخطر، جسدته الثورة الإيرانية عمليًا، وليس فيهم من هو بقوة الشاه وعساكره ومخابراته، ثم عملية قتل السادات، لكن العقل

الصهيوني الحليف أوجد لهم حلاً جديدًا، إنها لعبة الطائفية، ليتشاغل المسلمين عنهم ويستنزفون قواهم في حروب ومعارك وانشغالات بعداواة غير مبررة فيما بينهم، ما يبعد خطر الإسلام عنهم، ومنع تكرار ما حدث للشاه والسادات من بعده، فكانت فرصة وسلاح جديد بيد العائلة السعودية لتكشف عن توجهاتها الشعوبية المعادية لكل ما هو عربي.

الدور الإسرائيلي والأهداف الإسرائيلية من الحلف الجديد:

كشف الصحفي اليهودي اليساري افنيري عام ١٩٨٢مخططًا وضعه كل من شارون وايتان وهما من كبار ضباط الجيش الصهيوني، ونشره وعلق عليه الأستاذ عصمت سيف الدولة بعنوان: (استراتيجية إسرائيل لثمانينات وتسعينات القرن العشرين "يمكن الإطلاع عليه من خلال جوجل") يهدف إلى إعادة تقسيم البلدان العربية الكبيرة إلى دول أصغر على أساس ديني ومذهبي، حصة العراق فيه ثلاثة دول (شيعية، سنية، كردية) وسوريا أربعة دول (سنية، علوية، درزية، مسيحية) مصر دولتين (مسيحية قبطية، إسلامية) وهكذا حتى لبنان والسعودية والسودان..

والحلف الحالي لا تخفي فيه السعودية هويته الطائفية، ليس موجهًا حتى ضد إيران بل يهدف إلى تعميق وتحفيز الخلافات الطائفية البينية، بين أبناء الأمة العربية، فهي لم تتحالف مع رفيقاتها من الدول العربية والإسلامية، من أجل أن تحارب إيران، أو كي تتمكن من مواجهة إيران من أجل تحرير جزيرتي عريبي وقرزان السعودية المحتلة من قبل إيران منذ عام ١٩٥٧، ولا الجزر السعودية المحتلة من قبل إسرائيل، ولا تحرير الجزر الإماراتية المحتلة من قبل إيران أو تحرير الأحواز، بل لمحاربة الشيعة العرب، وإثارة النعرات الطائفية وتأجيجها تمامًا كما أراد شارون وايتان في مشروعهما الرامي لإعادة تقسيم الدول العربية بما يضمن أمن إسرائيل إلى الأبد.

ليس المقصود بالحلف هو إيران بل الشيعة العرب مرموزًا لهم بالحوثيين، على أساس أنهم يمثلون واقع حال التهديدات الإيرانية، مع أن الحوثيين هم من أهل اليمن الأصليين منذ القدم ، موجودين على أراضيهم وهم شيعة منذ مئات السنين، حتى عندما تحالفت معهم السعودية لضرب الجيش المصري الذي جاء عام ١٩٦٣ لدعم النظام الجمهوري الذي أسقط حكم الأئمة ، كانوا أيضًا موجودين على أرضهم ، وكانوا شيعة ، يتعاونون بالمكشوف مع شاه إيران ، وإيران كانت وقتها أيضًا شيعية صفوية لم تتغير بتغير نظام حكمها أيضًا ، حتى إن كل ما عند الحوثيين من إمكانات ما زال الجيش السعودي بطيرانه وأسلحته الحديثة يعجز عن مواجهتها ، هي إمكانات تراكمت عندهم بفضل المساعدات التي قدمها لهم حليفهم السعودي، أيام الود والمحبة.

كيف يُفهم العداء لإيران والتصدي للتوسع الإيراني ، والسعودية نفسها وليس هناك من دولة غيرها هي من قدم العراق لإيران على طبق من ذهب ، وفتح أبواب العالم العربي لإيران، باستدعائها القوات الأمريكية وحلف الناتو للاعتداء على العراق في العدوانين عام ١٩٩١ وعام ٢٠٠٣ (انطلاقًا من الأراضي السعودية وليس من سوريا أو إيران تقدمت القوات المعتدية) ، متناسية أن العراق حارب لثماني سنوات وضحى بأكثر من نصف مليون (أكثرهم من شيعة عرب العراق) ، من أبنائه لإبعاد أي خطر إيراني محتمل عليها.. وهل كان بقدرة جندي إيراني واحد أن يتجاوز الحدود العراقية بخطوة قبل الاحتلال..

من أين أتت هذه الحمية والشيمة للنظام السعودي ليحارب إيران ، لا في الخليج العربي لتحرير جزره أو الجزر الإماراتية ، بل في اليمن ضد الشيعة العرب لتصعيد الخلافات العربية بين الطوائف حفاظًا على أمن حليفتها إسرائيل، التي تحتل الجزر السعودية في البحر الأحمر ، فإسرائيل لا تشكل خطر على مملكة

آل سعود ، واستهتارهم بالإسلام والعروبة ؛ بل العكس إن الكيان الصهيوني يشكل أحد مصادر القوة والدعم للحكم السعودي.

ليس عصيًا على الفهم أن حكومات التجزئة العربية تتبادل الحماية مع إسرائيل ، وسواء أعلن أو لم يعلن هذا التحالف ، إن كل منهما يشكل حزامًا أمنيًا للحفاظ على وجود الآخر.. فكلاهما ، دول التجزئة العربية وإسرائيل ، كانت من صُنع الغرب الاستعماري للحفاظ على المصالح الغربية في المنطقة، بديهي أن تتبادل هذه الصنائع الحماية والدعم فهي تعرف أن سقوط إحداها يعني تهاوي الأخرى، اتضح هذا التحالف والحماية المتبادلة عن نفسه بتصريحات موشي ديان في أيلول عام ١٩٧٠ إبان الحرب بين المقاومة الفلسطينية والسلطة الأردنية ، عندما أعلن: أن القوات الإسرائيلية كانت تراقب الأحداث مستعدة للتدخل وحماية نظام الملك حسين في حالة هزيمته أمام المقاومة.

من غرائب هذه المعادلة التي قد لا تحتاج لكثير من الذكاء لفهمها ، أن تتحول بعض القوى المحسوبة على الحركة القومية العربية والتي كانت موضوعًا للعداء الشعوبي السعودي ، بل كانت هزيمتها وسقوطها هي إحدى النتائج المكشوفة للعلن للتحالف بين السعودية والغرب وإسرائيل ، أن يعلن بعثيوا عزة الدوري وبافتخار وقوفهم في صف الحلف الإسلامي الذي جاء ليكمل المشروع الصهيوني في إعادة تقسيم الدول العربية ، ويشكر عزة المملكة العربية على الخدمات الجليلة التي قدمتها للعراق وشعبه ، ومبادرتها لمواجهة إيران بذبح عرب اليمن، وسوريا والعراق، وتخريب بلادهم.

يُفهم من مصطلح الخدمات الجليلة التي قدمتها السعودية للعراق ، أنها تتمحور حول إزاحة صدام حسين ، ما يعزز غرور عزة بأنه أصبح القائد الأول والأوحد للحزب ولو على شبكات الإنترنت ، لكن عزة لم يتخلص بعد من إرث صدام ، فكما اختزل سيده العراق كل العراق بنفسه ، يكرر هو التلميذ النجيب نفس الظاهرة ، فالخدمات الشخصية التي قدمها النظام السعودي لعزة بإيواءه

وحمايته هو وعائلته بعد احتلال العراق ، أصبحت خدمات جليلة للشعب العراقي، فعزة وعائلته هما الشعب ، وليذهب الشعب العراقي بعربه وأكراده مسلمين أو من أديان أخرى، شيعة أو سنة، إلى الجحيم.

من يتابع خطابات عزة الدوري وعصابته يستغرب أنه يساهم ويساهمون بجد وإخلاص واندفاع بهذه الحرب المعلنة على الأمة العربية ، وينسى فلسطين والعراق وسوريا المهددة بالتقسيم ليرحل النزاع القومي مع إيران الفارسية إلى عداء لإيران بصفتها المذهبية ، يريد تعميم معادلة السُنَّة العرب ضد إيران الشيعية (الصفوية) كما يردد بخطاباته، ومن خلال المواقع التي يشرف عليها أزلامه، يرفع أتباعه حتى العلمانيين منهم يديه متضرعًا بالدعاء إلى الله لينصر رائد القومية العربية الجديد، الملك سليمان وخليفته محمد.

مشكلة عزة وحزب البعث السعودي المعولم مع إيران ليست الأحواز ولا الجُزر الإماراتية والسعودية المُحتلة من قبل إيران بل مذهب إيران الصفوية وتعميم الاجتهادات الصفوية على بقية الشيعة العرب ، لعزلهم عن مجتمعهم وأوطانهم ، وتحويل نزعاتهم العروبية إلى نعرات وتعصب طائفي مشحونة بالعداء لحد الاقتتال البيني مع إخوانهم السُنَّة العرب!.



المصادر والمراجع

١. إبراهيم الجبوري، سنوات من تاريخ العراق، النشاط السياسي المشترك لحزبي الاستقلال والوطني الديمقراطي، بغداد: المكتبة العالمية بلا تاريخ.
٢. أبو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، الكويت: دار القلم ١٩٧٨، ص: ١٧.
٣. أحمد أمين، ضحى الإسلام، بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٦، ج٢.
٤. (........)، فجر الإسلام، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٥، ص:٢٦٦-٢٧٨.
٥. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، السياسة الشرعية، تحقيق أنور الباز، مصر – المنصورة: ٢٠٠٩.
٦. ابن تيمية، الخلافة والملك، الأردن – الزرقا: مكتبة المنار، ١٩٩٤.
٧. (........)، الإيمان، تحقيق وتخريج عصام الدين الصباطي، القاهرة: دار الحديث ١٩٩٤.
٨. (........)، الإيمان الأوسط، الجزائر العاصمة: الشركة الجزائرية اللبنانية، ٢٠٠٦.
٩. (........)، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١٢.
١٠. (........)، رسالة أصول الدين، دراسة وتعليق يوسف اللبان، القاهرة: مكتبة أولاد الشيخ للتراث، ٢٠٠٥.
١١. عبد الوهاب المؤدب، أوهام الإسلام السياسي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٢.
١٢. أحمد الكاتب، الفكر السياسي الوهابي، دار الشورى للدراسات والإعلام، ٢٠٠٣.
١٣. (........)، السنة والشيعة: وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ، بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون.
١٤. د. أنور عبد الله، العلماء والعرش، لندن: مؤسسة الرافد للنشر والتوزيع، ١٩٩٥، ص: ٤٧٥.
١٥. أحمد رائف، الكتاب الأسود: امنعوا هذا الرجل من هدم الكعبة – صدام حسين، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٠.

١٦. كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٢، بجزئين.
١٧. عبد الرحمن الشرقاوي، أئمة الفقه التسعة، بيروت: دار اقرأ، ١٩٨١.
١٨. أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، ج١.
١٩. أحمد يوسف وآخرون، ساطع الحصري – ثلاثون عامًا على الرحيل، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.
٢٠. أحمد الوائلي، هوية التشيع، بيروت: مؤسسة أهل البيت، ١٩٨١.
٢١. أمين هويدي، كنت سفيرًا في العراق ١٩٦٣- ١٩٦٥، القاهرة: دار المستقبل العربي: ١٩٨٣.
٢٢. بيتر و.غالبريث، نهاية العراق، ترجمة إياد أحمد، بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٧.
٢٣. تيخونوفا، ساطع الحصري – رائد المنحى العلماني في الفكر العربي، موسكو: دار التقدم، ١٩٨٧.
٢٤. حازم المفتي، العراق بين عهدين: ياسين الهاشمي وبكر صدقي، بغداد: مكتبة اليقظة العربية، بلا تاريخ.
٢٥. جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي البغدادي، تلبيس إبليس، بيروت: دار الفكر، ٢٠١٠.
٢٦. جيلز كيبل، الفرعون والنبي، ترجمة أحمد خضر، القاهرة: مؤسسة دار الكتاب الحديث، ١٩٨٨.
٢٧. حامد البياتي، شيعة العراق بين الطائفية والشبهات، لندن: دار رافد للنشر، ١٩٩٧.
٢٨. حسن خليل غريب، المقاومة الوطنية العراقية، بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٤.
٢٩. حسين جميل، العراق – شهادة سياسية ١٩٠٨-١٩٣٠، لندن: دار الأم، ١٩٨٧.
٣٠. حميدة نعنع، طارق عزيز: رجل وقضية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢.
٣١. حنا بطاطو، العراق – الكتاب الثالث: الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٢.

٣٢. رجاء حسين خطاب، العراق ١٩٢١ - ١٩٢٧، بغداد: جامعة بغداد، بلا تاريخ.
٣٣. رشيد خيون، لاهوت السياسة: الأحزاب الدينية المعاصرة في العراق، بغداد: دراسات عراقية، ٢٠١٠.
٣٤. د. رفعت سيد أحمد، تنظيمات الغضب الإسلامي في السبعينات، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩
٣٥. د. رفعت السعيد، المتأسلمون: الإرهاب والفتنة الطائفية، القاهرة: الأهالي للنشر والتوزيع، ١٩٩٤.
٣٦. روح الله الخميني، الحكومة الإسلامية، بلا دار نشر، بلا تاريخ.
٣٧. ساطع الحصري: مذكراتي في العراق -١٩٢١-١٩٢٧، الجزء الأول، بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧.
٣٨. د. سعيد السامرائي، الطائفية في العراق، لندن: مؤسسة الفجر، ١٩٩٣.
٣٩. سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، بيروت: دار الشروق، ط٤، ١٩٨٠.
٤٠. (........)، معركة الإسلام والرأسمالية، دار الشروق، ١٩٨٠.
٤١. (........)، نحو مجتمع إسلامي، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٠.
٤٢. (........)، هذا الدين، بيروت: دار الشروق، ١٩٧٩.
٤٣. (........)، معالم في الطريق، بيروت: دار الشروق، ٢٠٠٨.
٤٤. شمران العجلي، الخريطة السياسية للمعارضة العراقية، لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٠.
٤٥. د. صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزاني، شرح كتاب كشف الشبهات، القاهرة: دار الإمام أحمد ٢٠٠٨.
٤٦. شرح القواعد الأربع، القاهرة: دار الإمام أحمد، ٢٠٠٦.
٤٧. صبحي عبد الحميد، مذكرات: العراق في سنوات الستينات ١٩٦٠-١٩٦٨، دمشق: دار بابل، ٢٠١٠.
٤٨. صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، الرباط: تانيت للنشر، ١٩٩٤، ص:٨١.
٤٩. صلاح الخرسان، حزب الدعوة الإسلامية: حقائق ووثائق، دمشق: المؤسسة العربية للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ١٩٩٩.
٥٠. طه حسين، الفتنة الكبرى: علي وبنوه، القاهرة: دار المعارف، ط١٢، بدون تاريخ.
٥١. (........)، الفتنة الكبرى: عثمان، القاهرة: دار المعارف، ط١٢، بدون تاريخ.

٥٢. علي الحسيني الخامئني، أجوبة الاستفتاءات، بيروت: دار الحق، ١٩٩٥، ص:١١٤.
٥٣. عادل غفوري خليل، أحزاب المعارضة العلنية في العراق، ١٩٤٦-١٩٥٤، بغداد: المكتبة العالمية، ١٩٨٤،
٥٤. عادل حمودة، الهجرة إلى العنف، القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٧.
٥٥. (..........)، قنابل ومصاحف، القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٩.
٥٦. عادل رؤوف، أنبياء وأصنام، دمشق: المركز العراقي للإعلام والدراسات، ٢٠٠٩، ط٢.
٥٧. (........)، مرجعية الميدان: محمد محمد صادق الصدر، دمشق: المركز العراقي للإعلام والدراسات، ١٩٩٩.
٥٨. (........)، العمل الإسلامي في العراق بين المرجعية والحزبية، دمشق: المركز العراقي للإعلام والدراسات، ٢٠٠٦.
٥٩. عادل الجوجري، أسرار وخفايا المقاومة العراقية، القاهرة: دار الكتاب العربي ٢٠٠٥.
٦٠. د. عبد الكريم العلوجي، ٥ سنوات احتلال: أين العراق اليوم، دمشق، ٢٠٠٨.
٦١. عباس الزيدي المياحي، السفير الخامس، بيروت: ممثلية المرجع الشهيد السيد محمد الصدر، ٢٠٠١.
٦٢. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، بلا تاريخ.
٦٣. (........)، تاريخ الوزارات العراقية، الأجزاء ١ - ٤، بلا دار نشر، ط٧، ١٩٨٨،
٦٤. (........)، تاريخ الأحزاب السياسية العراقية، بيروت: مركز الأبجدية للطباعة والنشر، ١٩٨٣.
٦٥. د.عبد الله الفياض، تاريخ الشيعة الإمامية وأسلافهم من الشيعة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٦.
٦٦. عبد الله الجيزاني، حزب الاستقلال العراقي ١٩٤٦-١٩٥٨، دمشق: بلا دار نشر، ١٩٩٤.
٦٧. عبد الله فهد النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، بيروت: دار النهار.

٦٨. عبد الرحمن الشرقاوي، أئمة الفقه التسعة، بيروت: دار اقرأ، ١٩٨١.
٦٩. عبد الحليم الرهيمي، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، بيروت: الدار العالمية للنشر، ١٩٨٥.
٧٠. عبد الوهاب المؤدب، أوهام الإسلام السياسي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٢.
٧١. عبد الكريم الازري، مشكلة الحكم في العراق، لندن: بلا دار نشر، ١٩٩١.
٧٢. الدكتور علي الوردي، وعاظ السلاطين، لندن: دار كوفان، ١٩٨٣.
٧٣. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، لندن: دار كوفان، ١٩٩٢. خاصة الأجزاء ٣، ٥، ٦.
٧٤. علي شريعتي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، بيروت: بلا دار نشر، بلا تاريخ.
٧٥. علي الحسيني السيستاني، المسائل المنتخبة: العبادات والمعاملات، الشارقة، بلا دار نشر، ٢٠٠٤.
٧٦. علي المؤمن، سنوات الجمر، لندن: دار المسيرة، ١٩٩٣، ص:١٧٧.
٧٧. غسان شربل، صدام مر من هنا، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٠.
٧٨. فتحي رشيد، حدث ويحدث في العراق والمنطقة – أمركة أم صهينة، دمشق: بلا دار نشر، ٢٠٠٣ .
٧٩. فؤاد إبراهيم، الفقيه والدولة: الفكر السياسي الشيعي، بيروت: دار الكنوز الأدبية، ١٩٨٩.
٨٠. فهمي هويدي، إيران من الداخل، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨.
٨١. فريال حسن خليفة، أهمية العقل، القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع.
٨٢. قسطنطين زريق، يقظة العرب ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٢.
٨٣. كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، جزئين، بيروت: دار الاندلس، ١٩٨٢.
٨٤. محمد باقر الصدر، الفتاوى الواضحة وفقًا لفتاوى آل البيت، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ط ٨- ١٩٨٦.
٨٥. محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، تحقيق د. علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ج٢، ٢٠٠١.

٨٦. محمد بن عبد الوهاب، التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، الرياض: جامعة محمد بن سعود الإسلامية، بلا تاريخ.

٨٧. محمد جواد مغنية، الخميني والدولة الإسلامية، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩.

٨٨. الشيعة والتشيع، بيروت: دار الكتاب اللبناني، بلا تاريخ.

٨٩. محمد رضا النعماني، الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار، قم: بلا دار نشر، بلا تاريخ.

٩٠. محمود إسماعيل، الخطاب الديني المعاصر بين التقليد والتجديد، القاهرة: ٢٠٠٥، دار مصر المحروسة.

٩١. مديرية الأمن العامة – مركز التطوير الأمني بعنوان "منظمة العمل والدور المشبوه"، بلا دار نشر، بلا تاريخ.

٩٢. مرتضى مطهري، مبدأ الاجتهاد في الإسلام، طهران: مؤسسة البعثة، ١٣٥٧ ه.

٩٣. د. مصطفى بو هندي، أكثر أبو هريرة، الدار البيضاء: مطبوعات الصباح الجديدة، ٢٠٠٣.

٩٤. محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، القاهرة: المطبعة العربية، ١٩٥٨.

٩٥. مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية، أزمة شيعة العراق، لندن: منشورات مؤسسة الخوئي، ٢٠٠٢.

٩٦. مجيد خدوري، العراق الجمهوري، بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤.

٩٧. مجموعة من علماء النفس السوفييت، علم النفس الاجتماعي وقضايا الإعلام والدعاية، ترجمة نزار عيون السود، دمشق: دار دمشق، ١٩٧٨.

٩٨. مجموعة كتاب، المقاومة والحرب الأهلية في العراق، ترجمة: مها سلمان سعود، السويداء – سوريا: ٢٠٠٧.

٩٩. محمد الحسيني الشيرازي، المسائل الإسلامية، بلا دار نشر، ط ١٠، ١٩٨٩.

١٠٠. د. محمد تيجاني السماوي، ثم اهتديت، لندن: مؤسسة الفجر، ١٩٩٣.

١٠١. لأكونن مع الصادقين، باريس، بدون دار نشر، ١٩٨٧ .

١٠٢. د. مختار حمزة، أسس علم النفس الاجتماعي، جدة: دار البيان العربي، ط٢، ١٩٨٢.

١٠٣. مرتضى مطهري، مبدأ الاجتهاد في الإسلام، طهران: مؤسسة البعثة، ١٣٥٧ ه.
١٠٤. د. معتز سيد عبد الله، الاتجاهات التعصبية، الكويت: عالم الثقافة العدد ١٣٧، ١٩٨٩.
١٠٥. د. موسى الموسوي، الشيعة والتصحيح، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٩.
١٠٦. د. موسى الحسيني، المقاومة العراقية والإرهاب الأمريكي المضاد، بيروت: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٦.
١٠٧. (........)، ساطع الحصري والخطاب الطائفي الجديد، لندن: دار الكوثر، ٢٠٠٠.
١٠٨. (........)، مرجعية السستاني والاحتلال، قراءة وطنية في مذكرات بريمر، نشرت بثلاث حلقات في جريدة القدس في شهر تموز ٢٠٠٦، كما يمكن الإطلاع عليها على الرابط التالي:
http://articles-to-read.blogspot.co.uk/2006/07/blog-post_19.html?m=0
١٠٩. مونتغمري وات، الفكر السياسي الإسلامي، ترجمة صبحي الحديدي، بيروت ك دار الحداثة، ١٩٨١.
١١٠. ناصر السعيد، تاريخ آل سعود، منشورات اتحاد شعب الجزيرة العربية، بلا تاريخ.
١١١. نهج البلاغة، تحقيق محمد عبده، ج٢، الصفحات ١٨،٣٨.
١١٢. د. هشام جعيط، الفتنة، بيروت: دار الطليعة، بلا تاريخ.
١١٣. هشام مبارك، الإرهابيون قادمون، القاهرة: كتاب المحروسة، ١٩٩٥.
١١٤. د. هيثم غالب الناهي , خيانة النص، لندن: دار الأندلس، ٢٠٠٢.
١١٥. وليم كليفلاند، ساطع الحصري- من الفكرة العثمانية إلى العروبة، ترجمة: فكتور سحاب، بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣.
١١٦. د. وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤.
١١٧. Kenneth J. Gergen/Mary M. Gergen, Social Psychology,New York:HBJ,1981,pp.339-343.
١١٨. Andrew M. Golman,A Dictionary of Psychology, Oxford: Oxford University Press.p.628.
١١٩. Helen Kaye ,Edited by ,Cognitive Psychology, London: The Open University,2010 ,PP: 26-151.

المؤلف في سطور

- مفكِّر وخبير استراتيجي عراقي ، من مواليد ٢٣ /٥ /١٩٥٠ في قضاء الخضر.
- خريج الكلية العسكرية العراقية ، الدورة ٤٨ ، في ٣٠/٥/ ١٩٧٠
- أُتهم بالتامر على الحزب والثورة من قِبل نظام البعث بسبب انتمائه للخط القومي الناصري ما اضطره للجوء إلى سوريا في أيلول ١٩٧١، وصدر بحقه حكم غيابي بالإعدام من قِبل محكمة أمن الثورة، بتهمة التآمر على الحزب والثورة، وحكم آخر من المحكمة العسكرية الخامسة لهروبه من ساحة حركات، حيث كانت الخدمة العسكرية في شمال العراق تعتبر ساحة حركات .
- عاد إلى العراق في آب ١٩٧٤، بعد صدور عفو عن المعارضين في الخارج ، بعد ما عُرف بمؤامرة ناظم كزار .
- تفرغ للعمل في صفوف المقاومة الفلسطينية للفترة ١٩٧٣-١٩٨٥
- حصل على درجة البكالوريوس في الإرشاد النفسي والتربوي عام ١٩٧٨، من قسم التربية وعلم النفس – كلية الآداب الجامعة المستنصرية.
- عمل كسكرتير تحرير لمجلة اتحاد الآداب خلال دراسته.
- عمل لمدة ستة أشهر سكرتيرًا لمجلة "رسالة النقل" التي يصدرها المكتب الإعلامي لوزارة النقل العراقية، ثم أُبعد عنها بسبب رفضه الانتماء لحزب البعث.
- اضطر لمغادرة العراق ثانية في آب ١٩٧٩، بسبب المضايقات التي تعرَّض لها من قِبل الحزب وأجهزته الأمنية، لاتهامه بالتمسك بالخط القومي العروبي الناصري .
- حاصل على شهادة دبلوم عالي في علم النفس الاجتماعي ١٩٨٣ ، من مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية جامعة لندن. عُودلت بدرجة الماجستير من قبل جامعة سالفورد البريطانية لأغراض القبول على مستوى الدكتوراة. كتب كجزء من متطلبات الشهادة بحثًا مصغرًا عن الأسباب النفسية للتدين في الوطن العربي.

- حاصل على شهادة دكتوراة فلسفة من جامعة سالفورد عام ١٩٨٧، عن بحثه "الحركة القومية العربية من ١٩٥٢-١٩٦١) ناقش فيه أثر الحركة القومية العربية وتأثرها بالعلاقات الدولية.
- عمل مقدمًا للبرامج في محطة (الآي. إن. إن - شبكة الاخبار العربية) من عام ٢٠٠٦-٢٠١٤. كما شارك في مئات البرامج التلفزيونية على محطات: المستقلة، الحوار، الآي. إن. بي ، العربية ، الجزيرة .
- كتب في العديد من الصحف والمجلات العربية، منها : السفير اللبنانية ، العرب اللندنية ، الزمان اللندنية ، تشرين السورية ، القدس اللندنية ، الملف العراقي ، مجلة القمة العربية ، افاق عربية ، مجلة المستقبل العربي اللبنانية .
- عضو اتحاد الصحفيين البريطانيين
- عضو الجمعية النفسية البريطانية
- كتب مجموعة من الكتب منها :

. ساطع الحصري والخطاب الطائفي الجديد : عام ٢٠٠٠

. العسكر والسياسة في العراق : عام ٢٠٠٣

. المقاومة العراقية والإرهاب الإميركي المضاد : عام ٢٠٠٦ ".

. الطائفية في الوطن العربي، أسبابها ومظاهرها، العراق نموذجًا : عام ٢٠١٧

- البريد الإلكتروني : drmalhussaini@gmail.com



Tel :(+2) 01288890065

www.shams-group.net